عبد المنعم محمد خلاف

أومن بالإنسان!

هتاف من سبحات الفكر وأعماق الضمير
لبناء الحضارة والسلام العالمي على عقيدة
يوحيها التأمل في أسرار الإنسان تحت
ضغط ما أصابه من وقائع الطغيان والسجن
والانتكاس التي جلبها عليه كفره بالإنسانية
الواحدة إزاء الطبيعة الواحدة

١٩٤٥

obeikandl.com

نحو أساس روحي للحضارة المادية

سلسلة ذات خمس حلقات يحاول بها المؤلف آداء واجب من
واجبات الفكر الإسلامى الحديث فى التمهيد الفكرى
والوجدانى لقيام الحضارة الروحية المادية المنشودة

١ — **أومن بالانسان !**

٢ — **العقل المؤمن !** (تحت الطبع)

أو

الدين من طريق الفكر

بحوث حرة فى أصول الإيمان ودعوة عصرية إلى تجديده

٣ — **الحياة صارقة !** (تحت الطبع)

أو

نزعة التفاؤل

دعوة إلى الاستعلاء على الآلام ، وإلى تعرف وجهات الحياة
والإقبال عليها ، وعلى العمل المثمر والكفاح الصابر

٤ — **صلوات فكر فى محاريب الطبيعة !** (تحت الطبع)

تأملات فلسفية وخطرات وجدانية ترجع الإنسان الشارد
إلى أحضان الطبيعة وتوقظ فكره إلى أعاجيبها والتملى
من جمالها والتعبد لبارئها

٥ — **محمد يدعو !** (تحت الطبع)

أو

نهضة الروح الإسلامى الحديث لمشاركة الروح
المسيحى والروح اليهودى إقامة الحضارة المنشودة

obeikandl.com

الفهرس

صفحة

تقديم لمعالي الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا ... ... و
الإهداء ... ... ز
ابتهال ورجاء وتعريف ... ... ح

١ — تمهيد

أطرحها قضية ٢

٢ — في موازين الحس والفكر والضمير

عقدة الثمرة من هذا الكتاب ٢٠
نظرة المفارق لنفسه ونوعه ٢٢
استعراض وتفصيل ٣٢
فوق الموازنة ٤٣
في معترك الآراء ٥١
مسرح هائل وممثل واحد ٦٦
الانتظار ٧٥
منابع الفكر ومصابه ٨٣
أدركت الثمار وآن القطاف ٩٤
حيث الأنس بالإنسان ١٠٢
الضمير ووصايته على الحياة ١١٥
التحرر من التاريخ ١٢٦

٣ — في أصول الاجتماع والسياسة والاقتصاد

عقيدة الجنس ١٤٠
النقص والتكامل ١٤٦
الواحد ١٥٨
اللؤلؤة والصدفة ١٦٦
الفكر والسلطة ١٦٤

صفحة

ثورة الفكر على الواقع ١٨٤
المسألة الأفعوانية ١٩٢
جرائم العفاوت الفاحش ١٩٧
هذه الحرب وعبرتها ٢٠٤

٤ — نحو أساس روحى للحضارة المادية

بين الوعى والذهول ٢١١
صوفية مادية ٢٢٠
الباقى من صانع الحضارات الفانى ٢٣٠
إلى العقل الغربى من الروح الشرقى ٢٣٤

٥ — أما بعد

متى النور يا ظلمات ٢٤٧

obeikandl.com

تقـــديم

بقلم عميد الفلسفة الإسلامية والأدب النفسي حضرة صاحب المعالي الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا وزير الأوقاف

لما لقيت الأستاذ عبد المنعم خلاف أول ما لقيته كدت أعرف من هو من قبل أن أسأله من أنت ، فقد توسمت في وجهه ملامح من سمات أبيه رحمه الله . وكان أبوه رجلا من كبار العلماء في الأزهر ومن كبار الصالحين ، وكنا نستفيد من علمه وكنا نلتمس من بركته . ففي جيلنا كان الناس يؤمنون بأن في بعضهم بركة ، وأن صفاء القلب وقوة الإيمان تجعل الأرواح فياضة بالخير ، وتجعل دعواتها مفتحة لها أبواب السماء .

واصلت معرفتي بالأستاذ عبد المنعم بعد هذا ، وقرأت كثيرا مما يكتبه ، فازددت يقينا بأنه ورث من أبيه العلم وورث من أبيه التقى . وقد قرأت كتابه ، فوجدت فيه عقلا ودينا . وإذا كان أبو العلاء يقول :

إثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، وآخر دين لا عقل له

فإن في الناس على رغم أبي العلاء من لهم عقل ودين .

والأستاذ عبد المنعم خلاف يريد في كتابه أن يؤمن البشر بأن الإنسان أكرم أنواع الكائنات الأرضية ، وأن يكون هذا الإيمان سبيلا إلى تحليهم بأشرف الفضائل ، وإلى تسامي جماعاتهم إلى أرقى السعادات الاجتماعية .

يبسط الأستاذ القول فى هذه المعانى ويفصله فى حماسة تخيل إليك كما خيلت إليه أنه اكتشف نظرية فى الكون جديدة ، وقد لا يكون الأستاذ اكتشف نظرية جديدة ، ولكنه اتجه بكل ما فى نفسه من شباب و إيمان وذكاء إلى تقرير معنى السمو فى الطبيعة الإنسانية ، و إلى دفع الشعوب إلى الخير من هذه الناحية ، وهذا صنع مشكور فى موضوعه وفى غايته .

والمرجو أن ينتهى جد الأستاذ فى تفكيره ودرسه إلى فلسفة تكون جديدة حقا ، ويكون أثرها فى إسعاد الإنسانية عظيما إن شاء الله .

مصطفى عبد الرازق

oberkandl.com

الإهـــداء

إلى الأبطال الثلاثة :

التوراة ، والإنجيل ، والقرآن !

الذين ثبتوا يكافحون فى الدهر الأطول ، قوى الظلام والطغيان والهوان ، نضالا عن كرامة رُوح الإنسان !

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وبسم الله السلام المؤمن !

والحمد لله رب العالمين .

والصلاة والسلام على صفوة الإنسانية ، وأشرف الصورة الجسمانية (محمد) وعلى جميع رسل الله وأصفيائه الذين أحيوا قلوب الناس بمعانى الإيمان ، وهدوا عقولهم بهدى السلام ، وأقاموا حياتهم بعواطف البر والرحمة ، وعلى من اهتدى بهداهم إلى اليوم الأخير للإنسانية على هذه الأرض !

وأبتهل إلى الله العلى الكبير بهذا الابتهال العميق الذى ابتهل به « فرانكلين روزفلت » رئيس « الولايات المتحدة الأمريكية » الراحل ، وأعظم معاصر مسئول عبر عن الروح المؤمنة بالإنسان ؛ إذ لا أجد تعبيراً أبلغ ولا أفصح منه عما أريد أن أبتهل به فى صدر هذا الكتاب .

قال حين خطب فى يونية سنة ١٩٤٢ فى « يوم العلم » والاحتفال « بتصريح الأمم المتحدة » :

« إلهنا ! يامانح الحرية . إننا نضع أفئدتنا وأرواحنا اليوم رهن قضية حرية الجنس البشرى كافة . امنحنا اللهم الإيمان والفهم لنحيا ونعتز بالذين يحاربون من أجل الحرية كما لو كانوا إخوة لنا . امنحنا اللهم التآخى

فى الأمل والاتحاد ، لافى فترة الحرب المريرة فحسب ، بل فى الأيام المقبلة أيضا ، وهى الأيام التى يجب أن توحد — وسوف توحد ! — جميع أبناء هذه الأرض . فإذا ماظلم إخوتنا فنحن كذلك مظلومون ، و إذا كانوا جياعا فنحن كذلك جياع ، و إذا كانت الحرية قد انتزعت منهم فإن حريتنا غير مصونة » .

« امنحنا اللهم إيمانا مشتركا بأن الإنسان سيكون له الخير والسلم ، والعدالة والبر ، والحرية والأمان ، وتساوى الفُرَص ، لا فى وطننا فحسب ، بل فى جميع أنحاء العالم أيضا » .

* * *

و يرجو الناس من « الولايات المتحدة الأمريكية » أن تسير هكذا دائما فى السياسة على عقائد روحية وأفكار مخلصة و إدراك عميق لحقائق الحياة والعلم والإيمان ، لا على « مناورات » السياسة وألاعيب الاقتصاد ، وفلسفة الطغيان والكبرياء والبطش والمفاضلة العنصرية وحب القهر والاغتصاب ؛ فهى بهذا أقرب النماذج الدولية الغربية إلى الحياة المنشودة بين الأجناس والأديان والألوان والشعوب .

ونرجو أن تدرك حق الإدراك مركزها الممتاز ورسالتها العظمى فى توطيد حياة السلام والعدالة الدولية والإنصاف للشعوب الصغرى بعد هذه الحرب ، فلا تنساها أو تتكاسل عن تحقيقها ، كما نسيت وتكاسلت بعد الحرب الماضية ، فكان جزاؤها أن اضطرت مرة أخرى إلى بذل هذا الجهد الجبار بالدم والمال والموارد وقوى الكفاح . . هذا الجهد الذى

كان يسعدها ويسعد العالم لو بذل نصفه أو أقل من نصفه فى حياة السلام والاستقرار قبل هذه الحرب .

ولقد قال الراحل (وندل ويلكى) منافس (روزفلت) فى انتخابات سنة ١٩٤٠ بتاريخ ١٩٤٢/١/١٤ — « إننا جميعا نلوم (هتلر) وحده ، بيد أن هذه الفكرة السطحية ليست صحيحة ؛ فاللوم لايقع على (هتلر) وحده ، بل ينصبّ علينا إلى حد ما ؛ فلقد سمحنا فى الماضى لإنتاجنا الصناعى العظيم أن يتحكم فينا ، وأن يتغلب على مثلنا العليا » .

أجل ، هذا هو موضع الداء وضع (ويلكى) أصبعه عليه .. فإن « الولايات المتحدة الأمريكية » كان يجب أن يكون موقفها بعد الحرب الماضية موقف « رسول » من العالم الجديد السعيد بتنامى أحقاده الجنسية وفوارقه السطحية ، إلى العالم القديم الذى لا يزال رهين هذه الأحقاد والآثام .

بل كان يجب أن يكون موقفها موقف « بوليس » العالم المدافع عن حرمات الشعوب الضعيفة ، والساعى إلى رد الحقوق المغصوبة ، بعد أن كان انضمامها للحلفاء فى تلك الحرب أعظم مرجح لكفتهم ، و بعد أن تلقى المعسكران المتحاربان مبادىء رئيسها العظيم (ويلسن) باللهفة والقبول والاستبشار . وكان فيها المثل المنشود . وكان شرف أمريكا يقضى عليها أن تقوم على تنفيذ تلك المبادىء التى قدمها رئيسها باسمها ، وأن تجمع حولها كل مظلوم من الدول وتعلن الحرب الدائمة على كل من ينقض عهد تلك المبادىء ، حتى يفىء إلى أمرها .

ولـكن ما شغل به العالم بعد الحرب من التهافت على المتاع المـادى لتعويض ما أصابه من آلامها ، وما رأته أمريكا من عودة ذوى النزعات المحافظة إلى أساليبهم القديمة فى السياسة الدولية ، وما قضت به مساعى الرأسماليين والاستعماريين والأنانيين ، من بقاء العالم فى أدوائه القديمة ، وما أصاب الرجل الإنسانى العظيم (ويلسن) من ضـعف الصحة وضربات اليأس الذى بثّته فى نفسه أوكار الرجعية وبؤر الطغيان والأنانية ... كل أولئك ثبّط من عزيمة (أمريكا) وجعلها تَنْفُض يدها من العالم القديم وتتركه فى شقائه ، وترتد إلى عزلتها السعيدة .

ولـكن هذه يد الأقدار تمتد لتنتزعها من هناء عزلتها ، وتحشرها مع العالم القديم مرة أخرى ، فى هذه الحرب الطَّحُون ، وتدفعها معه بقَضِّها وقَضِيضها بعد أن صارت العزلة مستحيلة فى هذا العالم الذى ضاق وارتبط واتصل بعضه ببعض اتصالا وثيقاً حتى صار إلى « عالم واحد » كما عبر عنه كتاب (ويلـكى) .

وما أظنها ستنسى واجبها مرة أخرى بعد أن عاد السلام إلى أوروبا ، وبعد أن يعود فى الشرق الأقصى ...

ومن هنا ينبعث نور الأمل ، لأن أمريكا عمل عظيم فى طريق أمل أعظم ..!

ولقد نجّى الله ديارها من أهوال التخريب والتدمير لمراكز الإنتاج والنمو الحضارى . ولـكن الحرب التالية — لا قدرها الله — سوف تصل إليها لا محالة بأهوالها وفظائعها .

نعم إن ما بذلته فى هذه الحرب من دماء الشباب وعتاد الحرب ، شىء ضخم هائل ، ولكن حظها بنجاة ديارها ومراكز نموها ، أحسن بكثير من حظ غيرها على كل حال . فعليها أن تدرك ذلك وتشكر الله عليه بالعمل العادل المسلح على أن تقوم العدالة والمساعدة بين الأمم مقام الظلم والأنانية والاستغلال الآثم .

وإذا كانت هى أعظم عامل من عوامل النصر فى هذه الحرب لاشك ، إنها حينئذ تملك أن تكون أعظم عامل من عوامل الاستقرار والسلام والعدالة لا شك ...

* * *

«وبعد» فهذا الكتاب حلقة من سلسلة قصيرة ذات خمس حلقات : هى محاولة أحاول بها أداء واجب من واجبات العقل الإسلامى الحديث فى التمهيد الفكرى والوجدانى لقيام الحضارة الروحية المادية التى هى أمل الإنسانية جميعها . وذلك :

١ — برفع مكانة الإنسان فى نظر نفسه ، وإنماء ثقته وإيمانه بجنسه ، وإدراكه أسرار خلقه وفكره وجهده وتنوعه شعوبا وألوانا .

٢ — وبربط روحه بمصدرها الإلهى ربطاً وثيقاً على هدى من نور العلم والدين .

٣ — وبوصل عقله بأعماق الطبيعة وأسرار الحياة ، حتى يشعر بالانسجام مع الكون كله ..

٤ — وبعقد صداقة وثيقة بين ضميره والمعانى العليا للحياة ، وهى :

الإيمان ، والحق ، والجمال ، والقوة ، والحب ، والخير ، بعد ما أصابه من هذيان الفلسفات المادية الجامحة ، وشوشرة المذاهب الهدامة ، التى كان من نتائجها طوفان الدم والويل الذى طَمَّ على الإنسانية كلها فى هذه الحرب التى وضعت نصف أوزارها وما كادت !

٥ — وبملء قلبه بنفحات التفاؤل الرحب ، والصبر الجميل ، والاستعلاء الأبِيِّ على أسباب التشاؤم والألم والسخط والانتقاض .

٦ — وبحمل جُهده على عزائم الكفاح والسيطرة على القوى المادية العمياء لتسخيرها وتثميرها للنفع العام .

٧ — وبإنهاض أسرة الأمم الإسلامية حتى تؤدى نصيبها فى إقامة الحضارة المنشودة ، على قدم المساواة مع أسرة الأمم المسيحية والأسرة اليهودية .

* * *

وهذا الكتاب كذلك محاولة من « الروح الشرقى » — الذى كان ولا يزال ذخره وعماده دائما فى مراحل التاريخ ، الإيمان بالله رب الوجود ، والصلاة والبكاء له ، والاستمداد مما يلقيه فى أعماق الضمير من إلهام ورحمة وسماحة وحب وطهر وصفاء وإحالة على الغيب حين العجز — لحل مشكلات الفكر ، وبناء أسس الحياة المادية والاجتماعية على عقيدة عميقة المنابع ، قريبة التناول ، كثيرة الأدلة والشواهد ، عظيمة النتائج ، لا على نظريات فى السياسة والاقتصاد كما تفعل الكتب التى يؤلفها العقل الغربى ، ويتناول بها مشكلات العالم وعُقَده وخُرُوقه بأسلوبه المادى الواقعى المعروف ، الذى لا يصدر غالبا إلا عن المصلحة القريبة المنظورة

المؤقتة ، حتى ولو كانت مخالفة للحق مجانبة للصدق ، ويعالج الأمور بالذكاء وحده ، ولا يستعين معه بالإيمان والبصيرة ، ويغفل عن هذه الحقيقة التاريخية الثابتة ، وهى أن الحياة إن لم تؤسس على عقائد راسخة سمحة فهى دائما فى تقلقل واضطراب وانهيار .

ومما أنشده فى هذا الكتاب ، استمرار الناس على إقرار خلاصة رأى الأديان السماوية الثلاثة الكبرى التى نمت حضارتنا فى وصايتها ، ولا تزال مسيطرة على أعظم أمم العالم قديما وحديثا ، وهى اليهودية والمسيحية والإسلام ، فى تشريف هذا الجنس البشرى ، والإيمان به و بسمو الغايات التى خلق لها ، وأولها وأعظمها الإيمان بالله بارىء الكون ، واستمداد الضمير منه .

ولم أهمل الاعتراف بأى جانب من جوانب الإنسان الروحية والمادية ، ولم أر أن فى حذقه المادى وقدرته الابتداعية أى باعث له على الغرور والفجور وجحود الإيمان ، بل على العكس رأيت هذا الجانب منه أعظم الأسباب التى تحتم عليه أن يكون إيمانه بنفسه أعظم وسيلة لإيمانه بمن خلق فى نفسه هذه القدرة الابتداعية النامية المنمّية !

ولم أحْذُ حَذْوَ الروحيين المُغرِقين فى الروحية ، المهملين للجانب المادى ، ولا حَذْوَ الماديين الحِسِّيين المستغرِقين فى حياة المادة مع عدم الاعتراف بما وراءها ، بل اتخذت الموقف المعقول بين بين .

وقد زعمت أنى اهتديت إلى القضية الفكرية والدينية الأولى حين أقرر « إن الإيمان بالإنسان سابق على غيره من قضايا الدين والفكر ، لأن

الفرد الإنسانى لن يؤمن بالكون ورب الكون إن لم يؤمن بنوعه ؛ إذ أننا لانـدرك الكون وربه إلا بعقل النوع الإنسانى ، فإذا أهدرنا قيمة الإنسان أهدرنا عقله ، فلايبقى لنا مانـدرك به الكون ورب الكون ! »

وحسبنا هذا من حامل على الإيمان بالإنسان لضمان وجودنا الروحى ، ومنطقنا الفكرى والعملى .

فإن لم أكن سبقت إلى الاهتداء إلى هذه القضية ، فهذا الزعم صحيح ! ونعم هو من توفيق أحمد الله عليه أجلّ الحمد . !

ولا يخفى ماوراء الاعتقاد بصدق هذه القضية ، والعمل بمقتضاها ، من مبادلة السلام والاحترام والإنصاف بين الناس جميعا .

وأكاد أرى أن الموقف الفكرى فى هـذه القضية يسبق موقف (ديكارت) حين أثبت « وجود الذات المفكرة » واتخذه أساسا بنى عليه فلسفته الإثباتية ؛ إذ أنه من أين لديكارت أن يثبت أن لتلك الذات قيمة واعتبارا ، وأن لما ينتج منها من الفكر قيمة واعتبارا ، إن لم يثبتهما أولا للنوع الذى تنتسب إليه هذه الذات ، ليكون لما يصدر عن أفراد ذلك النوع تلك القيمة وذلك الاعتبار ؟

فالموقف الطبيعى الأول هو أن نرصد أولا هذا النوع الإنسانى كله بعين غريبة عنه ، مفارقة لوجوده ، لنثبت له مكانته الخاصة فى الكون ، وخصوصا بعد أن وصل فكره أخيراً إلى أن يكون عاملا عظيما من عوامل الحكم والتكوين والتخريب فى الطبيعة ، ثم تأتى بعد ذلك جميع مواقف الإثبات واليقين للأفراد .

أقول « وأكاد أرى ... » مع أنى أرى فعلا — ولعلى مخطىء — تفاديا من المغالاة بالجَزْم الذى لايليق إلا بعد التمحيص فى بوتقة النقد واستطلاع الآراء ، وتفاديا من الرأى المفاجىء لجهد فيلسوف كبير له فى الفلسفة الإثباتية الحديثة ، المقام الأول .

* * *

فلْنفتح ضمير كل امرىء بهذه القضية التى صار من السهل إثباتها ، ومن مصلحة كل فرد تحقيقها .

ولْنؤمن بها لنعمل عمل المتفائلين الذين تغمر قلوبهم نشوة الجهاد فى سبيل بناء عالم إنسانى جديد سعيد ، بعد هذا العالم القديم الشقى الذى تداعَى تحت معاول الجحود والجشع والأنانية والجهالة والحقد والاغتصاب .

نعم ، لِنؤمنْ ولْنعمل مايقتضيه الإيمان ، وليس علينا أن ندرك النجاح ، فقد يكون « الإيمان — وليس النجاح — هو غاية الحياة » كما يقول الكاتب الفرنسى الفقيد (رومان رولان) .

لنؤمن ، ولنسالم ، لنكون مع الله « السلام المؤمن » !

القاهرة فى يوم الجمعة { ٥ من رجب سنة ١٣٦٤ / ١٥ من يونيه سنة ١٩٤٥ } عبد المنعم محمد خلاف

ملحوظة : شرع فى طبع هذا الكتاب قبيل انتهاء الحرب فى أوروبا ، وفرغ منه بعد انتهائها فيها ، ولذلك جاء الحديث عنها مختلف الصيغة الزمانية .

obeikandl.com

obeikandl.com

أطرُحها قضية !

القضية وموازينها — استجابة لنداء الحياة والنفس — هذه الحرب — نتيجة الإيمان بالحق المطلق والكمال المطلق — لاخضوع للواقع — هل يسمع لنا ؟ — تأثير المغلوبين فى الغالبين — الضعف السامى والقوة السافلة — العالم الغربى بين دوى الدم والوحل وهمس الرحمة والحب — لايأس — كنا فى أحسن تقويم وسنعود — أمور ثلاثة لابد منها — كلمة إلى محترفى السياسة وسماسرة المال — كلمة الى عشاق الحق والسلام .

أطرحها قضية !

هى قضية الإيمان والثقة بالانسانية ! لأنى وجدتها القضية الأولى التى لاصحة لقضية فكرية الا بعد ثبوتها ، ولا استقرار للسلام العالمى والأُخوّة البشرية إلا بعد الاعتقاد بها .

وأطرح فى موازينها مواريث تلك الأرواح والعقول والقلوب التى استقلّت سرُّها العظيم ، وتجلَّى جوهرها الكريم فى آباء الانسانية الأولين والآخرين : من الأنبياء والمرسلين ، والحكماء والصدّيقين ، والعلماء المفتهين ، والأدباء المُلهَمين والرُّوّاد المقتَحِمين ، والشهداء المجاهدين ، والجنود المجهولين من الزارعين والعاملين الخادمين الصابرين !

وأرسلها صيحة مُعتقِد لا مقالة كاتب يُزجى لونا من ألوان « الترف

العقلى » يقدمه على مائدة الكماليات فى عالم الفكر ، ليتفكّه به المُتْرَفُون المُتَشَهُّون كل جديد من الآراء ...

وقد تعمدت أن أقلب النظرة وألتمس نقائص الانسان وأسباب الكفر به والتحقير من شأنه ، وأخذه بالنظرة المادية وحدها ، فما استطعت ذلك ؛ لأنى وجدت حياته توحى إلى أن أومن به وأعتبر ذلك الإيمان أساسا لغيره من شُعَب الاعتقاد .

وقد تعمدت كذلك أن أقف وقفات طويلة بين مراحل تلك المقالات[1] التى تضمنها هذا الكتاب لأتبيَّن : هل أنا مخدوع فى الطريق الذى سلكتُ فأعود منه وأرتد عنه ؟ ولتذهب عنى فتنة ابتداء القول والعُجْب به — وإن لابتداء القول فتنة وعجبا كما يقول (الجاحظ) — وحاولت أن أراجع الشئون السافلة فى حياة أفراد الانسان لعلها تَصْرِفنى عن الاعتقاد فى إمكان سموّه كمجموع . . ولكن كانت الأيام والوقائع وطول التأمل تزيد دائما فكرى وقلبى إيمانا بصحة ماذهبت اليه

وقد هتفت « أُومِنُ بالانسان ! » استجابةً لنداء الحياة ونداء النفس . فقد نادتنى الحياة الانسانية الراهنة الزاخرة إلى الايمان به وبمستقبله ، برغم إثمه وشره فى عصره هذا ، وحملتنى على ذلك بنُبُوّتها ومعجزاتها . والحياة المدنية الحالية نبوّة ! نبوة شيوعية ... أخذت جميع أمم الأرض بمعجزاتها وأخضعت أعناقهم بأدواتها المأخوذة من أسرار الطبيعة . فلنعرفها على حقيقتها ، ولنعلم أنها باب المَلَكُوت الذى وَعدت به رسالاتُ الشرق الاولى التى وجهت الانسانية .

---

(١) نشر كثير منها على فترات فى مجلتى الرسالة والثقافة بين سنتى ١٩٤٠ و ١٩٤٥

انها نبوة الطبيعة وقوانينها ، وحقائقِ الأشياء و براهينها ، لا نبوة الارشاد والترتيب والكلام الذى ألقاه الرجالُ الآباء فى سمع الانسانية وهى فى أدوار تكوين الضمير وتطبيع الأعصاب وتوجيه الأخلاق بالرحمة والاخلاص والايمان ، وسمو النظرة إلى الانسان فى حياته هنا وفى مصيره هناك . . وهى صفات لابد منها فى المهُود والمَدارِج .

فان أنا لم أستجب لنداء هذه الحياة بالجسم الخفيف السريع ، والفكر اللطيف اللمّاح الحاذق الفطن لأسرارها ، الواعى لخطرها و قيَمها ، العارف باتجاهات قافلتها … كنت من المتخلفين البلداء الكافرين بنعمة الله ! ولله فى هذه الحياة المدنية الحالية نعمٌ جليلة لا يكدرها إلا عنفٌ وحماقة وطيش من بنيها . . .

وقد نادتنى النفس التى حاولتُ جهدى أن أحفظ لها حدودها وطابَع عالمها الخاص ، وألاّ أسمح بطغيان الجسد عليها طغيانا يجعلها تَذْهَلُ عن ذاتها وتخلط بين معدنها والمعادن الأرضية ، إلى الايمان به كذلك ، وحملتنى على ذلك بما كشفته لى من آفاقها الخاصة التى لا دخل للتعليل « البيولوجى »[1] و« الفسيولوجى »[2] فيها .

وكنت حَرِيًّا — وأنا أطلب الحق — أن أستمع للنداءين فأوفق بينهما ، وأن أرى ضلال الذين عكفوا على الحياة المادية وحدها أو على النفس وحدها ولم يُزاوِجوا بينهما .

هذه الحرب : وحينما فَجَأَتْنى صيحة هذه الحرب الفاجرة الجبارة ، التى تدور طواحينها الحمراء على جماجم الإنسان ، وتَذْرُو فيها رياح النار مُدنَه

(١) تعليل علم الحياة (٢) تعليل علم وظائف الأعضاء

وآثاره العامرة بالجمال والحرمات ، وتُحيلها خرائب وأطلالاً تعمرها أشباح الهَوْل ، وتتساقط عليها المَصارِع فى صيْحات وصعَقات نكراء ترسلها أفواه وحوش الحديد والفولاذ الرابضة والسائرة والسابحة والطائرة ، زَلزلَتْ فجأتُها وفَجَراتُها وجرائمها دعائم يقينى وعقيدتى فى ذلك الجنس وأملى فى مستقبله .

ولكنى عدت وقلت لنفسى : هل يمكن أن يفعل مثل هذه الأفاعيل لو كان يدرك نفسه ، ويؤمن بها ، ويعلم مدى ما يريده رب الحياة منه حين أخرجه للأرض ، وجعله خليفة يَخْلُفه خلافة واسعة فى عمارة الحياة وكشف أسرارها ومحاكاة نماذجها وإفساح مداها ؟

هل يمكن أن يفعل هذا لو كان يدرك أنه أعظم من أن يكون كغيره من ساكنات الأرض العاجزات القاصرات ، المحدودات القوى والإدراك ، السائرات بالغرائز وحدها ، المحرومات مما عنده من قوى التقليد والخلق والابتكار والتسامى ؟

هل يمكن أن يَغْفُلَ — لو أدرك الحقائق — عن أن موارد الأرزاق والأقوات التى يصطرع عليها ، كافية لأن يسعد بها كل فرد وكل أمة لو وزعت توزيعاً عادلاً ، ولم تَطْغَ عليها شراهة التملك وطباع الاغتصاب والخَتْل والأَثَرة والاستكثار المباهاة والمغالبة والاستعلاء ؟

وهل يمكن أن يفعل هذا لو كان يدرك أن كل فرد فى الإنسانية إنما هو ثروة لها وقوة فى كيانها لو أُحسن توجيهه وتربيته ، واحتُرِم وجوده

وحقه ، ولم يُنظَر إليه تلك النظرة التى تُهدِر دمه ، وتُرخِص روحه ، وتغفُل عن أن يد الله لم تخرجه للحياة إلا لغاية قد تنفع الإنسانية جميعاً . وقد تكون الغاية من خلقه أن يكون كنّاساً أو إسكافاً أو خفيراً . . . ولكن من ذا الذى يزعم أن الدولة ليست بحاجة إلى واحد من هؤلاء كحاجتها إلى ملك أو رئيس ؟ ! إن الخلايا التى نصيبها أن توضع فى مكان القذارة والنجاسة من جسم الإنسان ليست أقل شأناً فى حياته من خلايا الوجه والمخ . . . وإنما هو قانون التوزيع بين أعضاء الجسم ، يقضى أن يكون بعضها فى الأساس المختفى و بعضها فى القِمّة المستعلِنة ، والكل بناء واحد ، له قيمة واحدة .

وهل يمكن أن يكون الإنسان الذى نراه بالعيون ضئيلا مجرماً قبيحاً فى بعض الوحدات ، هو الإنسان الكلّى الذى ندركه بالفكر والبصيرة والضمير ، حين نستعرض الكائنات الأرضية ونراه فيها ذا تفرد وذاتية خاصة ، وقدرة على التسامى إلى الله ، والأخذِ من علمه تعالى وأسرار صنعه ؟

وهل يمكن أن يكون الإنسان المنشود هو ذلك الذاهل عن نفسه ، وعن دخوله إلى الحياة ، وعن خروجه منها من غير اختيار ، وعن رحلته بين الأزل والأبد على هذه الأرض تلك الرحلة الغامضة فى ذلك الكون المجهول الصامت الذى لا نعلم حدوده ، ولا ندرك أبعاده ؟

كلا ! لن يكون الإنسان المنشود المدرك لنفسه ووضعه هو هذا الذى نراه رهين المَقَابِح والغفلات ، صريع الذهول والحماقات !

إن الأمر جَلَلٌ خطير ، تحتبس من الفكر فيه الأنفاس ، وتتلاحق النبضات ، وتحترق الخطرات !

وإن الوقوف عنده وقوف على « نقطة البدء » فى الحياة ، ومن ورائها زمام الأمر كله ومقاليده !

الإيمان بالكمال : ولما كنت عشاق الحق المطلق والجمال المطلق ، وقد استحضرتُ فى نفسى صوراً منهما ، ومن أحلام السعادة فى ظلالها ، وآمنت بهما إيمان الموقن أن الإنسانية مخلوقة لتسمو إليهما مهما كانت الطريق إليهما ذات وعورة وامتداد . . لذلك لم أُلْقِ بالاً إلى النقص والفساد والقبح الذى يشيع فى الناس الآن ، وثبتُّ على الإيمان بالسمو الاجتماعى وإمكان الوصول إليه ، لمّا وجدت أن بالإنسانية حنيناً إليه ، وقدرة على اطراد التقدم فى سبيله . ولم أبالِ بالمعوّقات والشرور ، ولم أجعل لها وزناً واعترافاً إلا بمقدار الاحتراس منها ، والجهاد فيها .

وربما يكون مبعث هذا الإيمان هو السير وراء الفكر وحده لا وراء الغرائز والواقع . . ولكن مهما يكن من شىء فهذا الإيمان هو القوة الدافعة الوحيدة التى يمكن استغلالها للتقدم والارتقاء .

ألا يحس كثير منا أنه يجد صور الخير والجمال كاملة فى نفسه ، ويود لو وجدها كذلك فى خارج نفسه . . فى أسواق الحياة ؟ ثم هو يجد أضدادها تملك عليه طرق الحياة ، كما تتراكم الزُّبالات والقاذورات فى طريق الرجل المتطهر . . فيضطر ليخوض فيها سعياً وراء القطيع ، وأداء لواجبات المعاملات والضرورات المعاشية القاسية . . . وكثيراً ما تُلوِّثه

أو تبتلعه أو تحوّله إلى خادم من خدامها ، لأنه عاجز ضئيل لا يستطيع أن يقاوم تيار أوحالها وينهض وحده بمصارعتها ؟

لا مفضوع للواقع : فلا يحملنا واقعُ الحياة السيء على الكفر بها في نِصَابها الأعلى من الجمال والصلاح والكمال الذى يوصى به الحق والفن الرفيع والمثل الأعلى الذى يملأ مخيلاتنا ، ويثير أرواحنا : ذلك الذى يدل على أنه من الممكن أن الله شَغَل به أحلامنا ، وكلفنا السعى إليه . فلو لم يكن ممكناً ما كلفنا إياه ، ولا شغل به أرواحنا ، ولا أودعه إلهامنا .

نعم إننا لن نصل إلى لُباب المعانى الإنسانية إلا بعد جهاد عنيف فى اختراق الحجب الكثيفة التى غشَّاها التاريخ على الأفكار والنفوس ، وجعلها تفهم أن الإنسان المقصود هو ذلك الذى يرونه الآن يملأ أسواق الحياة بالجرائم والنكبات والجهالات .

وقد يكون الوصول إلى لُباب المعانى الإنسانية سهلاً ميسوراً لو أننا حافظنا على فطرة الخير فى الطفولة ، من أن يتطرق إليها ما تطرق إلينا وأفسد فطرتنا . فإن لُباب المعانى الإنسانية يمكن الوصول فيه إلى المحصول الذى حصلنا على مثله فى الزروع وأنسال الخيل وما إليها من أنواع الحيوان والنبات التى يُجرى العلماء فى تنشيئها وتعهدها وتحسينها تجارب هم ويحصلون على نتائج قيمة .

والمشقة كلُّ المشقة هى فى إقناع الناس أن ينتقلوا من المكان الذى قذفتهم فيه قوى الشر ، إلى المكان الذى كان من الواجب أن يكونوا فيه ليروا مقاطع الناظر الصادق الصحيح ؛ حتى ولو لم يعلموا به فى الحياة .

ولا يُوئِسُنا من ذلك بُعد الشُّقَّة بين المكانين ، بعد أن رأينا ابن آدم استطاع أن يَرُوض الآساد والنمور والقرود ، ويعلم الكلاب والخيل والحمير رياضات هذبتها وأنستها كثيراً من شرور طباعها .

وباب الأمل هو أن تَشْرع الإنسانية فى التجرد من أخطاء العصور السابقة : عصور الجهل والقصور وغلط التفسير والتأويل فى وجهات الحياة ، ثم تسلم نفوسها للطبيعة الصريحة التى كشفت عن وجهها النقاب ، وعن أسرارها الحجاب ، فبانَ وجهُها ، ووضحت دروبها .

وفى الواقع أننا نعيش بأكثر أفكار السابقين وآرائهم وعاداتهم التى أخذوها من موحيات أزمنتهم .

ونفوس الناشئة « كأفلام » التصوير الشمسى قبل أن يقع عليها الضوء . . . فلماذا نترك القبح والفوضى والشر تسبق إشعاعاتها إليها وتسقط عليها أولا فتنطبع فيها ، قبل أن تصل إليها أشعة الجمال والنظام والخير ؟

وأعتقد أن أسرع الوسائل لانقاذ الحياة الاجتماعية من شرورها هو استئناف تنظيم المجتمع على أيدى علماء الطبيعة والنفس المخلصين ، الذين يجب أن تفوض اليهم الأمم رسم خطط الاجتماع على أساس ما أدركوه من الطبيعة والنفس ؛ لا على أيدى محترفى السياسة وسماسرة المال والغافلين عن وجوب الانسجام بين الحياة الانسانية والحياة الطبيعية .

* * *

وقد يكون الأقرب لدى وجهة النظر الاسلامية أن ندعو إلى أن الاسلام هو الكفيل باقرار قضية الايمان والثقة بالانسانية ؛ لأن « كتابه » رفع من

شأنها ، ودان بتقديس حرماتها والثقة بمستقبلها ، ولأنه لو لم يكن دينا لكان مذهبا عقليا طبيعيا يسارع إليه كل من أسلم نفسه للطبيعة واسترشد بهدى الله المبثوث فى آفاقها .

ولكن هذه الدعوة منا فى الوقت الحاضر الذى لا يزال أكثر الأمم فيه متأثرا بالدعايات الكاذبة عن الاسلام ورسوله ونظمه ، ولم يقم المسلمون فيه بأى عمل جدّى يزيل آثار تلك الدعايات ، ستُحْمَل على محمل التعصب منا والتطبّع والتحيّز الموروث . . وستقابل بردود وسخريات ومناقشات من أهل الأديان الأخرى .

ولذلك نرى مؤقتا من وجهة النظر العالمية ، أن نستعرض « المسألة الانسانية » كما هى فى الطبيعة بدون ألفاظ القرآن ، حتى يتأتى لغير المسلمين أن يشعروا بالعقائد الانسانية منقولة عن الطبيعة مباشرة . . وسيكون وحى الطبيعة مع هذا هو رأى الاسلام نفسه ، ولكن بعنوان آخر أو بغير عنوان . . وما يَضِيرُ هذا الدينَ فى شىء ؛ لأن القرآن وهدى رسوله وسيلة لغاية هى إدراك الطبيعة والنفس الانسانية ومعرفتهما والتحاكم اليهما ، وإدراك بارئهما وصفاته مستنتجةً منهما بعد ذلك .

وعلى الأخص أن لفظ «الاسلام» معناه تسليم النفس وتوجيهها للذى فطر الطبيعة ، وليس معناه الانتساب إلى شخص أو جنس أو مكان .

* * *

هل يسمع لنا ؟ ولكن هل يملك أمثالنا أن يقدموا فكرة للعالم تتنزل منزلة العقيدة الأولى للاسلام ، نحن «الشرقيين» النكرات المغمورين فى عالم القوة والسيطرة الغربية ؟ ؟

قد يقال : يا له من غرور !

ولكن لماذا ؟ ألسنا أصحاب أفكار إنسانية أودع الله إيانا سرها ، وجعلها تملك الانبات والتفرع والتكاثر ؟ بلى ! وإن لكل فكرة القوة على أن تنمو متى هيىء لها الجو الصالح والبيئة الطيبة ، كما أن لكل بذرة ونواة قوة الانبات متى هيىء لها الجو والتربة والماء .

فبذور الأفكار كبذور النبات : تُلقى إحداها فى ظلام الأرض وتُتَعَهَّد ، فلا تلبث أن تتخذ طريقها إلى الحياة أو تتخذ الحياة طريقها اليها ... فأكثر واقعيات الحياة أصلها أفكار وأحلام .

نعم إن الفرد الواحد الضئيل النَّكِرة المَغْمُور المحدود ، حينما يتملك فكرةً ما تستبدُّ بخواطره وتستولى على قلبه ، أملاً فى حل مشكلات العيش والفكر عن طريقها ، بعد انحسار ظلال الأفكار القائمة والاعتقادات السيئة ، لابد أن يشعر بدُوَار عنيف لبُعد الشقَّة بين ما فى رأسه وقلبه وبين واقع الحياة السيء الذى يَرْفِدُه عُبَابُ التاريخ ، وروافِدُ الوراثات الجاهلية فى القرون والأجيال المُوغِلة فى القِدَم ، وان ينقذه من ذلك اليأس والدُّوَار إلا نفحات من الايمان ، ولَمَعاتٌ من الآمال ، تحدِّث نفسه أن كل صوت من أصوات الحق التى صاح بها ذلك الهاتف الغامض الدائم الذى يسمونه الضمير البشرى ، لابد أن يجد صداه القريب أو البعيد ، وأنه ليس على الفكر المُخْلِص لأمانات الحياة ، الباحث عن سننها العليا إلا أن يسجل مايدركه من الحقائق ، ويضعه أمام العقول العامة ، ويعرضه فى أسواق الدعوات . . لعل شارياً قويا مدركا مؤمنا يشتريه وينمِّيه ويذيعه فى الناس عن طريق السطوة أو حذق الدعوة !

ولماذا لا نعتقد أن لنا الحق فى أن نقول للعالم الكلمة التى نؤمن بها ؟ أَلِأن الدولة فى العالم ليست لنا؟ قد يكون . . ولكن هذا لايمنعنا أن نؤثر فى الغالبين ونحن مغلوبون ، كما أثر اليونان قديما فى الرومان ثقافيا وفتحوهم فكريا ، وهم الذين غلبوهم سياسيا وحربيا . . وكما أثرت المسيحية الضعيفة المضطهدة فى الرومان الغالبين القاهرين وحولتهم خدامها . . وكما أثر الاسلام المنكوب المقهور فى التتار القاهرين ، فحولهم اليه وجنَّدهم له بعد فترة وجيزة من سقوط بغداد فى أيديهم .

إن الضعف السامىَ قد أثر فى الحياة ويؤثر فيها ما لا تؤثر القوة السافلة . . ! وربما يكون للضعفاء وحدهم ، وهم الأكثر عددا، حق الحديث فى الحقوق والواجبات والعدالة والإخاء والمساواة ، وحق الملاحظة والتنظيم والتنقيح للنظم القائمة ، ولا يكون ذلك للاقوياء الذين لايعرفون مطالب الضعفاء ورغباتهم و « المُضْعِفُ أَمِير الرَّكْب » كما يقول (محمد) خادم الانسانية الأكبر .

ويخيل إلىّ أن العالم الغربى ، وخاصةً الأوربى ، على استعداد لأن يسمع كلاما جديدا غير ما ألِفَه فى السياسة والحياة والاجتماع . ونحن — سكانَ الشرق الأدنى والأوسط — أقربُ المجموعات البشرية إلى المجموعة الأوربية ، وأدناها منها مزاجا وروحا . ومُثلنا العليا فى الدين والخلق والاجتماع قد انتقلت اليهم ودانُوا بها حقباً طوالاً من الزمان . فمن غير الصعب أن يستمعوا إلينا ، ولكن على شرط أن نكون مخلصين فى دعوتنا ، محترمين لأنفسنا ، مؤمنين بما عندنا ، نقول لهم بأسلوبهم وعقليتهم

فى غير زَهْو ولا تعصب ، وانما بتقديم مَوَدَّة ، وشعور رحمة لهؤلاء الذين نفعونا وخففوا آلامنا بجهادهم المادى ، وسهلوا لنا سبل الحياة بالجسم .

ونحن ورثة هدى ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد . . أولئك الآباء الذين عذبوا فى سبيل الانسانية ، وقدموا لها وهى فى مهد حياتها رسالات الروح والخلق ، نستطيع أن نقدم شيئا من ميراثهم فى الهدى ، وإلا كُنا غير جديرين أن نكون سكان ديارهم ، وأقرب الناس إلى فهمهم .

وأنا أعلم أن جماعة منا سيُنْغِضُون رءوسهم سخرية حين نذكر لهم هذا الكلام . . ذلك لأنهم اصطنعوا الواقعية المادية التى لا تؤمن ولا تلبى دعوات السمو والمَوَدَّة التى أقرتها الأديان والحكمة والفلسفات السامِيَة فى ضمير الشعوب . وهؤلاء هم علَّة العلل فى بقاء الشرق متخلفا عن الغرب فى كل شىء حتى فى « معارك السلام » كتخلفه فى معارك الحرب والقوة المادية .

إن الشعوب الأوربية قد شربت من الدم والوحل حتى بَشِمَتْ وزهدت ، وتريد أن تسمع صوتاً يفتح لها حديث الرحمة والحب والتعاطف بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها . ولكن عصابات السياسيين والسماسرة و « الرأسماليين » هم الذين سيشوِّشون عليها قصدها ، ويفوّتون غرضها ، إن لم تجلجل فى آذانهم دعوة جديدة للسلام وحياة الروح . وسكان الشرق الأدنى والأوسط وهم مزيج مؤتلف مُتآخٍ من أتباع الأديان الثلاثة ، يستطيعون أن يكونوا رسلا لهذه الدعوة لو تسامحوا وعلموا أنهم ورثة الدعاة الأولين للحياة بالروح أولا . . .

وهَبُوا أن هذه الفكرة لا تتحقق ولا يستمع لها ؛ أفليست من

من الأحلام الجميلة التى يَلَذّ الحديث فيها ، ويجب التنويه والتذكير بها كمثل أعلى تتمناه الإنسانية ؟

إن القلوب الكبيرة التى أَطَلَّت على العالم بالرحمة والحب والعلم واليقين كان سر عبقريتها وعظمتها أنها لم تعترف أبداً بالواقع السيئ فى زمانها . وأنها حين رأت الإنسانية فى عصورها الأولى تقبل جميعاً على الوثنيات وتعكُف على الجهالات وسفك الدماء ، صاحت صيحاتها ، ونادت ضمير البشرية الذى تكفل خالقه أن لا يموت أبداً وأن لا تنطفىء شعلته ، وقاومت بجهدها حتى حولت مجرى التاريخ إلى تمجيد الحق والسلام والرحمة . وقد أفلحت فى ذلك كثيراً من الفلاح ، وعما قليل تفلح كل الفلاح ، إذا حمل مشاعل دعوتها دائماً قوم مؤمنون بالإنسانية ، عالمون بأسرار وجودها وسمو الغاية من حياتها فى هذه الأرض ، حريصون عليها ، راصدون لتاريخها ، متفائلون فى مستقبلها ، غافرون خطايا طفولتها وبقايا جاهليتها ، عاذرون لحمقها وطيشها فى بعض الظروف ، ناظرون اليها نظرة بارئها الحليم العليم الذى لا بد أن يكون له فى أفاعيل حياتها وسفالاتها الظاهرة حكمة خفية !

وعلى أى حال ، إذا لم تنفع هذه الدعوات فلن تضر . ولكن نفعها محقق ، حتى ولو كان لمجرد نشر روح التفاؤل ، لِنَسْتَسيغ متاعَ الحياة ، ونتسلى عن همومها ، أو لمجرد المقابلة بين الشر وضده الخالد العظيم : الخير !

* * *

لو يأس : « وبعد » إن كان الانسان تافه القيمة ، ووَضْعُه فى الحياة على حالته الفاسدة هذه ، هو من طبيعة نظام هذا العالم ، ولا يمكن تغيير

فساده ، بل يكون شره بهـذه النسبة الحالية ضربةَ لازِبٍ ، ولا يمكن تخفيفه ، فعندئذ يجوزُ لنا أن نتشاءم ، وأن نُضمِر الشر لنعيش فى محيط الشر ، ونختبِط فيه خَبْطَ عَشْوَاء مع أهل الأرض جميعا حتى نفارق الحياة ...

ولـكنى أرى ، ويرى معى كل متأمل منصف ، أن الانسانية كأى حقل نباتى أو حيوانى خاضع للتحسين والتصفية والاستصلاح والتعهد والاخراج الصالح ، وخصوصا فى هذه المرحلة الزمنية التى كشف فيها العلم عن وسائل التربية النفسية والجسمية و إبادة آفاتها بسرعة فائقة .

وليس الانسان جزءا من هـذه الطبيعة المادية الجامدة التى لايمكن تغييرها وتبديلها ، وانما هو جزء مَرِن خاضع للتبديل والتغيير باختلاف التربية والتعهد .

وفعلا قد تحقق فى التاريخ ذلك الذى ننشده الآن : فبعض الدول الاسلامية الأولى قد عاشت فيما بينها كدولة ، وفيما بينها و بين غيرها من الدول على صور سامية من الاعتراف بالحقوق والتعاطف وترك الشرور إلى حدما ، فرضى الله عنها ورضيت هى عنه وعن الحياة . و بعض الأمم الأوربية الشمالية قبيل هذه الحرب ، قد عاشت فيما بينها كدولة على صورة سامية رحيمة كريمة ، ولـكنها قد تعود إلى الأسلوب الوحشى المنحط مع غيرها من الأجناس والأقوام ، فليس لهـا ذلك الايمان العميق بالانسانية جميعها .

إذاً لايأس من الانسان ، ولا يأس من الحياة تبعا له وتأثرا من جرائمه ، ومن نوازع الشر الحالية فيه ، مادام الدليل التاريخى قد أثبت له صورا عظيمة من السمو ، وما دمنا نستطيع أن نغير حياته المَرِنَة إلى

الصلاح بتغيير أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية .

لقد قال العلم والدين إن الانسان خرج الى هذه الدنيا كاملا جميلا قويا « فى أحسنِ تقويم » ثم تطرقت اليه عوامل العطب والعجز والمرض والفساد والتنازع ، لضيق فكره وعجز يده عن وسائل التغلب على محيطه حقبا من الدهر ، فأورثته الفساد والاختلال ، حتى وصل إلى زمنه هذا فاستطاع أن يعثر على مفاتيح راحته باهتدائه إلى سنن التكوين والتخريب ، وإخضاع الكثير منها لخدمته وانتفاعه . إذاً لامبرر لتشاؤمه وتنازعه وسخطه بعد أن رأى من كنوز رحمة ربه مارأى ... وإنما الواجب أن يسعى إلى أفق الفجر بعد أن بَزَغَ ، ولا يستدبره ويستقبل أفق الليل والظلام .

فاذا أمكن — وهو ممكن جدا — رَفْعُهُ من أسفلِ سافلين ، ورَجْعُه إلى نِصَابِه الأعلى الذى خلق عليه فى أحسن تقويم ... يكون التوانى والاهمال والتشاؤم فى هذا السبيل قصورا معيبا وجريمة كبرى .

وانى أرى — ولعلى واهم ! — أن الانسانية الآن ينتفض جسمها العملاق ليعمل ويسترد مكانه فى عِلِّيِّين ! وقد صار لأفرادها الآن من الحقوق التى تتصل بالعدالة ، ومن مزايا التمتع والراحة وثبات الأرض تحت أقدامها ، ومن أحاديث الحريات والكرامات فى مؤتمراتها الدولية العامة والخاصة ، وصار لها من القدرة على تسخير كثير من قوى الطبيعة ، ومن المقام المَرْمُوق بين الكائنات .. ما يبعث فى صدرها الثقة والايمان بامتيازها وقداستها والأمل فى مستقبلها والصبر على احتمال آلام حاضرها .

وقد وجب عليها الآن أن تعجّل أموراً ثلاثة :—

(١) إزالة الدعايات القومية الحادة والنَّعرات الجنسية الضيقة التى توحى بالتفرق والشَّتاتَ ، وتورث التعصب والتحيز الممقوت .

(٢) إيجاد لغة إضافية عالمية مشتركة لتكون لغة « المواطن » العالمى ، ولتوحى إلى كل ناشىء بمعانى الانتساب إلى الإنسانية الواحدة بجانب انتسابه إلى قومه ، ولتسهل على الأفراد سبل التفاهم والتعارف بالثقافة العالمية التى لا بد أن تضمها أسْفارها ونشرَاتها الدَّوْرية .

(٣) توزيع المواد الاقتصادية بدون جشع واغتصاب واحتكار وحب استئثار واستغلال للضعفاء .

* * *

وأريد أن أقول فى ختام هذا التمهيد كلمة لساسرة المال ومحترفى السياسة لشهوة الحكم وحب القهر ، لا للخدمة ولا للوصاية على الشعوب القاصرة ، هى كلمة الحق والإيقاظ للطَّور الجديد الذى تقبل عليه الإنسانية : أن يقوموا جماعاتٍ وفُرَادَى ، ثم يتفكروا فى الوضع الحالى للإنسان ، وأن يُزِيحوا عن أعينهم الغِشـــاوَات القديمة التى هى سرُّ تطاحن الإنسان وتصادمه فى ظلمات المطامع وشهوات الاقتناء والقهر والافتراس .

وليعلموا أنهم هم العقبة الوحيدة الآن فى طريق الإنسانية إلى حياتها المنشودة ، وأنهم هم الذين يحوّلون أُخوَّة البشرية وبركات العلم وثروات الأرض التى أودعها الله فيها بمقادير كبرى تكفى حاجات كل فرد وكل أمة ، إلى وقود يحترق به جامعوه والناس جميعا .

إنهم هم الذين يقودون البشر فى الحرب بالفولاذ والذهب ... وهم كذلك يستطيعون أن يشتركوا فى أن يقودوهم بهما لحياة السلام ، إذا أزاحوا عن أعينهم غِشاوات القرون الأولى : قرون الوحشية وحب اللعب بالشعوب وجمع الحُطَام ومجد الشهرة على الجماجم والأشلاء .

انهم يستطيعون أن يشتركوا فى قيادة البشر وتجنيدهم جميعا للوصول إلى أملهم الأكبر : وهو كشف مجهولات الكون وتسخير قواه للنفع العام ، والعيشة فى إخاء وأمنٍ وسلام .

وأريد أن أقول كلمة أخرى إلى عشاق الحق والصلاح ، الذين يؤمنون بالروح الالهى والسمو الانسانى : وهى أن أشَدَّ ما يُخْشى على العالم أن يعتزلوا ويُخَلُّوا بين عملية بناء العالم بعد هذه الحرب و بين من لا يحسنون أن يقيموا حضارة تتوازن فيها العناصر وتتلاقى الروافد والتيارات الروحية والمادية بمقدار موزون !

فاذا وقفت معارك الحرب فليعلنوا هم « معركة السلام » !

وهم لا بد منصورون بتوفيق الله مكرم الانسان !

٢

فى موازين الحس والفكر والضمير

obeikandl.com

عُقْدَة الثمرة

من هذا الكتاب

صيحة المعتقد . معادلة رياضية . وصية إلى المتدينين

أومنُ بالانسان الذى أحمله فى جسدى ، وأستوحيه فى فكرى ، وأبادله ما صَحّ وما فسَد من شأنى !

أومن به إيمانا عميقا بصيراً .. وأرْصُدُه رصدا مستوعبا يُطيف به فى جميع بقاعه ، ومختلف أوضاعه ، وأستوْحِى نظرة الله اليه ورحمته به وتسديدَه إياه فى طريقه إلى مستقبل مجهول !

أومنُ به حتى فى هذه الأيام التى ساء الظن به فيها ، وقَبُح الرأى بقيمته وكفر أكثره بنفسه ، وسخِط على حياته ، وبدت فيها خبائثه ومَكايِده وقسوته ، وذاق بعضُه من بعضه البأسَ الشديد والشقاء المُنْكَر! وحطمت حياته عَوادِى فَناء صنعها هو على أسلوب الصواعق والزلازل والبراكين ، وسائر غضبات الطبيعة التى طالما جأَر الى الله بالدعاء والبكاء أن يحفظه منها ، ويحفظ الأرض بما حملت من مواريث صناعاته وابتكاراته وأمواله وأعماله وعياله من سوء عُقباها فى التدمير والابادة .

أومِنُ به لأومنَ بالله ورَبِّ الكون ! فلن يؤمن الفرد الانسانى بهما إن لم يؤمن بنوعه .. لأن عقل النوع هو المنظار الذى ندركهما به ..

فان أهدرنا قيمة الانسان أهدرنا عقله . . فلا يبقى لنا ما ندرك به كوننا وربنا ! ! ويعيش أكثرنا كما يعيشون الآن ، تضطرب بهم مجهولات الكون ومعلوماته كغرقى طافين على أكف الأمواج . . لا يعقلون شيئا ولا يؤمنون بالكون والنفس ولا بربهما ، وإنما يعيشون فى ذهول وشك وبلبلة ، ثم يمضون إلى ظلمات القبور .

وتلك قضية فكرية أشبه ما تكون «بمعادلة رياضية» . . وهى قضية هذا الكتاب من الناحية الفلسفية النظرية ، ولها مابعدها من قضاياه الخلقية والعملية . وهى عندى القضية الفكرية الأولى فى الدين والعلم والفلسفة .

وأوصى به «المتدينين» الناظرين إلى حاضره فى يأس وقنوط ، وإلى مستقبله فى تشاؤم . . فما ينبغى للذين آمنوا بالمثل العليا ، وعرفوا أن الانسانية مخلوقة لادراكها ، أن يزلزلوا عنها ويأسوا منها إذا ما أصاب الناس نكسة إلى جهالة قديمة وارتداد إلى أعراض السفه الأول . . بل عليهم أن يرفعوا شعلة تلك المثل وسط احتدام الظلام والظالم ، حتى يمسك بخيوط نورها من يجتهد ألا تجرف روحه أمواج الظلمات !

ولو طاوعناه على مقتضى قساوته وشقاوته ، لأنكرنا كل مثل كريم هبط من السماء أو صعد من الأرض . . ولأخلدنا معه إلى عالم الجحيم الذى فتح أبوابه على نفسه فى أعجب البقاع لديها : فى لندن وبرلين . . !

نظرة المُفارِق لنفسه ونوعه !

خارج الشبكة . فى نصابه الأعلى . نور فى وعاء من طين . محرر المعانى والنغمات المسجونة . فى عالم القوى العمياء والروح الواعى . تاريخه مصباحه . قانون ينمو فى كل اتجاه . عصب الأرض . أحياة الشرنقة ؟ . إيقاظه بالدين الطبيعى والفن الرفيع

لكى ندرك اللمحات التى تتراءى فى أعماق « الانسانية » ، نحاول أن نتحرر ونتجرد ونخرج من نفوسنا ونوعنا ، ونَرصُد الانسان بعيون المفارقين لنفوسهم ، الخارجين بالفكر عن حدود وجودهم ، الناظرين لحياتهم نظرات الملأ الأعلى ممن هُمْ فوق الانسان ، والملأ الأدنى مما هُنَّ دُونه .

إننا حينئذ نرى كثيرا مما خفى على الذين يلبثون سجناء رُهَناء فى الشبَكة التى تَلُفُّهم مع سائر أفراد القطيع .

ولابد لذلك أن نترك الجدليات القديمة حول الشك فى قيمة الانسان ؛ فقد هَدَرَتْ شَقَاشِقُها حين كان عاجزاً عن شق الطريق أمام فكره ، وأن نخرج من غبار التاريخ القديم ونفتح عيوننا على العالم كمخلوقين الآن ، تفكيرهم ابن زمانهم هذا ، ومنطقهم من وقائع الحاضر ، وأن ننظر إلى الانسان فى نِصَابه الأعلى دائما ولا ننظر اليه فى حضيضه الأدنى ؛ فإن

من طبيعة كل كائنٍ حيٍّ أرضيٍّ أن يكون له جذر فى الطين والعفونات ، أو أصل فى الدم والقاذورات .

وإن النُّطفة التى خلق منها الانسان أخلاطٌ وأمْشاجٌ أخذت من العناصر الحادة والقوى العمياء ما يجعله منها على اضطراب وابتلاء .

وإن الفرد يحمل فى مجارى طعامه وفى أحشائه أوْضاراً وأقذاراً تشمئز منها نفس حاملها . . ومع ذلك هو يقنع من نفسه بتقدير الوجه والرأس الذى يحمل الشخصية وقوى الفكر . . فينبغى ألا ننظر دائما إلى الذين هم فضلاتٌ قذرة فى جسم الانسانية ونتخذ منهم « مقطع » النظر اليها جميعا ، فيحملنا ذلك على التشاؤم والسخط والشك فى الخير والجمال الذى فيها . هم كالثمار الفَجَّة المعطوبة ، عَطبت وتلوثت وسقطت لضعف روابطها بفروع الشجرة التى تسمو .

إننا نحمل أقباسا مطهرة من عالم الحق والجمال والطهر ، ولكنها وضعت فى أجسامنا : تلك الأوعية الطينية السريعة التعفن . . فمن الناس من يَدُوم على تطهير وعائه وصقله حتى يستحيل إلى زجاجة شَفيفَة رائعة تساعد ذلك القَبَس على السطوع والاشراق .

ومنهم من يتركه كما هو من غير تطهير وصقل بالعلم والتهذيب فيظل مُعْتماً ويحُول بين ذلك القبس وبين السطوع الكامل .

ومنهم من يضيف إلى ذلك الوعاء ما يَزيده عَتَمةً وكثافة تطغَى على ذلك القبس وتَمْحَق شعاعه وتجعله منبع ظلام .

فلأجل النور ! ينبغى أن ننبه كل مصباح إلى رسالته ، ونَحُولَ بين الظلام و بين زجاجته !

ولا تحملنا حياة الظلام الراهن على أن نتشاءم ونسخط ونحطم ما بقى لنا من مصابيح ، فنعيش فى عَمياء نهارها كليلها .

* * *

ولو أنكرنا مكانة الانسان وجحدنا قيمته ، لم يبق لنا شىء فى الأرض نَلُوذُ به ونأنس اليه من وحشة الصمت المطلق والسكون المطْبِق ، والبكَمِ والصمم والعمى التى تغمر غيره من كائنات لم تَدَعْ فى الحياة حديثا مفهوما عن غايات الحياة .

وانني ماأبصرت شيئا غيره تَعمُق معه الحياة وتتسع وتتركب و يتنوع الاحساس بها . ولولاه لكنت صندوقا أبْكَمَ فارغا إلا من معانى غرائز معطّلة ، وتجارب شهوات قليلا ما تتحرك . . ولاضطربت بى مجهولات الكون كغريق يطفو على أكفّ الأمواج .

إن كل شىء فى الطبيعة صامت جامد لايعطى جوابا عن غايات الحياة إلا هذا النوع .

فمن قلوبه وعقوله تنبثق المعانى المكتومة المسجونة فى أطواء المواد والقوى .

وفى بيانه أصوات ربطت الكون كله ، ولاءَمَتْ بين نِسَبِه المختلفة ، ولَخَّصته واختزلته ووضعته أمام الفكر مَلْمُوما . .

وفيه نغمة مفهومة رقيقة وسط صَخَبِ الأمواج التى لا عدد لها فى

البحار ، والهَبَوَات التى لاعدد لها فى الأجواء . .

إنه مشبُوب الحاجة دائمًا ، واسع الآمال والخيال فى تشكيل المواد وتنويعها وتصريفها وتسخيرها والاحتفاء بكل سر فيها .

لقد استمرت الأرض من قبله جامدة لايتغير فيها شىء إلا الدورات الأبدية المكررة ، وبدا من الطبيعة أن كل شىء فيها كان ينتظر وجود هذا النوع ليقول لفكره ويده : هأنذا لكما !

وما زالت المرآة التى فيه وهى عقلة تنطبع فيها صور الكائنات واحداً وراء آخر ، وهو يحوِّلها وينقلها من عالم الجماد والصمت إلى عالم الأسماء والبيان والصور والتعبير .

وما زال يدُور حول ظواهر المادة وصورها وأشكالها ، ويحللها ويَنبِشُ فيها ويَسْبُر أغوارَها ، حتى وصل إلى عالم الكهارب والأثير . وهو الآن يُجرى اختباراته وتحليلاته على هذه الأصول الأولى للمادة ليكثِّفها أو يرققها ، ويتحكم فى إخراج أنواعها ، بعد أن وصلت يده إلى مفاتيح توجيهها .

إنه تعمق فى عالم الأجسام والقوى حتى وصل إلى مصادر الحياة الآلية ومادة الوجود الأولية ، وتعمق فى عالم المعانى والأفكار حتى وصل الى الخفقات الروحية العليا ، والرياضيات العليا التى قام عليها تخطيط الطبيعة وهندستها .

وإنه ليُركِّب ما فى الكون من المعانى كما يركب ما فيه من مواد ، فيقيم الكتب العامرة ، والمقالات الحكيمة والصلوات المطهرة ، والألحان

الساحرة ، كما يقيم القصر الكامل الجميل ، والصرح المشيد ، والقاطرة والطائرة والباخرة .

وإنه ليسافر بفكره فى الآفاق العليا كما يسافر بصوته وصورته فى صندوق الراديو . .

وهكذا هو يتوجه فى عالم المادة والقوى العمياء ، كما يتوجه فى عالم الروح الواعى والفكر المميز المبصر الحاكم !

وهكذا هو رباط بين العالم الساكن الخفى ، وبين العالم المتحرك المَرْئِىّ .

* * *

تاريخه مصباحه : ولنستعرض تاريخ الانسان على هذه الأرض ، لِندركَ مَدَى مركزه فيها ، ولِنعطيه من تاريخه مصباحاً يرى به نفسه : إن الله أسلمه الأرض ، وليس فيها شىء معقد التركيب غير الأجسام العضوية الحية ، وهى أجسامه وأجسام الحيوان والنبات . أما الجوامد فأسلمها اليه بسيطة فى صورها الأولى وخاماتها البكر ، فما زال يدور حولها ويعبث فيها وينبش ويخرج أسرارها واحداً بعد آخر ، حتى حدثته أخبارَها وأخرجت له أثقالها ، ووضعت بين يديه أجِنَّتَهَا وعِيالها . . واستفاد من تجاربه فيها عقلَه وحُكْمَهُ — والعقل هو حِفظ التجارب والحكم بمقتضاها — وعلمَه ووثائق سيرته ومُدَوَّنات فكره .

وكلما أنماها وعقَّد نموها ، أنْمَت هى فكرَه وعقَّدته — والتجَاوُبُ بين المادة والفكر قانون — حتى ملأ الأرض بما وَلده منها ، وأخرجه من كوامنها ، وركبه من بسائطها .

وشاء الله أن تكون قوة الفكر فى الانسان تكاد تكون لاحد لها ، فصارت تَخارِيجُ المادة وفُرُوقها وتمايزُها لاحد لها .

وتارة يكون كشفه عن أسرارها بطريق الصدفة ، فيلقط ويدوّن كما هو واضح من نمو علم الكيمياء ؛ فان كل أمورها تجريبية لا دخل للفروض والظنون والتجريدات فيها . . وتارة يكون الفكر سابقا قادراً على الفروض وقياس النِّسَب الغائبة على الحاضرة .

أى تارة تكون الطبيعة سابقة فى الوحى اليه وزيادة علمه وفكره ، وتارة يكون هو سابقا فى الوحى اليها وزيادة أشكال موجوداتها ومشاهدها .

وإنى لأستعرض أعماله فى الطبيعة منذ أن كان هائماً لا سقف له ، يصنع من ورق الشجر ستاراً لسَوْأَتِه ، ويتخذ من الحجر خنجراً لسطوته ، الى أن صنع لباسه الأوربى المعقد المنوّع المزيَّن الملون ، وصنع بيته من ناطحات السحاب ، وآلات سطوته من الطوربيد و « سَلَّة مولوتوف » والقنابل الطائرة ودبابات « تشرشل » ، ومراكِبَه من الحصون الطائرة ، واستوعب جميع أجزاء الآلات المعقدة فى رأسه قبل تركيبها بمساميرها وحذافيرها . . . وصنع له مَجَاهِر ومُقَرِّبات يقرّب بها مشاهد السموات والسُّدُم ، ويحلل عناصرها ، ويكبر بها مناظر الجراثيم ، ويقيس بها الخلايا ، ويحكم بها على كل أولئك حكما صحيحاً خاضعا لمقاييس الحس والفكر . . أستعرض أعماله هذه ، فأراه بعد ذلك رُوحاً نامياً فى ذاته ، ومُنَمِّياً للطبيعة وصورها وأشكالها كذلك . . .

وجميع قوانين الطبيعة قوانين متحجرة صارمة إلا هذا الانسان ، فانه

«قانون» مَرِنٌ يذهب فى كل اتجاه . أليس فيه نفخة من روح الله ليست فى سواه ؟ ! والله خالق هذه القوانين وواضعها ؛ فلا عجب أن تدفعه هذه النفخة الى كل جهة فى مجاهل الكون دائماً .

ان الأطفال يقلدون الكبار بغريزة التقليد والمحاكاة التى فيهم للاستعداد لمستقبل الفرد ، والكبار يقلدون صنع الله للاستعداد لمستقبل الانسانية كلها . وجميع آلاتهم التى ركَّبوها ، وجدوا نماذجها أمامهم مما خلق الله . فجسم الحيوان هو نموذج الآلات الدقيقة السريعة التى ابتدأ بها الانسان يتسلط على المكان والزمان والمسافات والأبعاد . وجميع أعمالهم فى الكهرباء والقوى الخفية إنما وجدوا نماذجها من المجموعات العصبية فى الحيوان والنبات ، فأرسلوا الاشارات والصور والأصوات إلى عيون وآذان صناعية عَبْرَ المحيطات والصحارى والقارات والجبال الشاهقات ، كما يرسل الجسم الواحد خواطره وصوادره إلى كل خلية فى أعضائه .

وعلى ذلك صارت الأرض كجسم ينبِضُ ويترابط ، وإنسانها فيها كالمراكز العصبية فى الجسم الحى : تُصدِرُ وتتلقى الجواب .

* * *

حياة الشرنقة : ولكن هل يجوز أن يقف الانسان فى ضجة ماصنع من الآلات والمفرقعات ضائعاً مغموراً غائباً فيها كما تغيب دودة القز فى الشَّرْنَقَةَ التى تنسجها ؟

إنه يرسل فى الطبيعة لمحات فكره ووَمضَات خواطره ، وصار الأثير

والهواء والماء والتراب مليئاً بهمساته ، وأزيز محرِّكاته ، وضربات معاوله إلى أعماق المناجم والركاز .

وهذا حسن لو أنه لا ينسى نفسه وسط الضجة والقوة والجبروت الآلى ، والحديد البليد القاسى ، حتى يختنق ما فيه من وداعة الروح وتأمل الفكر ، والاحساس بالانفصال عما صنعته يداه .

أجل ، يجب ألا يكون الانسان قوة عمياء تعمل فى المادة بدون شِعْر وإحساس روحى فيما تعمل ولذة به ؛ وإلا استحال إلى قوة متنقلة فى عمليات التكوين والتركيب أو التخريب بدون وَعْي ، وفى ذهول وغفلات تشبه عَمَى القوى العمياء ..

إن طاعة الحديد البليد القاسى للفكر الطليق البارد ، تركت فى أعصاب الأمم الصناعية آثاراً عميقة ستَطْمُر لا محالة ، إن لم تُقاوَم بقوى روحية ، جوانب من عواطف الرحمة والمروءة فى قلوب أفرادها ، وتمحو آثار العصور الروحية التى أدرك الانسان نفسه فيها حين كانت النبوّات تتلاحق عليه .

وإنى لأتخيل الآن ماجرى فى ساحات « الفلاندر » أو « أوكرانيا » أو « صحراء ليبيا » ، فأرى الانسان وهو يدفع الحديد الجبار فيندفع ، ويطلق البارود الصاعق فينطلق ، والقنابل الصارخة فتصيح فى نُكْر وشدة ، ويملأ الجو بالدخان الأسود والنار الحمراء فيمتلىء ، ويُسيل النار من « باصقات » النار فتسيل على الأجسام البيضاء الجميلة ، ذات العيون الزرقاء ، والشعور الذهبية ، والجماجم المستوية ، وتذيبها كالشمع ، وتَسحَقُها

كالرُّفات ، وتذرُوها كالرماد . . ويرفع القلاع الطائرة إلى أجواز الفضاء فترتفع . . أتخيله وسط هذا كله ، لا يسمع صوت نَفْسه إذا تحدث ، ولا يَعى خروج نَفَسه إذا تنفس ، ولا يحس ألمه إذا تألم ، ولا صعقَ جسمه إذا تحطم ؛ فهو فى جنون الحرب يضرب الأجسام الحية النامية من شجر أو ضَرْع أو زرع أو حيوان أو إنسان ، ويخرب العامر ، ويهدم القائم . . . فأقول : لقد تحولَ الى قوى عمياء ، وصار عاتياً كالريح . . . جارفاً كالتيار . . . أعمى كالصاعقة . . . قاسياً كالحديد . . . صابراً كالفولاذ . . . فظيعاً كالنار ! !

ولست أدرى متى يُفيق لنفسه ، ويُعنَى بوضعه وتحوُّلات حياته ، كما يُعنَى بمستقبل المواد والقوى ؟ ويربط ما بينه وبين الله مُفيضِ الفكر والحياة ، كما يربط ما بين نفسه وأجزاء الأرض ؟ !

إن الآلة لا تدركه وهو يعمل فيها ويقوم عليها ، وهى لا ترحمه من السَّحْق أو البَتْر أو الصَّعْق إذا تعرض لها جاهلا بقوانين سيرها ، فلا قلب فيها ولا فكر ، ولا حياةَ دمٍ وعصبٍ وروح . ولكن ما بالُه هو لا يفكر فى الاتصال بمن أنشأه وركبه ونسَّقه وصوَّره ، وهو ذو الفكر والروح والوِجْدان والنزوع والإرادة والاختيار والتطلع والحَزْر والحذَر والقدرة على قياس ماغاب بما حضر ؟!

ان الاستسلام لغيبوبة الحياة الآلية ضياع وتطبُّعٌ بطبع الحديد البليد الأعمى الدائر فى غير وعى وإحساس . وأخوَف ما يُخاف على الانسان أن يُترك هكذا فريسةً وضحية للآلات والماديات يعيش معها وحدها ، ويقدم

لها وَقُودها إلى أن يفنى وقود حياته هو وينطفىء مصباحه ، ويذهب إلى ظلمة القبور بدون بصيرة روحية منيرة ، يسعى نورها بين يديه فى العالم الباقى غير المنظور .

وعلى هذا ينبغى أن تَنْشَط فى الناس دعوات إلى الإحساس بالنفس ، واليقظة الدائمة لها ، وتزكيتها ، والرفع من قيمتها . وهذا لا يكون إلا بالدين والفن الرفيع : الدين العقلى الطبيعى المبنى على إسلام النفس لله البارىء وللطبيعة الأستاذة ! والفن الرفيع الذى يخلق جواً يحضر للقلب بعض المعانى الغائبة التى تُرِى الانسانَ وَضْعَه الممتاز الفريد الطليق ، وسط ما فى الكون من المواد والقوى والمخلوقات السجينة !

تلك المعانى التى تتراءى وراء بيان ذوى البيان النظيف ، وألحان ذوى الأصداء البعيدة ، وعيون ذوى الصفاء والادراك !

استعراض وتفصيل

أسئلة فى حدود البداهة — مجهر وريشة وإزميل وترجمان — أسرار ورموز فى قصة خلقه — نظرة الله العليم الغفور — سجود الملائكة لآدم وإباء إبليس — الشر للخير — منطقة الشهوات

مما يثير اهتمامى كثيرا فى بحوث الفلسفة والعلم، شك بعض المفكرين فى القيمة السامية التى للانسان، ومحاولة تصوير حياته كحياة النبات والحيوان والحشرات: ليست أكثر من ظواهر طبيعية ودورات أبدية تأتى بها أيام وتذهب أيام إلى الفناء المطلق.

ومعرفة الوضع الحقيقى للانسان فى الكون هى، كما بينت سابقا، أولى القضايا الدينية والفلسفية.

فالذى يَذْهَل ولا يسترعى انتباهَه، ويثير اهتمامه هذا الكائن المتحرك «المحسوس» الناطق المفكر ذو الارادة والاختيار، لا يمكن أن يتنبه للصمت المطلق والاطراد المطلق فى الطبيعة .. ودَعْ ماوراء الطبيعة من العالم الخفى الذى لاينالِه الانسان بالحواس والأفكار.

واسأل نفسك: هل رأيت نوعا آخر متسلطاً على الأرض يغير أوضاعها، ويتصرف فى موادها، ويسخِّر قواها وينقِّح الطبيعة: يزيد فيها وينقص منها، متنوع المَرافِق، متجدد الأفكار، له حياة فكرية وقلبية تكاد تكون لاحدود لمظاهرها؟

وهل رأيت غير الإنسان اخترع شيئاً يزيد على ضرورات حفظ حياته ؟ هل رأيته يكتب تاريخه أو يتطلع لمستقبله ، أو يركب آلات معقدة ، أو يغنى أغانى مُفَنَّنَة ، أو يستخرج أصواتا موسيقية من الجلد والخشب والمعادن ، أو يقيم أهراماً وعمارات ذات أرصاد واوضاع محبوكه وفنون بارعة ؟

وهل رأيت نوعا آخر اخترع طيارة وسيارة وتلغراف وتليفون وتلفزيون وغيرهاوغيرهامما يصيدبه الاصوات ويقتنص الأضواء والمسافات؟

ثم هل رأيت نوعا آخر يسكر « ويحشش » ويدخن « ويشم » ويقامر ويقيم مهازل ومساخر بذكاء ومهارة ؟

هل رأيت غيره يزارع ويتاجر ويضارب بعمليات اقتصادية معقدة غاية التعقيد !

هل رأيت غيره يحارب بآلات كلها إبداع وبراعة تكاد تجعلها عند المتطلعين لما يولد فى الكون من عجائب والمتوسمين لما فى حياة الإنسان من بدع ، فرجة من فُرَج القلوب تُعلى شأن الحروب ؟ !

تخيلْ جميع الأساطيل الجوية والبحرية وجميع الجيوش البرية انطلقت فى الجو والبحر والبر ، يعبئها ويزجيها وينسقها الإنسان ذو الجمجمة العجيبة ، تملأ الأثير بلمعات فكره وومضات خواطره . . لتعلم أىُّ فن إلهى هذا الإنسان المخلوق من ماء مَهين !

تخيل مدينة عظيمة كنيويورك أو لندن أو برلين أو القاهرة بما فيها من فنون الحياة والأفكار والشعور ، وما يغمرها من الأضواء والألوان ،

وما يضطرب فى أحشائها من المصانع والمعاهد والمعابد ، وما يثْوِى فيها من دور الكتب والآثار ، ومخازن التحف وأدوات الجمال ، وما تسيل به شوارعها من وسائل الانتقال ، وما تَضِجُّ به من الأصوات والمقالات والخطب والأسمار والأحاديث ، وما يتوزع فيها من الأعمال والأموال والحِرَف ... تخيّل هذا ثم قل : هل رأيت فى الحياة منذ دخولك إليها نوعاً غير الإنسان يقيم أسواقاً للحياة مثل هذه الأسواق ؟ ثم هل رأيت نوعاً آخر يعلو بالحياة حتى يأتى فى علوه بالعجب العجاب ... ويسفل بها حتى يأتى فى السفالة بالعجب العجاب ؟ ... وهل رأيت نوعاً آخر يفتَنّ فى وسائل متاعه هذا الافتنان الذى تراه فى السينما والمسرح ومخازن الملابس والفرش وأدوات الزينة ؟ .

هل رأيت ... وهل رأيت ؟

وأخيراً هل رأيت نوعا آخر يترقى فى سلّم الحياة باطراد وخطى ثابتة ، وقياس متناسب ، بعد أن أتى عليه « حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » كما قال القرآن ؟

فكيف بعد هذا تسوى بين قيمة الإنسان أبى العجائب ، وبين قيم النبات والحيوان ، وتسلكه فى سلك الفناء المطلق الذى يأتى على أجسامها وأرواحها بدون مآل أسمى ومصيراً كمل ؟!

وكيف تضرب عليه ماضر بته عليها من الأحكام المنحطة ، وتحشر أفراده فى مليارات أفراد الحيوان والحشرات التى تعيش على العشب والجيف والروث والعفونات ؟!

إنى لأستعرض تنوع حياة الأمم والأفراد ، وأتصفح الوجوه والنفوس وأسمع حديث الأطفال والعجائز ، والنسّاك والفتّاك ، والفقراء والأغنياء ، والعلماء والجهلاء ، والذكور والإناث . . . فأجدنى بعد هذا الاستعراض فى دوار من الفكر !

وإنى لأخرج بعد هذا الاستعراض وأنا أشعر أنه كان لابد أيضاً فى الأرض مما نسميه الشر والضلال ليدوم ظهور أسرار التكوين !

* * *

إن شئت فقل إن الإنسان أشبه بمجْهر تمر من خلاله الطبيعة الارضية بخصائصها التى كانت « غَيْباً » مستوراً قبل ظهور هذا النوع ، فتتساقط على عينيه أنوارها وظلماتها ، وعلى سمعه نغماتها وأصواتها ، وعلى خياشيمه عطورها ونفحاتها ، وعلى ملامسه نعوماتها وخشوناتها ، ويقع على إحساسه العام ثقلُ المادة ، وصعق الكهرباء ، وشد الجاذبية ، وتمر على فكره معانى الوجود ومعانى العدم ... ثم يترجم كل هذه الكلمات الصامتة بكلمات ناطقة من بيانه الذى اختصه به بارئ الطبيعة ... فكل شىء فى الطبيعة الأرضية كان لابد أن يمر من حواس هذا النوع وفكره ليأخذ حدوده ومميزاته ويرمز إليه بكلمة بيانية يضعها خليفة الله فى الأرض .

وإذا صح ما أثبته تحليل ضوء العناصر ، من أن العناصر التى فى النجوم والكواكب هى بعينها العناصر التى فى الأرض ، كان فى هذا زيادة فى النظر لقيمة الإنسان كمترجم ومحدد لعناصر الطبيعة فى غير الأرض أيضاً .

وإن شئت فقل إن الإنسان آلة فى يد الخالق يتمم بها التنويع والتفريع والتركيب فى خلق المادة الميتة الجامدة وتصويرها وصقلها وتزويقها وتَوْشِيعها ، حتى تصل إلى الدقة المتناهية فى تركيب تروس الآلات ومساميرها الصغيرة ، وإلى الزركشة والنمنمة فى الثياب والأثاث . وعندئذ يكون الانسان امتداداً لعوامل التكوين والإنشاء والتعمير التى فى يد الله .. يكون إزميلاً فى يد المبدع الأعظم ، وريشة بين أصبعيه ، يشكل بهما المادة أشكالا ويملؤها بهما تزاويق وتهاويل !

ولذلك كان العلم بأسرار الطبيعة أشرف عبادات هذا النوع ، مادام متوجها فيه إلى رب الحياة ومتعرفاً إليه به .

* * *

واقرأ قصة خلق الإنسان كما وردت فى القرآن الكريم لترى منها العجب الذى رأيناه :

« وإذ قال رَبُّك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويَسْفِك الدماء ، ونحن نسبِّح بحمدك ونُقدِّس لك ؟ قال إنى أعلمُ ما لا تعلمون . وعلّم آدمَ الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبِئُونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك ! لا علم لنا إلا ما علّمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبِئْهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلمُ غيب السموات والأرض وأعلم ما تُبْدُون وما كنتم تكتمون . . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس . . »

وأرجو أن تقف طويلا أمام قوله تعالى « إنى أعلم ما لا تعلمون » ردا على سؤال الملائكة « أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ... » لتعلم أن الله تعالى نظر نظرة سماح واغتفار لما تستلزمه حياة الإنسان فى مجموعه بالجسم الحيوانى من الشرور والآثام ؛ إذ قد علم ما وراء فتوح الإنسان فى « غيب السموات والأرض » من آثار علمية وعملية ترجح على ما يرتكبه من شرور وفساد وسفك دماء . .

كما أرجو أن تقف وقفة أطول أمام عجز الملائكة عن عِلْم ما علَّمه اللهُ آدمَ ، وما اختصه به من ترجمة كلماته فى الطبيعة الصامتة ، ومِن نَبْشٍ فى « غيب » السموات والأرض ، واستخراج لأسرار ذلك الغيب .

ثم قف وقفة أطول أمام أمر الله تعالى ملائكتَه بالسجود لآدم . . وسجودهم له و إباء إبليس . . لتفهم تلك الرمزية العجيبة التى ترمز إلى تشريف الله لهذا الجنس الذى تحمله فى جسدك وتستوحيه فى فكرك ، و إلى طاعة جميع قوى الطبيعة الأرضية المبصرة والعمياء له ، إذا ما احتفظ فى نفسه بأقباس الطهر والعلم كما وضعها الله فيه — إلا قوة الشر التى يمثلها إبليس ، فإنها أبت أن تشترك فى تشريفه ، وأن تطيع الله فى الاعتراف بخصوصياته من علم بالأسماء التى فى غيب السموات والأرض .

و إنك لتعجب حين ترى مصداق هذه القصة بحذافيرها وجزئياتها فيما وصل إليه الإنسان فى هذه العصور الأخيرة : من عثوره المتوالى على كثير من مفاتيح الطبيعة ، وفتح أبوابها بابا فبابا ، ومن خلع الأسماء على كل شىء ، و إبرازه إلى عالم الفكر فى قالب من البيان ، بعد أن مضت عليه

دهور وهو غائب مبهم ، وتسخير كثير من قواها لخدمته وطاعته ، ومن لبّس روحه الحية للمواد الميتة الجامدة ، وجعلها تحيا حياة آليـة بعقله ، وتخطو بسرعة فـكره !

وإنك ليبلغ العجب منك مبلغه ، حين ترى أن « قوة الشر » لاتزال هى الوحيدة الفريدة التى لم تشترك فى تشريف حياته ، والاعتراف بعلمه ، والدخول فى طاعته . . بل على العكس تحاول دائما تحويل حسناته إلى سيئات ، وعلومه إلى جهالات ، إذ هى بالغة الفطنة ، شديدة الفتنة ، ضارية اللعنة !

ولـكن الله وملائـكته وسائر قوى الخير فى الطبيعة مع الإنسان ! ولذلك كتب له النصر فى كفاحه ضد كثير من جنود الشر ، وأصبحت كلمات الحق والإيمان والعدالة والعلم والمساواة ، مزامير صلوات لأممه وأفراده ، وقد انكشف له وجه الأرض وجسم الانسانية جميعها ، وابتدأ يعرف مكانه ووضعه فى الطبيعة ويراه رأى العين .

وقد رصد الله له رحمته الواسعة ، وحلمه العظيم ، وغفرانه السمح ، منذ أن قال للملائكة : « إنى أعلم مالا تعلمون » حتى يبلغ الغاية التى قدرها له . « والله غالب على أمره » « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » !

فلا يهولنك ما تراه من الجريمة والفساد والأوباء والنكبات التى تجتاح حياة الإنسان ... فإن الذى خلق هذا النوع متيقظ له ، دائم الرعاية عليه ، يسوقه فى طريق مرسوم حتى يبلغ غايته ، برغم كل ما نسميه الشر والفساد والباطل الذى ماخلق إلا للحق والصلاح ...

فلولا الأمراض ، ماظهرت علوم الطب التى كشفت لنا عن ملايين من عوالم الجراثيم ، وكانت حياتها مستورة فى « غيب السموات والأرض » ، ولولا الحروب ما تقدمت أدوات الانتقال السريع واختزال المسافات ، وما تنافس الناس على استخراج مافى المناجم من الرّكاز ، وكان كل ذلك « غيباً » محجوبا فى الأرض . . .

ولولا الغرائز السفلى كالطمع والجشع والأنانية ، مارأيت فى الأرض هذه الحياة العنيفة الحركات فى التعمير والاقتناء والتسابق على كشف بقاع الأرض المجهولة وإظهار غيوبها ، وإقامة معالم الحياة العلمية المتحضرة فيها .

ولولا البأس الشديد فى الحديد والنار ، ماتكونت الامبراطوريات الواسعة التى ربطت بين كثير من أمم الأرض برباط التفاهم والحب والخدمة المشتركة ، وما ابتدأت البشرية الآن تفكر فى جامعة عامة لجميع الشعوب والأمم ، تجمعها على أسس العدالة والسلامة الإجماعية ، وخدمة العلم خدمة مشتركة ، وتقيها من شرور التدمير والتخريب وما تنتجه الحروب .

ونظرة إلى تاريخ البشرية ترينا التقدم المطرد فى سبيل التجميع والتوحيد . فقد كان الإنسان فرداً ثم صار أسرة ثم صار قبيلة ثم صار أمة ثم صار أمبراطورية وولايات متحدة ، ثم بدأ يصير « جامعة أمم » ولابد من ذلك فى يوم ما ، قريباً كان أم بعيداً .

فالشر هو الذى يدفع دائماً إلى تقوية الروح بالجهاد للخير . فإن الأرواح لا تقوى إلا بالمجاهدة ، كما أن الأجسام لا تقوى عضلاتها إلا بالمقاومة .

وان قيادة الانسان إلى الله رب الطبيعة قد صارت الآن من أسهل الأمور لأن العلم قد ألقى كثيراً من أشعته على مواقع يد الله فى الطبيعة ، وعلى كثير من الأبواب التى توصل إليه ...

ولكن كثيرين جداً من الذين يحترفون قيادة الأرواح أغبياء محدودون عميان .. فكيف يقودون فى طريق مملوءة بكثير من جثث الخرافات والأباطيل التى لصقت بالدين فى زمن الجهل والظلام ، والتى صرعها العلم الواضح والعقل الطلق المستنير ؟ !

* * *

وأريد أن أخص « منطقة الشهوات » فى النفس البشرية بالتفاتة :

قالت الملائكة وهم الأبرار الطائعون المخلصون حياتهم لله والخير : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إنى أعلم ما لا تعلمون » وكذلك كل ما نراه من الفلسفات والخطرات المبنية على سوء فعل الإنسان ، وسوء الظن به ، والسخط عليه ، إنما هو ناشىء من طبيعة السمو فى نفوس لا ترى الحياة إلا فى مثلها الأعلى الذى رضيته لذاتها هى . .

وما ضر منطقة « العقيدة » ومنطقة « العبادة » ومنطقة « العلم » ومنطقة « المعاملة » فى الدين إلا الخلط والمزج بينها و بين منطقة « الشهوات »

وفى اليوم الذى يفهم فيه الحل والفصل المعقول بين هذه المناطق ، يمكن أن نرد إلى حظيرة الدين ، عدداً كبيراً من الآبقين الهار بين الجاهلين باختلاف مناطقه واتساع آفاقه ومَنادِحِه ...

ويريد بعض المحدودين ، أن يجعلوا تدبير الله كتدبيرهم ، وقياسه على قياس تفكيرهم المحدود . . ولو كان كذلك لخسف بالظالمين الأرض ونكل بالأشرار تنكيلا بدون حلم و إمهال .

ولكنه تعالى واسع العلم والحلم ، غفار ستار ، سَمْح مطلع على القلوب ، ذو وزن دقيق للأعصاب والوراثات . وهو لا شك ينظر للفساد الظاهر فى حياة الانسانية نظرة وزن لما تورثه أَمْشَاج النطفة الآخذة من القوى الحيوانية ، والعناصر العمياء الحادة .

اننا — نحن القاصرين — نغتفر للطفولة عبثها وحمقها وطيشها وجرأتها ولو كانت القتل ، لأنها لاتدرك . . فكيف نريد أن نجعل حلم الله وتقديره للظروف أقل من تقديرنا !

إن الأمر فى ذلك يحتاج إلى التنويه والتنبيه إلى أن الانسان كان إلى عهد قريب فى دور الشباب ، وأن ذلك كان علة صبر الله وحلمه عليه فى سبيل وصوله إلى دور الرشد والعقل ، و إن من العدالة أن نرحم الطفولة المجرمة . . كما أن من العدالة أيضا القصاص الشديد من الرجولة المجرمة العابثة بحدود الحياة وحرماتها . وهذا ما كان فى هذه الحرب ؛ فقد أثبتت للناس أنهم وصلوا إلى درجة من النضج ، لاتحتمل العبث بحرمات الحق والعدالة ، وأن حربهم وجرائمها صارت كحرب « الآلهة » لا كخصام الأطفال .. فليحذروا من الآن ، ولينتبهوا إلى نفوسهم وما صار لها من قدرة خطرة ! و إلى أن الله حينما أباحهم أخيراً بعض أسرار علمه فى

التكوين والتخريب ، إنما أرادهم أن يستخدموه فيما يوحى به رشد الرجولة العاقلة ، لا حمق الطفولة الطائشة !

والحق أن ما يتلاقى فى مجموع الانسان عالم عجيب متناقض ! فهو بين تلك القوى الملكية البارة العاقلة الخيرة . . و بين تلك القوى العمياء الشيطانية الطائشة . فلا عجب أن يكون بينهما على اضطراب شديد وابتلاء عنيف ، يستحق من أجلهما نظرة حليمة رائية رحيمة توحى بالتفكير الدائم فى وسائل إنقاذه من طغيان قوى الشر والجريمة والشهوة الخسيسة .

فوق الموازنة

تأكيد إنكار — نظرية النشوء والترقى — سعى الانسان للخلود بالجسم والفكر والصورة والصوت والحركة والروح — اهتمام الانسانية بنفسها وتيقظها لسير تاريخها — الانقلاب الاسلامى — انقلاب القرن السابع عشر — مزاعم عامية

نعود فنؤكد إنكار أن يسوى بين حياة أى نوع من الحيوان والنبات ، وحياة الانسان أبى العجائب . . . الإنسان الذى يفكر فيها ويدرسها ويصورها ويكتب عنها ويتصرف فيها ويتغلب عليها ، وهى لا تفعل شيئا من ذلك . . الإنسان الذى يولد وهو أقل منها قدرة على التغذى والدفاع عن نفسه ، ثم ينمو ويترقى إلى مالا نهاية له فى الفكر والعلم بما يزيد عن ضرورات حياته ، بينما هى تقف فى نموها وإدراكها عند حدود حفظ حياتها . . .

الإنسان الذى خلقت هى له ، بدليل تسخيره إياها فى خدمته ، ولم يخلق هو لها ، بدليل أنها لم تتغلب عليه وتسخره وتتصرف فيه .

الإنسان الذى خطا فى ستة آلاف سنة — هى عمر التاريخ الذى نعرفه — خطوات واسعة ثابتة متلاحقة ، فتغيرت حياته من العُرْى والبساطة فى المسكن والملبس والمدرسة والحرفة والعبادة تغيراً عجيباً ، يكاد يجن منه آباؤنا الأولون لو بعثوا ورأوا ماوصلنا إليه . . بينما الحيوانات

والحشرات واقفة كما هى منذ عهد أجدادنا الأولين بها .

وهنا الدليل القاطع على وجود روح سامٍ من الله فى الإنسان ، يدفعه إلى الأمام دائماً فى هذا العالم ، حتى يكشف عن كل سر فى الطبيعة ويتصرف فيه ، ويدفعه إلى إدراك الكمال التام الذى ينتظره فى عالم آخر

فإن لم نعترف بقيمة سامية الانسان خارجة عن نطاق حياته الحيوانية ، فسوف تختلط أمام الفكر المثُلُ ، وتلتوى السبل ، ونضل ضلالاً بعيداً يؤثر فى خدمتنا للعلوم والآداب الرفيعة والعمران تأثيراً رديئاً

وإن سوء الفهم لنظرية النشوء والترقى من أكثر الذين درسوها دراسة سطحية ، هى التى لوّنت نظرة الكثيرين إلى قيمة الإنسان بهذه الألوان المزْرية التى تبعث على تحقيره وإسقاطه من العرش الذى أجلسه عليه الدين منذ أقدم العصور .

فبناء على تلك النظرة المبنية على سوء فهم للنظرية ، ذهبت عن الإنسان قداسته ، واختلت مقاييس الأخلاق وموازينها ، وكان فى هذا أكبر دافع فى العصر الحديث إلى التحاكم إلى قوانين الأدغال التى لا مجد فيها إلا للقوة العمياء والشهوات والسيطرة الوحشية التى لا تؤمن بخدمة الفكر والعلم ولذة الحياة فى مثل أعلى .

وعلى فرض ثبوت نظرية النشوء — وهى للآن لاتزال فرضاً نظرياً يحتاج إلى حلقات مفقودة ليصير حقيقة علمية — لا يجوز لنا أن نخلط بين الحياة الآلية التى هى « مضروب مشترك » فى أجسام جميع الأنواع ، وبين الروح الإنسانى الملموح فى رقى الإنسان الدائم السريع ، ونزوعه

المستمر إلى الأكمل ، ونفاذ فكره فى عالم المعانى المجردة التى تبدو عجيبة رائعة فى الرياضيات العليا ، والحقائق الروحية العليا ، والمثاليات العليا التى لا يمكن تفسيرها تفسيراً « بيولوجياً » أو « فسيولوجياً » .

ولقد أحس الإنسان ، حتى فى عصور جهالته ، بتفرده وامتيازه على سائر ما يحيط به فى الطبيعة ؛ إذ وجد نفسه أقوى قدرةً ، وأوسع حيلة فى التغلب على المشقات ، وفى الرقى بالحياة رُقِياً مطرداً ، ولذلك لم يستطع أن ينظر إلى القبر كأنه نهاية أبدية لتلك الحياة ؛ بل وجد فى إلهامه أن لا بد وراء موته من امتداد لحياته على اسلوب آخر أو على أسلوب الدنيا .

فما باله يشك الآن فى قيمته السامية ، بعد أن تضخم أمامه ميراث علومه وآدابه ، وعَمَرَ الأرض عمرانا ، وافتنَّ فيها افتناناً ، وصار فطناً لما فيها من جمال وأسرار ؟ !

إنه ما فتئ منذ وجوده وهو يسعى لخلوده ، ليظل مغموراً بهذا الإحساس العجيب بالحياة ، ولم يكن يستطيع أن يتصور الخلود فى أول الأمر بأكثر من أن يعطى شعلة حياته إلى ولده . وقد وجد فى ولده أكبر عزاء له عن موته وفنائه ، ولكنه لم يقنع بهذا بل ظل يبحث جاهداً عن وسائل خلود جسده هو بذاته ، فحنّطه ونقش صورته على الألواح والتماثيل ، ثم خطا خطوة أخرى فخلد فكره بالكتابة ، ثم خطا خطوات متلاحقة فى العصر الحديث نحو هذه الغاية ، فخلد صورته الحقيقية « بالفوتوغراف » وصوته « بالفونوغراف » وأنغام نفسه « بنوتة » الموسيقى ، وحركات جسمه « بالسينما » ، ثم تصرف فى الصوت والصورة والحركة ونقلها

على أمواج الأثير ، فاخترق الحدود والسكثافات بالراديو والتلفزيون فى أقل من لمحة ، ثم هو الآن يتجه ببحوثه إلى عالم الروح ، لعله يستطيع أن يتصرف فيها ... والله أعلم بمستقبل هذا النوع العجيب الذى ارتضاه خليفة له فى أرضه ... !

فأنت ترى أنه مشغول دائماً بخلود حياته ، إذ يحس إحساساً فطريا وعقلياً أنها لا يليق بها الفناء الأبدى الذى يرجعها إلى العدم المطلق ...

وأحب أن ألفت الفكر إلى أمر هام جداً وذى قيمة كبرى فى النظر إلى قيمة الإنسان : وهو أن حياة هذا النوع منذ ابتداء تيقظه لها فى العصر التاريخى ، وتقييد خطواته فيها ، حياة مطردة الرقى ، سائرة بسرعة إلى الوضوح والانكشاف .

ولقد عاش أدهاراً طويلة وهو يجهل أجناسه وأنواعه ، غائبا فى أوطانه الضيقة ، يحسبها هى وحدها كل الدنيا ، لا يعلم حدود اليابس والماء ، منثوراً لا رابطة تجمعه ، جاهلا بما فى الكون من عوالم وأسرار ، وقد كانت أديانه أدياناً خاصة . كل قرية فيها نذير يسدد حياتها بحسب ظروفها هى وحدها .

ثم كان الانقلاب الإسلامى قمة النضوج فى العقيدة الدينية ، إذ جعلها عقيدة طبيعية عقلية دولية وضعت فيها الأسس لوحدة البشر وتلاقيهم على المعانى المشتركة بينهم ، حتى يتأتى من وراء ذلك ، السعىُ إلى وحدة العمل والخدمة المشتركة ، ولذلك لم تنتظر الأرض أن يأتيها هدى من السماء على يد رسول بعد رسول الإسلام ، وأحست أن الله أغلق باب « الوحى » ،

وجعل محمداً « خاتم النبيين » ، وقد صدق الزمان ذلك فلا مجال للجدال . فلم تعد الإنسانية تقبل ظهور البطل فى صورة نبى . وقد نبـه إلى ذلك « كارليل » فى كتاب « الأبطال » . وهذا هو معنى قول محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى خطبة حجة الوداع : « إن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أى أن الإنسانية قد بدأت بعد الانقلاب الإسلامى دورة زمنية جديدة .

وحقاً يجد كل من يتفرس و يستقرئ التاريخ ، أن عصراً عقلياً جديداً قد ابتدأ بظهور الإسلام ، وانفساح الأمبراطورية العربية التى احتضنت جميع علوم العالم القديم ومعارفه وأنمتها وحملتها إلى العالم الحديث . فالانقلاب الإسلامى ينبغى أن تجعله الإنسانية كلها بدء تاريخ رشـد للعقل ووحدة للدين ، وستفعل ذلك فى يوم لا ريب فيه .

والآن صارت الأرض كقطر واحد بأدوات الاتصال السريع ، وكل أمة تعلمت لغات غيرها ، وارتبطت مجموعات كبيرة من الأمم برباط واحد ، واختلط الأبيض بالزنجى ، والشرقى بالغربى ، وسكان الجزر النائية الغائبة فى المحيطات بسكان القارات ، وصار الإنسـان العادى يطالع كل صباح ومساء على أخبار العالم الأرضى كله ، ويرى حياة جميع الأمم فى السينما ... وهذه كلها مقدمات لنتائج لا شك فيها عند من يقيس و يعتبر بالماضى .

وكما ثبت أن الانقلاب الاسلامى كان بدء عهد عقلى وقلبى للانسان ، قد ثبت أن القرن السابع عشر الميلادى كان بدء عهد عملى وعلمى له .

وبذلك طار الإنسان بجناحين قويين من الحياة الفكرية والحياة العملية إلى الغاية من خلقه .

فليس من الصواب ولا من الإنصاف أن ننظر نظرة تشاؤم إلى حاضره ومستقبله ، بعد أن رأيناه يبنى حياته على العلم والنظام بناء كان يعد فى الماضى من أعمال السحر وخوارق العادات ...

ومن النظر العامى أن نزعم أن الإنسانية الآن أحط منها فى الماضى .. ولست أدرى ما مبعث هذا الزعم ؟ أهو ملاحظة فساد فى العقيدة الدينية ؟ إن العقيدة الدينية الآن أصح منها فى الماضى ، فهى فى أكثر الأمم المتعلمة ، بعيدة عن الشرك والوثنيات والخضوع الأعمى للكهنة ... وما أصدق أن عاقلاً يُخْلِى الطبيعة من عقل يدبرها . ولكنه ليس آلهة الكهنة ، وعما قريب يذهب ما فى بعض الأديان من بقايا الوثنية والإشراك ، ولن يبقى للانسانية إلا دين الفطرة والعقل بغير عنوان وانتساب إلى جنس أو شخص أو مكان . وهذا هو المعنى الحرفى لكلمة « الإسلام » . فأى امرئ يؤمن بخالق واحد للطبيعة ، ويحسن العمل فى الدنيا فهو « مسلم » والمعنى الحرفى لكلمة « إسلام » هو الانقياد لحكم الله وقوانينه فى الطبيعة .

واقرأ إن شئت : « وقالوا لن يَدْخُلَ الجنةَ إلا من كان هُوداً أو نصارى . تلك أمانيُّهم ... قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وَجهَه لله وهو محسن ، فله أجرُه عند ربه ، ولاخوفٌ عليهم ولاهم يحزنون » ... والآيات كثيرة فى هذا ، ولا محل الآن للخوض فى هذا الموضوع ...

وقد صارت الأديان التى تحتضن بقايا الوثنيات تختنق وتفر من نور العلم والفكر الحر ، ويزعم سَدَنتُها أن الدين لا مناقشة ولا تحاكم للعقل فيه .. وهذا أول الاعتراف منهم بأنهم على باطل عما قليل يذهب مذموماً مدحوراً إلى قبور الخرافات والاباطيل .

أم يكون مبعث هذا الزعم هو فساد الأخلاق الاجتماعية ؟ ولا هذا أيضا .. فإن الأخلاق الاجتماعية تترقى باطراد فى كثير من الأمم التى بنت حياتها على العقل والنظام رقيا لا يمارى فيه إلا من يرسل الكلام بدون هدى ولادليل منير . فحكم الشورى هو الحكم الغالب ، وحرية الفرد وحقوقه صارت مكفولة معترفا بها ، وقد نظم الإحسان ، وحوربت الأمراض وطوردت الجرائم ، وصار التعليم والصحة والقوت حقا للفرد على الدولة ، ومجدت صفات البطولة والنبل ، وأقيمت لها النصُب والتماثيل والأوسمة وحفلات التكريم ، ووطدت وحدة الأمة وتكافلها بأروع المظاهر كما فى بعض الأمم العظيمة .

أظن أن مبعث الزعم بانحطاط الانسان هو انطلاق الانسان وراء شهواته ، وافتتانه فى إشباعها .

وعلى فرض صحة هذا الزعم فإن منطقة الشهوات منطقة منفصلة عن منطقة العقيدة الأصلية فى الدين والحياة ، ولا يجوز أن تكون سببا لهذا التشاؤم الذى قد يصل إلى الكفر والاعتراض الصريح على الله ، حتى من بعض كبار المتدينين الذين أرسلوا إلىّ منذ حين ، وكانوا من أعظم الأسباب لتحرير هذا الكتاب : إذ أن أحدهم وصل به الحال إلى أن يقول :

إن الله تعالى غلب على أمره . ! إذ لم تتحقق غايته من خلق الإنسان وهى العبادة . . و بعضهم يتهم الله تعالى بالأنانية ! لأنه لايبالى بما يصيبنا من الآلام والعذاب فى عبادته . . !

وما أكثر ما يجنى قصور الفهم والتوجيه للنصوص على الناس ! وما أعظم مَسْخَ الألفاظ بكثرة مضغها بدون إدراك ! وما أعظم جناية التقليد الأعمى فى أخطر أفكار الحياة وهى فكرة الإيمان !

وقد بينت معنى « العبادة » فى كتاب « الحياة صادقة » المهيأ للطبع بما أعتقد أنه يقضى على بواعث مثل هذه الاعتراضات فلا داعى لذكره هنا .

obeikandl.com

فى معترك الآراء

فى حدود البداهة أيضا — فليكن قرداً نهض على قدميه ، ثم ماذا ؟ — وارث الحياة — الشر يلد والعلم يدفن — الأشقياء الهالكون — نتائج الايمان ونتائج الانكار — أخلاق العلماء — الألمان والانجليز والعرب الهندوس وعبادة الأبقار والأفاعى — صوفية شاردة تتخيل وصوفية مادية تتحقق — استعلان سر الوجود على تفاوت — برغوث أبى العلاء — مذهب هدام — فترات التمهيد لظهور الانسان — لانقص فى غرائز الانسان — العلم أضاف حياة للحياة — مااشدت بجمع أخلاق الانسان — الدولة كائن عضوى واحد — تقدم العلم وتخلف الخلق — لو آمن بنفسه — يوم قريب — لغير المؤمنين

كتب صديقى الباحث الفاضل الأستاذ زكى نجيب محمود مقالا فى العدد ١١٧ من مجلة « الرسالة » الغراء ، أخرجه مخرج الإنكار لما ذهبت اليه من رأى فى القيمة السامية لحياة الانسان وتفرده بالسيادة بين غيره من سكان الأرض ، وبتوجه منافع مافى الأرض كلها اليه ، وبتفرده بالتغلب على كثير من قوى الطبيعة وتسخيره إياها ، وببساطة الحياة فى الأرض بدونه ، وبقدرته على إيجاد عوالم ومعان وصناعات ومدن وآثار ورسالات لم يكن فى الحياة شىء منها ، وبقيامه وسط دورات الأرض الأبدية المكررة المحدودة ، بحياة حرة تذهب فى كل اتجاه ، وتكاد تكون منفصلة عن الحياة الطبيعية .

وقد رددت عليه بمقال أرى ضرورة نشره هنا لصلته بما قبله . ولم

أكرر فى ردى ماسبق لى من معانٍ يمكن توجيهها للرد عليه أيضا .

قلت : أود أن أزيد هنا بعض أفكار ، أقدّم قبلها أسئلة فى حدود البداهة [التى كثيرا مايجنى على الحق إهمال التحاكم إليها وترك الاسترشاد بهداها والاعتصام بها من أمواج الفروض والشكوك والنظريات الفكرية الطليقة . . .] ألقيها إلى صديق خليفة (سليمان بن داود) مفهم الطير والبهائم والمرَدَة ، والفراش المبثوث ، والبعوض والبرغوث .

هل رأى أو سمع أن أمة من أمم الحيوان والحشرات اصطادت إنساناً ووضعته فى قفص وعرضته أمام الأنظار ؟

وهل رأى أو سمع أن فرساً أو حماراً ألجم إنساناً وركبه ، أو حرث عليه حقله أو وضع على ظهره حمله ؟

وهل رأى أو سمع أن جملاً أو فيلاً أو ديكا أو خروفاً قدم لإنسان حفنة من شعير أو أعواد برسيم أو قدح ماء ؟

وهل رأى أو سمع أن برغوثاً أو بعوضة أو فراشة صنعت دواء ووضعته فى مِضَخَّة ثم أطلقته على الإنسان لتخدره أو تدفع أذاه أو تقتله؟

وهل رأى أو سمع أن حيواناً ما ، قطف زهرة ووضعها فى أصيص يتأمل جمالها ويزين بها مسكنه ، أو أقام معرضاً أو متحفاً للبذور والثمار أو منتجات الحيوان والإنسان ؟

هل رأى أو سمع أن جماعة من الأبقار أو الأغنام ، ثارت على جزار وأمسكت به وذبحته وسلخته ، وأخذت من لحمه وشعره وجلده وظفره

منافع ؟ أو على الأقل أدركت لماذا تساق هى إلى المذابح ؟

هل اصطنع ذئب أو سبع من سباع الأرض سلاحاً يدفع به غائلة الإنسان ومكايده وحبائله ؟

أترك لصديق زكى أن يدرك سير الحياة بالإنسان ، ووضعه بين الأحياء من خلال الأجوبة على هذه الأسئلة .

ثم لنفرض مايقوله بعض شراح نظرية النشوء والترقى صحيحاً ، من أن الإنسان أصله قرد نهض على قدميه ... ثم ماذا ؟

لقد سبق هو وتخلفت سائر الأنواع ... إذاً هو وحده كان محفوفاً بعناية الذى خلق الأنواع كلها ، حتى جعله فى قمة الحياة العضوية الحيوانية ، ثم بَثَق فى رأسه بَثْقاً صار منبع عالم جديد عريض فائق سابق على سائر حياة الأحياء المعهودة ، إذ جعله يصنع موجودات تفوق قدرة الحيوان وقدرته هو على السرعة والاحتمال والنقل والسمع والبصر والتكبير والتجهير والتقريب ، ولم نر غيره حيواناً يخترع آلة لصيد فريسته . ولم نر أمة من أمم النمل تخترع عجلة تحمل عليها الأثقال التى تعانى نقلها من مكان إلى مكان ، ولم نر أمة من أمم النحل تفكر فى دفع عدوان الإنسان على عسلها الذى تتعب وتدأب فى جَنْيه واشتِيَاره من رحيق الأزهار ونُوّار الثمار ، على كثرة ما جربت من غزواته لها . وكل حيوان يعيش فى نطاق ضرورات حياته لا يتجاوزه .

فلئن كان قانونا « الانتخاب الطبيعى » و « بقاء الأصلح » أقنومين عظيمين من أقانيم نظرية النشوء والترقى ، كما يعترف بذلك أنصارها

— وصديقي زكي منهم — فهما اللذان وضعا الإنسان هذا الموضع الممتاز . . . موضع القمة في سلسلة الأنواع . وما دام الإنسان استطاع أن يتغلب على حيوان الأرض ، يستبقي منه ما له فيه نفع ويبيد منه ما يشاء ، ويجد من الطبيعة إقبالاً عليه وكرماً في إمداده بوسائل التغلب على ما يريد إبادته ، ولا يَصدُّه صادّ عن اقتحام الغابات والأجَمات والبحار والمَناقع للصيد والتلهي بالقتـل . . . ما دام الانسان استطاع أن يفعل كل هـذا ، والطبيعة تساعده على فعـله ، فهو إذاً الابن البكر للحياة في الأرض ، وهو المقصود بهـا بحكم قانون « انتخاب الأصلح » ، وهو وارثها لأنه الأقوى . . .

سيقول صديقي زكي : « وماذا أنت قائل في الجراثيم التي تفتك ببدن الإنسان لتعيش ؟ تلك التي إن أفلح في نزع واحدة منها مما يسكن جوفه باضت له ألوف الألوف من صغارها ؟ » .

وأقول : إن مصير هذه الجراثيم مصير غيرها من قطعان الوحش وسائر أعداء الإنسان التي تغلب عليها وتحصن منها ، وأوشك أن ينظف الأرض من غوائلها . . . وإن تاريخ كشفه لها قريب جداً ، ومع ذلك استطاع أن يقيم أسباب المناعة منها في المسكن والملبس والمطعم والمُسْتَنْشق . وما دام قد رصد حياتها وعرف أوكارها ، وسلط عليها حرساً من المجاهر والمخابير والعقاقير ، فهو لاشك واصل إلى التغلب عليها في سائر البقاع ، ما دام قد تغلب عليها في مناطق المستشفيات ودور النقاهة وكثير من المنازل والمدن التي لا تهمل وسائل الوقاية العلمية . . .

وإنه لجهاد مشكور وأمر عظيم ، أن يقتحم الإنسان بعلمه وأدواته هذه المناطق التى عاشت دهوراً وراء نظره وفوق وهمه وتخيله ...

وإنها لعناية من بارئ الطبيعة بهذا النوع أن يعرّفه أعداءه واحداً واحداً ، ويمكّن له فى الأسباب حتى يتغلب عليها جميعاً ...

وإنه لبدء حياة جديدة لهذا الإنسان فى الأرض ، أن يعلم ما خفى وما استعلن من هؤلاء الأعداء ...

فلتلد بطون الشر والألم ما تستطيع من أطفالها ... فستلد قوانين العلم مقامع ومهالك لهذه الأطفال ..

وإن الأشقياء الهالكين فى الحياة الدنيا، هم الكافرون بالعلم وبالإنسان الذى أنتج هذا العلم ...

أولئك الذين يعيشون بأساليب القرون الجاهلة العاجزة ، وينظرون إلى الحياة نظر العجز وضعف الثقة بروح الإنسان وعقله ، ونظر القاصرين الذين لم يدركوا ذلك النمو السريع للحياة الإنسانية فى مدى قصير جداً من الزمن ، وهو أربعة آلاف سنة أو خمسة أو ستة ، وهى عمر التاريخ الذى نعرفه ...

أولئك الذين لم يدركوا بعد كيف قفز الانسان فى السنوات الخمسين الأخيرة من عمره قفزات حققت كثيراً من أحلامه فى الانطلاق والسيطرة والإنتاج والاستغلال والتوليد والتقارب بين أجناسه وأقطاره ، واختزال المسافات والأبعاد ، وإقامة الأرصاد لحوادث الحياة وظواهر الطبيعة .

أولئك الذين لا يزالون يعيشون كما كان يعيش آباؤهم الأولون الذين لم يكونوا يعرفون من الدنيا إلا حدود البقعة التى ولدوا فيها ، أو القطر الذى ينتمون إليه ... ولم يكونوا يعرفون أن فى الأرض محيطات هائلة ، وقارات مجهولة ، وعوالم مستورة ، وأن الأرض ما هى إلا كرة صغيرة جداً كذرة رمل فى صحراء ... الذين كانوا يبيتون فى الظلام والبرد ، وأنهارُ النور والنار على بُعد ضربة مِعْوَلٍ منهم فى منابع النفط والبترول ... ويعيشون تحت رحمة غَيْض الماء وفَيْضِه بدون أن يقيموا سداً أو خزاناً يحفظ الماء ويحفظهم من طغيان الماء ... والذين كانوا يأكلون الموت ويشربونه فى المطاعم والمشارب الملوثة بالجراثيم والآفات ...

أولئك الذين كان كفرهم بالإنسان ، وعدم إدراكهم لسموه وتفرده بين سائر الأنواع ، السبب الأكبر فيما نراه يسود حياته من اصطناع أساليب الحيوان الفاتك الضارى المتشهى الغافل الذاهل عما يدور فى السماء ويجرى فى الأرض من العجائب والمعجزات وأفانين الحياة ...

« وبعد » فليكن الإنسان فى مقاييس ما وراء الطبيعة ما يكون ، ولتعل قيمته هناك أو لتسفل ، فإن هناك شيئا واحداً هو الحياة الاجتماعية التى تستلزم إعلاء لقيمته ، لنسعد فيها .

وما يجر الشر والإثم والسفالة على النفس الإنسانية إلا غفلتها عن مقامها الممتاز فى الحياة ، وإلا أخذها بظاهر الحياة الجسمية الآلية ، التى تجعلها والحيوان فى حظيرة واحدة .

وما كان جهاد أنبيائها وحكمائها الذين خَطَوْا بها خطوات واسعة إلى

الأمام ، إلا نتيجة لإدراكهم امتيازها وما فيها من قوى زائدة عما فى غيرها من سكان الأرض ...

وأخلاق العلماء شىء عظيم عميق ، لأنها أخلاق بنيت على العلم بأعماق النفس الإنسانية . وقد قال سقراط « الفضيلة معرفة ، والرذيلة جهل » . والفرق بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد هو مبدأ الفلسفة الألمانية الحديثة التى سنها « نيتشه » الألمان . فكان إدراكهم معنى السيادة ، وحديثهم حولها ، أكبر باعث لهم على نهضتهم الجبارة التى جعلتهم يفهمون فى أنفسهم أنهم فوق مستوى سائر الأجناس .

وأخلاق الإنجليز المبنية على ثقتهم بأنفسهم ، وتفردهم من بين سائر البشر بطبيعة ممتازة وروح ممتازة ، هى التى جعلتهم فوق المستوى الإنسانى الحالى فى الصبر والاحتمال والثبات وسعة الحيلة والوقار والسكينة فى السلم والحرب .

فهم يؤدون لهذا الاعتقاد وتلك الثقة بالنفس مهرها من الفعال الكريمة ، والصبر الجميل ، والدم العزيز ، والمال المبذول ، والمساكن المترفة .

وقديما كانت العرب أمة ضائعة المكانة ، لما كانت مفقودة الاحساس بسمو نفوسها ومواهبها ، مغمورة فيما يحيط بها من الطبيعة ، مُدْمَجة فيها ، عابدة للحقير والجليل منها ، حتى تسمى أفرادها بأسماء الجماد والحيوان السافل والنبات الحقير : فقالوا حجر وصخر وكلب وير بوع وحنظلة ، إلى آخر أسماء ما يحيط بهم ، وطافوا بالأحجار والأشجار عابدين عاكفين فلما أيقظهم موقظهم العظيم لأنفسهم وما فيها من امتياز على سائر ما يحيط بها ، فلا يليق بها أن تلتمس لشىء من هذا المحيط عبادة ، ولا أن تبتغى

إليه زلفى أو وسيلة ، ولا أن تقدم إليه قرباناً من دمائها ودموعها وسائر قُرُباتها ؛ بل يجب أن تبتغى بذلك كله وجهاً أسمى وقدرة أعظم ، لاتدركها الأبصار ولا تستوعبها الأفكار . . . حين هذا بدا السر الخفى فى هذه النفوس الضائعة ، واستعلن كما يستعلن نور الصباح عريضاً فى الآفاق ، ومضى أفرادها إلى فجاج الأرض ، حاملين رسالة ، وموطدين دولة ، ومقيمين حضارة .

وها نحن أولاء نرى « الهندوس » يأتون فى عبادتهم الأبقار والحيّات وكثير من الحيوان ، مخازى وسخافات تلطخ وجه الانسانية بالحياء والخجل والعار . . . كل هذا لأنهم توهموا أن فى البقر والثعابين سراً وروحاً مقدساً يعبد ، فتركوها تعيش وتسرح وتهيم فى الشوارع والبيوت والطرقات ، وهاموا وراءها ، وأكلوا روثها ، وشربوا بولها ، وتقربوا للثعابين ورحبوا بلدغاتها وموتهم بأنيابها ، وتركوا بلادهم تصاب بطواعين الأبقار التى تترك حتى تشيخ وتصير عشاً للجراثيم التى تنتقل منها إلى عابديها وساكنى بلادها . . . والأبقار المسكينة فى ذهول وغفلة عن قُرُبات هذا الانسان الضال وتقديسه إياها . . . فهى تبول عليه وتنطحه ولا تنفعه .

وهكذا كان الانسان فريسة للاوهام وعبادة الأحجار والأبقار والجُعْلان والقطط والحيات وغيرها ، حين لم يكن مؤمناً بنفسه وطيد الثقة بها ، فاهما أن جميع مافى الأرض مخلوق له ومسخر لمنفعته .

ولست أدرى من منا الذى أوغل فى لفائف الصوفية وشرودها أنا أم صديقى زكى ؟

إن صوفيتى مادية تؤمن بالعلم ، وتعترف بدولة الأجسام ، ولا تشرد وراء الأوهام ، فلا تتخيل أن الانسان العظيم الخصيم المبين المفكر المبتكر ، مخلوق ليكون طعاماً للبراغيث والبعوض والقمل . . . وإنما تعلم أن هذه الحشرات مخلوقة لحمل الانسان على تنظيف جسده وثيابه ومسكنه و بيئته من القاذورات والعرق والأتربة والمناقع الراكدة الآسنة ... فلولاها لأصابه الكسل عن كثير من أعمال النظافة والتطهير والتجميل .

وقد كانت هذه الحشرات تعيش فى الأصل على النبات والحيوان ، ثم لصقت بجسم الإنسان وتطورت بلصوقها به . فلا يصح أن يقال إن الإنسان خلق لأجلها .

وصوفيتى لاتخيل إلىّ « أن سر الوجود يستعلن فى الجرثومة الضئيلة كما يستعلن فى الإنسان والقرد والأفعى ! » كلا . . هناك فروق هائلة بين استعلان قدرة الله فى الجرثومة ذات الخلية الواحدة ، ذات الوظيفة الواحدة ، و بين استعلانها فى الإنسان ذى الخلايا التى لاعدد لأنواعها وأشكالها وصورها وأوضاعها ووظائفها منفردةً وموضوعةً فى مجاميع ومنتجةً حياة كليةً . هو كالفرق بين جزىء صغير فى قالب حجر موضوع فى عمارة من ناطحات السحاب ، و بين العمارة نفسها بما فيها من زخرف وزينة ... وفى هذا التشبيه تجاوز كبير وقياس مع الفارق الهائل .

نعم إن الجرثومة شىء ثمين عظيم كأول خطوة فى سبيل الحياة . . . ولكنها لن تبلغ مبلغ الإنسان الذى هو آخر خطوات الحياة وحلقتها النهائية كما تقول نظرية النشوء .

وما أعتقد أن خالقاً عظيما حكيما، يخلق كرة أرضية هائلة، ويجعل فيها رواسى من فوقها، ويجرى فيها بحارها وأنهارها، ويقدر فيها أقواتها ليعيش عليها عالم من البراغيث أو النمال أو الثعابين أو الأبقار أو السباع عيشة أبدية بدون خليفة فائق عليها، يستطيع أن يضع الحَمَل بجوار الذئب والأسد بجوار الغزال، وكل عدو بجوار عدوه، كما هو الحال فى حدائق الحيوان. إن الحياة حينئذ تكون عبثاً وفيضا لايتلقاه أحد يعى ويفكر ويعمل فى الأرض عملاً مجيداً.

وإن الصوفية التى تقول بهذا، ماهى إلا شرود وراء الأوهام وعدم الإدراك لغايات الحياة والتمييز بين آفاقها.

إنها صوفية كصوفية « أبى العلاء المعرى » المريض شاذ الطبيعة الذى يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا !
كلاهما يتَوَقى والحيـــاة له عزيزة ويروم العيش مهتاجا

ولنتصور الناس جميعاً على مذهب أبى العلاء وبعض متصوفة الهند. لايأكلون اللحوم ولا الألبان ولا العسل ولا يستغلون سائر منافع الحيوان، ويتركون البراغيث والقمل والضفادع والعقارب والثعابين وسائر الحشرات والسباع والبهائم حرة طليقة فى الحياة، ما دامت الأرض ميراثاً مشتركا بينها وبينهم، وما دامت جميعها مقصودة بالحياة، وما دام « سر الوجود » قد استعلن فيها استعلانه فى الإنسان ... فماذا تكون النتيجة ؟

هى فناء الإنسان بفناء أقواته التى تأكلها قطعان الأنعام والسباع

وعَراجل الحمير وأسراب الطير والحشرات وغيرها . . . هذا إن عاشت وعمرت دهراً ، وإن تركته ولم تأكله وتدمر حياته . فان فنيت فالأرض خراب . . .

تساءل صديق على لسان إحدى حشراته : مَن ذا كان يستمتع بمنافع الكائنات فى الأرض قبل ظهور الإنسان ؟ .

وأجيبُ : كان يستمتع بعضها ببعض ، ويعيش بعضها على بعض كما هو الحال الآن . . . فالسباع تأكل الأنعام ، والأنعام تأكل النبات ، والحشرات يعيش بعضها على النبات ، و بعضها على الحيوان . . .

ولكن ينبغى أن نعلم مايقوله العلم من أن الحياة الحيوانية على الأرض لم تكن غزيرة ولا كثيرة الأنواع قبل عصر ظهور الإنسان . . . نظراً لقسوة عوامل الطبيعة من الأمطار والثلوج والبراكين والزلازل التى لم تكن تسمح بحياة كائن ضعيف ، فلما استقرت القشرة الأرضية قليلا ، وهدأت عوامل الغليان والتشقق ، وصارت الأرض صالحة للحياة بعض الصلاح ، خلق الله فيها الحيوانات الضخمة الزاحفة ، ثم انقرضت بفعل الزلازل والفيضات واختلافات الطقس . . .

ثم مرت الأرض بأدوار وراء أدوار حتى صلحت لحياة هذه الأنواع التى نراها تعمر الأرض . . . وكان كل هذا تمهيداً لإخراج ذلك النوع الذى صار خليفة الأرض ، وفاتح أغلاقها ومخرج أسرارها . . .

وفترات التمهيد لهذه الحياة الصالحة المعمرة لايصح أن يعترض عليها معترض بأنها ضاعت هباء . . . فإن أيام الله ليست كأيامنا ، تقاس بالسنين

الشمسية والقمرية ، بل هى دهور بالنسبة لنا ، ولكنها لحظات بالنسبة للذى خلق الأزمان ، ويدير الأفلاك دورات هو أعلم بمقدارها . . . والله أعلم متى ينضج الثمار

* * *

زعمت فراشة الأستاذ ، أن علم الإنسان وأخلاقه هما سر تبجحه ودعواه الامتياز ، مع أن علمه يكمل النقص الذى فى غريزته وفطرته ، ومع أن أخلاقه فى مثلها الأعلى الذى تحلم به ، هى دون ما يسود ممالك النمل والنحل من أخلاق ...

وأنا أنكر إنكاراً باتاً أن يكون فى غرائز الإنسان نقص يحتاج إلى تكميل ، وأن يكون العلم هو هذا المكمل ... وإنما أرى أن غرائزه التى تضمن له حياة آلية رتيبة كحياة أنواع الحيوان ، غرائز كاملة يستطيع أن يعيش بها فى مفتتح حياته وتكفيه . . . فإذا نظرنا للعلم على أنه نتيجة لغريزة حب الاستطلاع فهو إذاً أثر من آثار هذه الغريزة ، ولكن لا يقال إنه تكميل لها ، إذ لا نقص فيها ...

العلم نتيجة لهذه الغريزة ، كما أن الولد نتيجة للغريزة الجنسية . وحب الاستطلاع غريزة مشتركة فى جميع أنواع الحيوان ، ولكنها فيما عدا الإنسان محدودة بحياة ضرورات حياة الأنواع ، وفى الإنسان لا حد لها . ولذلك أنتجت للانسان علماً زائداً عما يحتاجه وعما يمكن أن يدركه أى حيوان . وهذه القابلية الطبيعية الدائمة فى هذه الغريزة ، هى التى أنتجت نمو علم الانسان وفكره ونمو الحياة به دائماً ...

والانسان الفطرى المحدود الذكاء ، يكاد يعيش بالغريزة وحدها ، فهو لاينوع ماورثه من الحياة ولا يزيد عليه ، ولا ينقص منه كثيرا ؛ وهو مع هذا يحيا وينمو وسط الأهوال ...

فغرائز الإنسان التى تكفل له حياة كحياة الحيوان غرائز كاملة يحيا بها حياته الضرورية .

أما العلم فيفتح له أبواب حياة خاصة منفصلة عن حياة الطبيعة ...

فالقول بأن علم الإنسان يكمل النقص الذى فى غريزته وفطرته ، قول غير مفهوم ...

وأما أخلاق الانسان الحالية فلم أدافع عنها ، بل نعيت عليها من بعض الوجوه واعترفت بفسادها وقصورها إلا فى قليل من الأمم ، وهى التى أدركت أن للحياة الإنسانية قوانين تشبه قوانين الطبيعة فى صرامة عقابها لمن يخالفها ...

واعتقادى أن الدولة كائن عضوى يسرى عليه مايسرى على أى جسم ذى أعضاء من وحدة المنفعة والضر ... الدولة كالجسم الواحد لا يصح أن يترك فيه شىء فاسد ولو كان ظفراً وإلا فسد كله ... ولا يليق أن يكون فيه عضو مريض وآخر صحيح ، بل يجب أن يصح كله ...

والقلب فى الجسم يقذف الدم إلى كل خلية لتحيا ، وكذلك يجب أن يقذف « قلب الدولة » إلى كل فرد غذاء الجسم والفكر والروح ليحيا الحياة الكاملة .

والفكر فى الجسم الواحد حارس يقظ أمين ، يتلقى الرغبات ويصدر

الأوامر ، وكذلك يجب أن يكون قادة الأمم والمسيطرون عليها ...

فأنا لم أُشِـدْ بأخلاق الأنسان الفردية الحالية ، و إنما أشدت بعلومه وفتوحه فى مجاهل الـكون ، وأريد من وراء هذه الاشادة يقظة النفس الدائرة مع الحديد البليد القاسى فى غير وعى و إحساس ، إلى آثارها وتفردها بين الـكائنات ، حتى تعلم وضعها الصحيح . فتصلح من أخلاقها

والواقع أن أخلاق الإنسان لم تتطور كما تطور علمـه وفكره ، بل لايزال يعيش بمواريث التـاريخ السيئة المغلوطة ، ولم يجد له فى العصر الحديث زعماء انقلاب فى روحياته ، كما وجد زعماء انقلاب فى مادياته ..

فالانقلاب الجسمى والآلى والصناعى فى حياة الإنسان لم يصحبه انقلاب نفسى يجعله يصفى تركات الماضى فى الأخلاق ، و يتحرر من مواريث التاريخ السيئة ، ويقيم حضارة روحية تناسب هذه الحضارة المـادية التى أقامها فى مدى السنوات الخمسين الأخيرة .

ولو آمن الإنسان بالإنسان ، وأدرك مدى الرحلة التى رحلها فى الحياة ، والخطوات التى سارها فى التاريخ ، ومركزه بين الـكائنات كخليفة فى الأرض خلف الله على مقدراتها ، وصنع فيها موجودات فاقت نماذج الحيوان فى الدقة والاحتمال والسرعة والخدمة آلاف الأضعاف ، وعرف أن الله ما كان ليعطيه هذه القدرة العظيمة على الصنع والإنشاء والافتنان إلا وهو به حَفِيٌّ ، وعليه متفضل ، وله مكرم ، وإياه مسدد وموفق ، ولتطوراته مرتقب ومنتظر بلوغه رشده ؛ لو آمن بهذا كله لأسرع إلى إقامة

الحياة على ما أقام الله الطبيعة عليه ، من العدل الموزون ، والرحمة السابغة والتوزيع الكريم .

فإذا لم يذهب الإنسان إلى هذا طائعاً مختاراً كما فعلت أمم الشمال فى أوربا ، فسوف يذهب إليه مكرها بالحديد والنار فى يوم أحسبه قريباً ...

* * *

مِلء يدىّ الاثنتين نصوص من القرآن ، تثبت أن جميع ما فى الأرض خلقه الله للإنسان ، وخوّله إياه ، واستخلفه عليه ، وجعله متاعاً وتذكِرة له ، ولكننى آثرت أن أقدم حججاً من الفكر الطليق ، والنظر الحر ، والعلم العصرى ؛ حتى لا يقول قائل من المنكرين المفتونين : أساطير الأولين ...

مسرح هائل

وممثل واحد !

نظرة واسعة — لمن الحياة ؟ — ممثل مجهول ... — زواج الفكر بالمادة — أعماق الكون — الحياة هى الانسان — الباقيات — أمومة الأخلاق وأبوة العلوم — نوعان من الرجال — المكازنان ...

فى السماء : كل نجم عليه غشاء سَرْمَدِىٌّ من السكون ... ولو ألقيت نظرة على النجوم والكواكب ، لم ترشيئا إلا لمحة عينيك أنت ، واختلاج ضوء يكاد يكون من خداع النظر ...

وفى الأرض : كل شىء يسير فى حركات محدودة وسنن مطردة ، وتكاد لا تسمع إلا أصوات هبَوات الريح ، أو لطمات الموج ، أو أصواتاً تظهر من تلاقى الريح بالأشياء ، أو عبث الأمواج بالأشياء . . . وما عدا ذلك فأصوات حيوان لا تعدو أن تكون مقاطع ونبرات بسيطة محدودة يصح أن تلحقها بعزيف الرياح على شعاب الجبال وقصبات الأشجار ، أو بهدير الأمواج ، ذلك الصوت الواحد المكرر على توالى الأزمان .

ولا ترى إلا تلك الدورات الأبديه من ليل ونهار ، وربيع وخريف وشتاء وصيف ، ورياح وأمطار ، وفيضانات دورية ، وأرحام تدفع وأرض تبلع ، وحياة رَتِيبة للبهائم والوحش والطير والأسماك . . .

تلك هى الحياة فى الأرض من غير الإنسان ... لاتجديد فى أساليبها

ولا تنويع ، الا ما خلق الله على الجلود والريش والأزهار والثمار ، والجُدَد البيض والحمر فى السفوح والجبال . وإلا ماتنقله الرياح والميه فى دوراتها من مكان إلى مكان . وإلا ما توزعه قوى الطبيعة بالمكيال الواقى والوزن الواسع ؛ فلا يضاف للطبيعة شىء لم يكن منها ، ولا يقلقل فيها شىء من موضعه ، ولا ينقح فيها شىء يستحق التنقيح .

إذاً لمن هذا كله ؟ لمن الليل والنهار ، وهذه الآلات الهائلة التى تدار ، والحيوان الآبد والداجن ، والأزهار والثمار ، والأنهار والجبال ، وألوان الشفق فى الأصائل والأسحار ؟ أهو للحمير والقرود والنمور والثعالب والفيلة والآساد والفهود والثعابين والخفافيش والبوم والحشرات والديدان ؟ !

كلا ! ليس فى هؤلاء من يصح أن يفقه شيئاً من ذلك الإبداع والجمال ، ولا أن يسند إليه الدور الأول فى رواية الحياة ... وإنما هن أعاجيب وتهاويل وصور لزينة المسرح ، ودواب لحمل الأدوات والآلات إليه ... أو إن شئت فقل إن هؤلاء «حروف» فى أبجدية «الأسماء» التى يلزم أن تتألف منها رواية الحياة التى يمثلها ممثل آخر ... ممثل لابد أن يكون حراً يذهب فى أى اتجاه على المسرح ، ويجدد فى التمثيل والإخراج كل يوم ، ويقوم بأدوار جميع ماعلى الأرض ، ويتمثل فيه الابتكار الذى يجعل رواية الحياة غير يوم مكرور دائم مملول لدى النظّار من سكان السماء ، وسكان الأرض من الراصدين الواعين .. ويحشر كل شىء فى تمثيل أدواره ، ويضع عقله وقلبه على كل شىء ...

وَمَنْ هذا غير الإنسان ؟ !

لقد وزع الله عقوله وقلوبه على المواد والقوى سافلة وعالية ، فجعل

أفئدة من الناس تهوى خدمة شيء ، وأفئدة أخرى تهوى خدمة شيء آخر ، كى لايتعطل أفق من آفاق الوجود من غير نظر إليه وتفرس فيه ، ولكى يزاوج بين خواطر الفكر وخواص المادة فتنتج الأحكام عليها ، وتتبين حكمته المخبوءة وراء أسرارها ، ولتطّلع العقول على فنه وإحاطة علمه بكل شيء ...

قانون المزاوجة هنا أيضا : فبين فكر الإنسان وبين أسرار المادة زوجية تنتج علماً أو فناً أو إحساساً أو شعوراً ...

فالأرض من غير الإنسان هى ذلك البيت الصامت ، وذلك الدولاب الدائر ، وتلك الدورات الأبدية التى لاغاية لها ، ولا يد تتلقى فيضها وتنتفع بقواها ، ولا اطراد فى ارتقائها ، ولا تغير فى أوضاعها ، ولا زيادة فيها ...

فأين المخرج من تلك الحدود الواقفة الجامدة ؟ وأين الباب إلى ماهو أعظم وأوسع ؟

إن عمق النفس هو الذى يؤكد سعة الدنيا وتنوع المناظر . فإذا خرج المرء من عمق نفسه ، ، خيّل له أن الوجود فى وحدة قوانينه وتشابه دوراته ماهو إلا شيء محدود ...

والانسان أدرك عظمة الله وعظمة الكون لما أدرك عمق نفسه ، وعرف الطريق إلى الكمالات والصور التى لاتتناهى لما عرف باطن نفسه ، وخرج إلى عالمٍ أرحب وأوسع لما أطال النظر فى نفسه .

وما عرفت الإنسانية جلال الله ، ولا تبينت صفاته وتوضحت لها

حكمته ، إلا من عقل الانسان الفائق الذى أطال النظر فى الدنيا ذات الدورات المحدودة المكررة ، وأطال النظر فى النفس ذات الدورات غير المحدودة ، وزواج بين هذه وتلك .

وهذا يُسْلمنا إلى أن نقول : إن الإنسان هو الحياة الأرضية بالمعنى المعقد المركب غير المتناهى ...

ولا حد للحياة إذا التقت الطبيعة بالعقل الإنسانى الذكى الحساس المفكر .

ولا دخل للطبيعة إلا فى تقديم المواد الخامَة إلى يده وفكره ليصنع بهما ذلك التنويع ...

ويخيل إلى أن فى روحه ميراثاً خفياً من نظام لعله نظام « الجنة » وجمالها وراحتها واتساعها . ولعله يحاول بعد طرده منها أن يوجد صوراً فى الأرض ...

وإذا كان كل شىء فى هذا الوجود يرمز إلى معنى بسيط ، فإن النوع الانسانى يرمز إلى جميع أنواع الحياة وألوانها مضروباً بعضها فى بعض ، كما يضرب عدد هائل من الأرقام فى نفسه ، من الواحد إلى آخر العدد إن كان للعدد آخر ...

فالانسان هو « مكان » التقاء عوالم الوجود المشهود كله ، ليحدث من التقاء كل شىء بكل شىء منفردين نتائج وصور بسيطة ، ومن التقاء جميع الأشياء بعضها ببعض ، نتائج وصورة معقدة ، لا يمكن تقريبها إلا للعقول الكبيرة التى لاتكاد تدركها إلا بالوهم ، أو بالذهن

الرياضى صيّاد الأخيلة والأحلام والفروض . .

* * *

وعَمَارُ عالم الفكر بتلك المعانى الناتجة عنه هو ، وتنوعُها إلى ما لا نهاية له ، أمره مُعْجِب ! وخصوصاً إذا تصورنا أنها معان محدودة بحدود الرءوس البشرية ، معدومة فى غيرها ، إلا إذا خرجت وتجسدت وتشكلت فى قميص مادى .

تُرَى ، هل هى ذات وزن وحياة عندالله الكبير ذى العقل المحيط والعلم الواسع ؟ وهل هى على تناقضها واختلاف الانفعالات المتصلة بها ذاتُ قِيَم عنده ؟ أم هى مَلاهٍ وسلْوَيات لذلك النوع المدلّل فى الأرض ، تموت معه وليس لها فى سجل الوجود أثر بعده ؟

إن تصور فناء عالم الأفكار العظيمة الرائعة التى تتداوَل عقول الانسانية ، كاف وحده أن يقذِف فى قلوبنا الايمان بوجود عالم ثان وعقل آخر يحصى ذلك الحصيد ، ويجنى ذلك القِطاف العجيب الناتج من ازدواج الحياة المادية والروحية فى الانسان .

* * *

أُسْرَتان اثنتان من أفكار الانسان هما الباقيتان ، فيما أرى ، على وجه الزمان فى سجل الأرض :

أسرة الأفكار الخلُقية ، وأسرة الأفكار العلمية التجريبية .

والأسرة الأولى هى التى سددته إلى غايته ، وهيأته للخلافة فى الأرض وتحدّرت فى أعصابه ، وأيقظته إلى سموه ، وجعلته ذا قيمة لدى نفسه . .

وإلى تلك الأسرة ينتمى الدين ، ومنها انفتحت أبواب السماء للانسان ونزل إليه وحيها .

والأسرة الثانية هى التى مهدت له طريق الحياة المادية ، وسلطته على الطبيعة يرتفق منها مرافق حياته ما وسعته الطاقة ، وهى التى أنمت ثقته بنفسه ، وأظهرت آثار وجوده ، وجعلته متصرفاً فى المادة بما لاطاقة لغيره من الأنواع به .

والأسرة الأولى كانت الأساس فى بناء الحياة المدنية ، وإتاحة الفرصة للفرد أن يفكر ويعمل لخدمة المجموع فى حماية القوانين والمعاهدات ، وكانت الأساس فى توجيه روح الفرد إلى المثل العليا ، وبناء مكارم الانسانية .

وقد استصبحت الإنسانية بأنوار الأنبياء بُناة الأخلاق ، قبل أن تستصبح بأنوار «العلماء» بمئات القرون . . وكانت الأخلاق للحياة بمكان الأمومة الرحيمة ، تنمو فى رعايتها الطفولة وتشب وترشد ، وكانت العلوم بمكان الأبوة الساعية الجاهدة .

فالأرض مدينة لنوعين من الرجال : الباحثين فى أطواء الروح الإنسانية ، المستخرجين منها وسائل طمأنينتها ، السباقين إلى إدراك سموها وتفردها ، الواضعين لها أسس قيمها الذاتية ، الرائدين بأبصارهم وبصائرهم كل أفق فى الأرض والسماء ، المستنزلين لها أسرار السماء بالإخلاص والبكاء . . . وهم لاشك الأنبياء والأصفياء الذين لم يقفوا عند حدود

الكثافات والسدود والقيود المادية ، بل أرحَبُوا وأفضَوْا فأتوا بالخير والتفاؤل والاطمئنان .

والنوع الثانى هو نوع العلماء المخترعين الذين يزيدون فى وسائل راحة الأجسام ، ويخففون المشقات والآلام ، وينمون قوة الخلق والتقليد فى يد الإنسان ، ويزيدون صور الحياة بالتنويع والترصيع والتوشيع والافتنان .

ولئن كان النوع الثانى هو صاحب الدولة على عقول الناس الآن ، لكثرة مافتح عليهم من بركات الأرض ، فينبغى ألا ينسى المفكرون أن النوع الأول هو مقيم أساس الحياة الإنسانية ، والآخذ بيد البشرية حتى بلغت دور الرشد . وهو الأكبر خدمة ، والأبعد أثراً ، إذ هو الذى بعث فى النفوس طمأنينتها على قيمتها ، وأيقظها لذاتها ، وأرشدها لمدّخرات روحها وعقلها ، وهو الذى أوجب عليها الملاءمة بين ماتصنع وما تنتظر .

وستستحيل كل بركات العلم إلى آفات ونقم وشرور ، إذا لم تتذكر الإنسانية جهاد آبائها الأنبياء القدماء وتقِم حياتها الجديدة على أسس ما أفنوا أعمارهم فى وضعه وتوسيده ، وما قُتلوا وصُلبوا فى سبيل إعلائه وتشييده .

* * *

غير هاتين الأسرتين السالفتين من الأفكار فهو زَبَدٌ يذهب جُفاء

هو باطل لاحقيقة له ثابتة دائمة . هو صور عابرة لتسلية النوع فى جهاده وتخفيف إعنائه .

ويخيل إلى حتى درجة الظن ... أن فكر الإنسان لايجدى عليه شيئاً إلا حين يتجه إلى فتح جديد فى عالم أخلاقه ، أو فى عالم المادة للانتفاع بها وكشف خصائصها ، ولقط أسرارها واستخدامها ، وأنه ماوضع فى الحياة موضعاً أصيلا إلا فى هذين الموضعين . . .

فمعرفته بأخلاقه تقيم حياته على الصراط السوىّ الذى ليس فيه عقبات وصدود من فعل الغرائز والشهوات وعقابيل الطفولة ، وتفرّغه للعمل المثمر الدائم فى المادة .

ومعرفته بأسرار الطبيعة تفتح له أبواب العمل فيها ، وتنتج له بركات من السماء والأرض ، وترقيه وتفرّغه للعبادة بالفكر والعمل .

أما فترات التفلسف النظرى والهيام وراء البَدَوات والفروض ، فتلك لامحصول وراءها ، أو هناك محصول ضئيل .

* * *

هاتان عَصَوانِ لايستطيع الإنسان أن يمشى بدونهما خطوة واحدة ، وإنما يدور على نفسه كما كان فى العصور الأولى ، ولو كان فى القرن العشرين .

ولا يمشى بإحداهما ويترك الأخرى إلا أصيب بالعَرَج والتعثر .

فأمم الروح بدون علم وعمل فى المادة ، أمم بائدة مستضعفة معطلة القوى ، محدودة الحياة ، مسلوبة الحقوق .

وأم العلم بدون الروح ، سباع ضارية ، يأكل بعضها بعضاً ويأكل غيرها ، ويتجه كل علمها وفنها إلى خدمة الشر والإثم ، وتستحيل بركات العلم فيها إلى نقم ، كما يتجه كل العلم والهندسة فى الشوكة إلى قمتها الحادة وكما يستحيل الدسم فى الطعام إلى سم إذا ذهب صلاحه واختلت أخلاطه .

* * *

فمبعث ثقة الانسان بنفسه ونوعه هما العلم والخلق معاً . فالأول يريه أن فكره ، موضع تجلى أسرار الله فى التكوين ، وان الله يُبيحُه به كثيرا من أسرار ملكه ، لأنه مفتاحه ، ولأنه يعطيه من القدرة ما به يكوّن ويخرب ويشعر أنه صاحب سلطان .

والثانى يريه أن قلبه موضع إلقاء أسرار رحمة الله وعدله ورأفته وجماله وطهره ، وموضع إلقاء كثير من الأذواق الموجود من المعانى والصور . والأذواق هى الحياة فى الواقع ، فالصور الفكرية المادية بدون أذواق ، أجسام ميتة . الذوق هو الذى يحييها ويحددها ويدخل معنى الحياة الى القلوب بها .

وقد نرى الشىء يوما حسناً ويوما قبيحا ، بينما هو هو لم يتغير ، وإنما تغير ذوقنا له . والواقع أن قلب الانسان هو مكيّف مشاهد الأرض بالنسبة لنا ، ولولاه لذهب الجمال والفن .

الانتظـار !

الطبيعة تنتظر — عالم جـديد من الفكر والحديد — حيوانات ووحوش حديثة — قدرة الفكر — الثقة بالإنسان — كنوز مدخرة — حياة عريضة

كل شيء فى الطبيعة يبدو عليه انتظار غاية الحياة الإنسانية ، ويبدو على الإنسان كذلك انتظار غاية مجهولة فى حياته على الأرض . . .

كل شيء ينتظر بلوغ الإنسان إلى غايته ، كما ينتظر كبار البيت بلوغ طفل عزيز . . .

وكل شيء فى البيت مسخر للطفل : تعرض أمامه أشياء البيت وحيوانه ودواجنه ولُعبه . . .

وهكذا أرى الطبيعة تنتظر صابرة غير متململة أن يسير هـذا الطفل ويهتدى إلى الطريق المقصودة المرصودة . . . وهو لا يزال يتعثر ويذهب ذات اليمين وذات الشمال ، ويرتد وينتكس ، ويعترك ويحترب ، ويُخلد إلى تراب الطريق يعبث فيه فى ذهول وغفلة ، لا يعرف كيف يمد بصره إلى حدود الأفق البعيد الذى يناديه : انظر إلىّ دائماً ، واضرب بيديك ورجليك فى العقبات والسدود حتى تصل .

وكان لعبثه وتَلَبُّثه عذر فيما مضى ، أيام كان يدور على نفسه وسط المبهمات والألغاز ، وأيام كانت طريق حياته ملتوية مُعْتِمة ، تَلفُّها جهالات ،

وتحيط بها أهوال . . . كل ما فيها غامض مغلق ، سواء أكان جامداً أم حياً ، صائتاً أم ناطقاً أم ساكتاً . . . فهو لا يرحم سائلاً ولا يجيبه ...

كهوف وأغوار ، ورياح مجهولة المَهابّ ، وأمطار غير مدفوعة بتدبير ، وصرخات وحش وطير وبهائم ، ونجوم تطلُع وتغُور ، وشمس تشرق وتغرب ، وجبال واقفة لا تَرِيمُ ولا تزول ، وما لا عدد له من الأهوال والأحوال ...

ولكنه الآن راكب الريح والماء والأثير ، وطَاوِى الأرض فى خطفات ، ورائد السماء بالمقرِّبات ، وكاشف الجن المستور بالمكبِّرات ، وقايسُ أبعاد النجوم وأضوائها بدقيق المقايَسات ، وصانع « الحيوان » و« الوحوش » الحديدية من السيارات والدبابات والمدافع والطائرات والماخِرات والغائصات ؛ فلا يليق به أن يصر على العبث والزحام على التراب بعد أن رأى الكنوز فى كل أفق تتفتح لعينيه . . .

وكان قَدَراً مقدوراً أن تبقى العناصر والحيوانات خادمة له حتى يبلغ أن يستغنى عنها بما يصنعه تقليداً لها ومحاكاة لنماذجها . . .

فحين عجز الحصان وضاقت طاقته عن إشباع شهوة السرعة عنده ، ركّب آلات سرعتُها كذا ألفاً من الأحصنة . . .

وحين عجز الزيت والشمع عن إشباع شهوته للضوء صنع مصباح الكهرباء فأضاء له بقوة كذا ألفاً من الشموع . . . « وحين هُدِّد بفناء أقواته ولباسه ابتدأ يركّب أقواته من العناصر التى يتركب منها النبات واللحم ... وصار يصنع الصوف والحرير من اللبن والخشب ... وصار يأخذ الزبد والدهن من الـ ... بعد أن يحلل ويعزل ويطهر بالترشيح والتبخير

والتكثيف ، كما ترفع الشمس والهواء الغازات والأمواه المقطرة من الأبوال والأقذار ، وتعيدها إلى الأرض صالحة فى دوراتها الأبدية . . .

وقد رصد لكل قوة فى الطبيعة مقياساً يقيس قوتها ، ويبين اتجاهها ، حتى يحترس منها ويتقى وينتفع ... فللأمطار مقياس ، وللضغط الجوى مقياس ، ولاتجاه الرياح مقياس ، وللزمان مقياس ، وللمكان مقياس ، وللحرارة والرطوبة وغيرهما مقاييس .

وأظنه بهذا ، قد وضع عينه وفكره على حركة كل شىء واتجاه كل شىء فى الطبيعة . وذلك كله بمثابة خيوط الشبكة الحديدية التى ابتدأ يطرحها على قوى الطبيعة التى تنفعه أو تضره فى مرافق حياته ... وهذه الأرصاد التى رصدها لابد ستنتج له عالماً فكرياً جديداً يجب أن يسلم روحه إلى عالم روحى جديد .

* * *

أجل ، إنه عالم جديد من الفكر والحديد . . ! الفكر المُطْلَق البارد القانص لأسرار المادة والقوة ... والحديد الطائع البليد القاسى المتمم لإرادات الرجال ... الذى وجد فيه القلب الإنسانى أعظم معبِّر عن بأسه وتصميمه فى اختراق السدود ، فصهره وشكّله بنار عزمه ، قبل أن يصهره بنار كِيرِه ، ويشكله بمطرقته .

ولقد ضمرت أظفار الإنسان منذ أن اعتمد عليه . وكان كشفه مبدأ انقلاب فى حياته ، والآن يبتدئ به انقلاباً أعظم ، بعد أن سلط عليه خيالَه وعلمه ، وصار يطير به ويزحف ويدفع ويجر .

وهل تظنون أن هذه الأهوال التى يشهدها الإنسان الآن لا تترك فى نفسيته آثارها المحتومة فتخلقه خلقاً آخر ؟

أتظنون أن قلبه وفكره لا تغيرهما رؤية هذه الطرق الحديثة فى البناء والإفناء والهدم والسرعة والانقضاض والحشد والتعبئة ومعاشرة هذه الوحوش والحيوانات الحديدية ؟

إن من شهد تغير العالم بعد الحرب العظمى التى أظهرت قوة الآلة واختفى وراءها الإنسان ، يوقن أنه ستختفى بعد هذه الحرب أشياء وتظهر أخرى ...

وأتوقع ألا يقام للفردية والأنانية الشخصية والقومية بعد هذه المرحلة وزن ، بعد أن رأى الفكر أن ملايين من الجماجم والقلوب البشرية تُسحَق وتحرق بمصهور النار ، وملايين من المعابد والمعاهد والمنازل المقدسة العامرة بالتحف ومخلفات العلم والفن والجمال ، تنسف وتُذرَى فى الريح هشيما وهباء ودخاناً . . .

لقد احترق الإنسان الأوربى مع جميع ما جمعه من الذهب وأقامه من البيوت والمحاريب والتماثيل . . .

ولقد اختفت ملابسات روح الحياة الرفيقة الهادئة الضعيفة الماثلة فى اللحم والدم والأعصاب والإحساس ، وابتدأ عالم جديد من فكر مجرد يكاد يكون غير مصحوب بإحساس . . .

وقد لبس الفكر أجساماً من المادة العمياء ، وكأنه قد انفصل عن الأجسام الإنسانية ، واختبأ واستترّ فى السيارة المصفحة والدبابة والطائرة .

وصار يدبُّ ويطير بهذه الأجسام الحديدية كأنه هو والحديد الذى يختفى فيه جسم واحد . فهو للآلة كالروح والعقل فى الجسم الحى . وقد صنع للآلات أحشاء فيها حرارة ونبض ، ولكن ينقصها السر الإلهى الذى فى « الأميبة » ذات الخلية الواحدة ، ويخيل إلى أن الإنسان هو ذلك السر الإلهى لتلك « الحيوانات » الحديدية !

وحين قصرت دواب الأرض التى سخرها فى خدمته عن سرعة عقله ، صار يبحث عن القوى المجردة كالكهرباء ويُلبسها أجساماً من الجماد ، ويسيرها بها بطاقةٍ عظيمة مصحوبة بفكره وتسديده . فهى أطوع للانسان من الحصان ، لأنها ترى بعينه وتتحرك بسرعة فكره .

وآخر خطواته فى هذا الطريق الآن هو استخدامه اللاسلكى فى إدارة الآلات والسيطرة عليها ورصدها وملابستها بفكره من بُعد . . ولاندرى ما يأتى به الغد من أعاجيبه فى هذا السبيل .

* * *

والفكر المجرد طليق فى غير حدود . والوجدان والاحساس مقيدان فى حدود الأذواق والمشاعر . فإذا لم يصحب الفكر بالوجدان والاحساس اخترق الإنسان به الآفاق فى سرعة فائقة كأنه شعاع ثاقب ، بل هو أسرع من الشعاع . بل ليس شىء أسرع من الفكر

ولقد يخيل لفكر الانسان أنه يستطيع أن يضع يده فى النار فلا تحترق ويمشى برجليه على الماء فلا يغرق ، ويسلم جسمه للريح فيطير ، وينظر بعينه وراء السدود فيرى الآفاق . فالفكر لايرى كل أولئك مستحيلا . .

ولـكن الوجدان والاحساس يقيدانه بالحدود الموضوعة للمادة ، و يهددان الجسم بالألم إذا لم يعترف بهذه الحدود والقوانين .

وقد خيل الفـكر لبعض « السفسطائيين » اليونانيين القدماء ، أن كثافة الأجسام وهمٌ من الأوهام ، وأقام الدليل النظرى لمعارضيه على ذلك ، فتحدَّوه أن يخترق بجسمه الجدار الذى أمامه ، فقام واندفع اليه بقوة ، وكانت النتيجة المحتومة : تحطم جسده وفَدْخ رأسه .

إن فـكر السفسطائى لم يخطىء فى توهمه استطاعة اختراق الجدار ، ولـكنه أخطأ حساب الوجدان والاحساس . والحقيقة أن الفـكر لاحدود له مادام يسير وراء القوانين الطبيعية .. فلقد استطاع أن يخترق الجدران والجبال بالصوت والصورة والحركة حين خضع للنواميس الطبيعية فخضعت هى له كذلك . ولست أدرى أقريب أم بعيد ذلك اليوم الذى يستطيع الانسان فيه أن يخترق الاجسام بالاجسام ، مع وجود الالتئام وعدم الصِّدام ، وأن ينقل الأجسام من مكان إلى مكان كما ينقل الصور والحركات والاصوات ، و بالسرعة ذاتها التى يجرى بها هذه المدهشات ؟ !

إن الثقة بالعقل الانسانى بعد أن فعل مافعل فى تغيير الأرض ينبغى أن تـكون من البدائه ، للانتفاع بها فى بناء الحياة الجديدة .

وكما آمنا بعلم الطب لتنظيم حياة الأجسام ، ينبغى أن نؤمن بعلم النفس لتنظيم حياة الأرواح .

وقد كان الانسان فى الحقب السابقة منزوع الثقة بنفسه ، لـكثرة ضغط عوامل الطبيعة عليه ، وكثرة العقبات التى تعترض سبله وتجعله

يشعر بحقارته وضعفه وسط عظمة الأسباب والقوى الطبيعية .

ولكنه بعد أن تمكن من صنع أغلب الاشياء لنفسه ، والانتفاع بأكثر القوى ، والمناعة ضد الأوباء والطوفان والقحط والصواعق ، يجب أن يكون إيمانه بعقله إيماناً أصيلا ليصنع به مستقبله صنعاً يريحه ويرقيه ويجعله يتفرغ للفكر فيمن خلقه قادراً هكذا . . !

إن الانسان يأتى بأعمال عظيمة فى صميم غايات الحياة وهو عنها غافل لا يدرك ماذا تكون نتائجها فى مستقبله ومركزه .

وإن مصانع « الولايات المتحدة الأمريكية » وحدها مثلا تخرج فى كل دقيقة سيارة كاملة ! هذا جبروت وملكوت إنسانى واسع يتفتح أمام عيون الراصدين لحركات الإنسان .

فهذه السيارات « حيوانات » حديدية ، تولد كاملة من «أصلاب» المصانع و « أرحامها» ! ولا تحبو ولا تدرج ببطء الطفولة الحيوانية ، وإنما تسير بسرعة الفكر الإنسانى كما قدمنا فى هذا المقال .

وهى وأشباهها مما نتج من اللقاح بين الفكر والحديد ، قد ملأت الأرض وأدالت دولة الخيل والبغال والإبل ، وصيرتها أشياء أثرية يوشك الناس أن يحتفظوا بها فى المتاحف أو حدائق الحيوان .

* * *

فى كل ذرة رمل ، وقطرة ماء ، ولمعة شعاع ، وخفقة نسيم ، كنز مدخر لمستقبل الانسان على الأرض .

فليعرف ذلك الذين يشكُون الفقر وشح الموارد الطبيعية . أولئك

الذين يثيرون الحروب من أجل الطمع والاغتصاب « أن تكون أمة هى أزبَى من أمة » .

وليسلموا قياد الإنسانية لعلماء الطبيعة الذين يضربون معاولهم على كل منجم فى الأرض والماء والهواء والشعاع .

ولنأخذ الحياة عريضة ، بالانتفاع بكل ما فى الارض ، وباستعمال جميع قوى الإنسان والجماد والحيوان ، وباستخراج كل كامن من النبات والركاز ، وباستنزال كل معلق من الشعاع والماء والهواء ، وبتوليد كل ما يمكن أن يولد من العناصر والقوى ، وبوضع كل شىء أمام كل شىء لينشأ من الأوضاع المختلفة التى لا عدد لها ، حيوات جديدة معقدة لاعدد لها ، يترقى بها الفكر والحياة ويغزُر فيضهما ، وترحُب بها آفاق النفس ، ويظهر لنا بعدها أن الكون ملىء بالأسرار وكلمات الله التى لا تنفد !

منابع الفكر ومَصابُه !

انتقال أسرار الطبيعة إلى الفكر — من أمارات جبروت الفكر — من عجائب حيرته — خليفة القهار — إدراك المادة ثم النفس ثم الله — لا عمق فى العالم المادى — للفكر مجال مؤقت ومجال منتظر — باب مفتوح وباب مغلق — مضى عهد مضغ الكلام — لاسدود أمام الانسان — الطبيعة هى الحكم فيما يمكن ومايستحيل — تربية تعلم غزو الطبيعة — الطبيعة المطيعة — عصر الاحساس بقدرة الفكر — أسئلة يجب ترديدها دائما

يرى الفكر البشرى نفسه وحيدا كملاح تائه وسط هذا الكون الفسيح ، وليس له إلا دليله الخاص الذى أخذه من نواميس متحدة فى النفس وخارج النفس .

وقد ألقت الطبيعة أكثر صورها إلى فكر الإنسان ، وانتقل إلى ذهنه جانب كبير من أسرارها وقوانينها ، فصار يقلدها ويصنع فى موادها ما يشاء من ألوان التجسيم والتشكيل والتحريك ، ويسلط بعضها على بعض ، وصار له مقام معلوم ملحوظ بين عوامل التكوين والتخريب فيها .

وقد وصلت يده إلى منابعها وموادها الأولية : فهو يبحث الآن فى الذرّة والكهرب ، ليعرف المبادىء الأولى للمادة والقوة ، والدفعة الأولى التى ابتعثتهما ودفعتهما ...

ومن أمارات جبروت الفكر البشرى أن يحاول فى كثير من

الأحيان أن يتدخل فى تخطيط الكون ، ويرسم له صوراً مبتدعة ، ويقترح له وجوها أخرى غير ماهو عليه !

بل هو يحاول أن يفرض نفسه غريبا عن الكون ويدخله كمتفرج من عالم آخر ، فيحكم عليه ويصفه ويعجب به ، وكأنه موفد من عالم آخر وكأن له كيانا يستمد من منبع غير طينة الكون المادى .

بل هو يحاول أن يحكم على الله العلى الكبير بمقتضى إدراكه هو ! وكأنه يفرض أن علمه بقوانين الرياضة والميكانيكا والجمال والتكوين ، سابق على الكون ذاته !

إن هذا يدل على أن الفكر البشرى عميق المآخذ والمصادر .

ومردُّ جميع هذا ومنشؤه ، أن فيه سرا من روح الله الكامل القادر العالم الجبار .

ومن عجائب حيرة الفكر البشرى ، كشفه عن حيرته ذاتها فى تعرف القانون المادى العام الذى يسير الكون ، وتردده بين الأخذ بقانون « السببية » الصارم ، وبين مذهب « الاحتمالات » الذى يقول به بعض علماء الطبيعة فى العصر الحديث . وهذا يكشف عن أن وضع الفكر فى الكون هو وضع المتفرج الحائر الذى يدس يده فى مصانع الله التى يصنع بها الطبيعة وظواهر الوجود ، فيدهش .

ولعل فى ذبذبة الفكر بين الأخذ بالوجهين حملا للفكر نفسه على ألا يغتر ويضل فيجعل الخالق نفسه خاضعا لقوانين الطبيعة فتتحكم فيه كما تتحكم فى غيره ؛ أى أنه يجب أن يعلم من خلال حيرته بين القولين ، أن

بارىء الكون قد يجوز أن يسيّره بقوانين متناقضة ليبرهن على أنه تعالى غير خاضع لأحدها . فهو يخلق بالقانون ونقيضه فى الوقت ذاته .

وإن وضع الفكر فى الكون هذا الوضع الحر الحاكم المتردد فى أحكامه ، المدرك لوجوه الصنعة المختلفة المتناقضة الأسباب والتعليلات ، لدليل على أنه من روح الله الذى لا يخضع للكون المادى وقوانينه ، لأنه هو خالقه وخالقها . فالفكر كذلك قد جعله الله على شاكلة مصغرة من روحه تعالى ، أى أنه يعلو فوق مستوى وجوه التناقض الذى قد يبدو لبعض العقول ، وينتفع بها جميعا .

هذا على فرض أن مذهب الاحتمالات صحيح وأنه ليس [مودة] يقول بها بعض علماء الطبيعة .

وفى رأيى أن قانون السببية هو القانون الذى يغمر الكون كله فى أعماقه وظواهره ، ويتفق مع منطق الحياة على الأرض ومنطق الانسان العام ، ويحفظ على الفكر البشرى يقينه وألفته فى أحكامه ، وتنتفع به الإرادة البشرية والجهد الانسانى ، بخلاف مذهب الاحتمالات الذى لا يورث إلا الشك والحيرة والذبذبة وعدم اليقين بسبب ما .

ويخيل إلى أن مذهب الاحتمالات إنما أوحى به إلى بعض العلماء أنهم رأوا يد الله طليقة فى الطبيعة غير مقيدة ، فهى تنتج الشىء من سببه المعروف ، وقد تنتجه من نقيض ذلك السبب فى بعض حالات الشذوذ التى تشير إلى القاعدة العامة للفت الأنظار إليها والتنبيه عليها .

مذهب « الاحتمالات » هو نظرة البارىء إلى الكون المادى الذى

يبدو متحجراً لدى كثير من العقول التى لم تعرف ما عند الله من القدرة . وأما نظرة الإنسان المحدود العاجز فينبغى ألا تتخذ الاحتمالات محوراً لتفكيرها فتضيع فى عباب الفروض .

* * *

إن الله قاهر فوق الطبيعة ؛ وهو يدرب «خليفته» فى الأرض على التغلب على العقبات التى تعترض طريق أحلامه الطليقة وأفكاره المحررة من قيود المواد الثقيلة . والله أنشأه فى الضرورات والآلام ليفتق الحيلة للخلاص منها . وإذا اطرد السير على منهاج تاريخه الذى عرفناه ، فسوف يتغلب على أكثر العقبات .

إن فكر الإنسان يتدرج غير واقف عند نهاية ؛ ونموه فى ذاته يجعل الطبيعة نامية به . وأرجو أن يفهم هذا القول فهماً عميقاً ، لأننا إذا فهمناه هذا الفهم أدركنا موضعه ورسالته فى الوجود . وأحللناه محلا رفيعاً يدفعه إلى العمل والسير فى منهج واضح ، وحملنا ذلك على أن نحوطه دائما بقوانين تحفظه من الارتداد والضلال ، ونتدرج به حتى نستوعب كل مباحث المواد والقوى ، ونستخرج به أسرارها الكامنة ، وننتقل به نقلة تسلمنا إلى الوقوف على عتبات عالم آخر ، لعله أن يكون عالم الروح ...

ويبدو أن إدراك عالم الروح لا يتأتى إلا بعد إدراكنا ما فى الكون المادى إدراكا كاملا ؛ وهذا هو سر قلقنا ونبشنا فى الطبيعة وعدم إخلادنا إلى ركن واحد منها ؛ فنحن كلما أخذنا من الطبيعة سراً ، أحسسنا أننا

نقترب به إلى إدراك روحنا الجزئيـة ، لندرك من وراء ذلك علماً من الروح الأكبر !

أجل . إن إدراك الـكون المادى كان لابد منه لإدراك الروح ؛ إذ أن الفـكر صار يرى كل عمق فى الحياة المـادية ضحلاً بعد ترديد النظر عليه واستيعابه بالإدراك . وطبيعى أن تشعر النفس بعد هذا الاستيعاب أنها أوسع وأعمق من الموجودات المادية ، وأن ترى آفاق الحياة المادية عددية لا أكثر ، وليس لها عمق ولا نهائية ؛ فهى فى موجودات الطبيعة ومستحدَثات الإنسان لاتتعدى اختلاف النسب التركيبية بين العناصر التى تزيد قليلا على التسعين .

وما يخيل إلى البعض من أن هناك أعماقا وأغواراً لاتنتهى فى المادة ، إنما هو صورة مما يحدث للناظر إلى لوحة فنية بارعة ذات صنعة مُوحية مثيرة للشعور باللانهائية ؛ حتى إذا ما كشط سطحها قليلا ، تذكر أنها ليست أكثر من تمويه وتخييل وبراعة فى بسط الأصباغ والأضـواء والظلال وقبضها ، وتتكشَّف له السطح الزاخر باللانهائية عن باطن محدود لايتعدى ألوان الطَّيف السبعة !

إن الإنسان لم يعـد يؤلِّه الماء والنار والهواء والتراب ، ويفرغ عليها أوهام القداسة والهول اللذين كانا لها فى ذهنه قديماً ، بعد أن حلل عناصرها وركَّبها وتسلط عليها وسبر أغوارها . ولم تعد النفس العالمة التى تشرف على لجة البحر أو لجة الهواء ، أو أغوار التراب ، أو جحمة النار ، ترى فيها أكثر من مواد وقوى عمياء محكومة بقوانين أخذتهـا النفس

فى حوزتها ، وجعلتها من مدّخرات فكرها ، وتستطيع أن تولد بها ناراً وهواء وماء ...

إنى أشعر حينما أقلب بصرى فى آفاق السماء وآفاق الأرض ، أن فكرى لا يسترسل فى التعمق فيها إلى مالا نهاية ، بل يقف عند نهايات معينة هى العناصر المحدودة التى تألفت منها مادة السماء والأرض ، والنسب الهندسية والحسابية التى قام عليها بناء الأجسام وتشكيلها ؛ ثم يبدأ الإحساس بعَماء لا صور فيه ولا خواطر عنه .

وطبيعى أن نظرتى هذه لا يكون وراءها إحساس بخشية من الطبيعة ذاتها كما كان الأمر عند سكان الأرض القدماء الجاهليين ، لأن عناصرها حللت ، وأسرارها عرفت ، وصورها طبعت فى النفس ، ولكن يكون وراء هذه النظرة إحساس بخشية ورهبة من ذلك العالِم القادر الذى خلقها هائلة هكذا ، وجعلها بهذه النُّسب الرياضية والهندسية والقوى الدائبة الجبارة .

* * *

إذاً ماهو المجال الحيوى غير المحدود لهذا الفكر الإنسانى الذى يرى عمق الكون المادى ضَحْلاً بعد ترديد النظر عليه ومعرفة أسرار تركيبه وقوانينه الهندسية والرياضية ؟

إنه لابد عالم لانهائى لاتدركه الأبصار والمناظير ، ولا تحلله المخابير ، ولا تسْبُر آفاقه المسابير والمعايير ، ولا تدركه علوم الزمان والمكان !

وطبيعى أن هذا المجال الحيوى بهذا الوصف ، لا يمكن أن يكون للفكر الإنسانى قدرة على إدراكه هنا فى هذه الدار التى نعيش فيها

بالحواس وقيود المواد الثقيلة الكثيفة ، والفكر المحدود .

ولهذا يجب أن ينصرف الفكر الإنسانى عن محاولة اقتحام هذه السُّبُحات ، ويتوجه إلى المجال المحدود المؤقت الذى وضعنا فيه لندركه هو أولاً ، ونفرغ من استيعاب أسراره وظواهره .

وإن من يريد التعمق الآن فى إدراك ماوراء الطبيعة ، ولا يقنع منه باللمحات والخطفات ، فلن يظفر بمحصول غير الشرود والخبال .

وقد برهن تاريخ الإنسان على ذلك . فالأمم التى لاتزال تطلب فى هذا العصر علم اليقين بالنفس وبالله ، قبل إدراك قوانين العلم الطبيعى ، والتى لاتزال تطلب الله على طريق الشعر والوجدان وحده « كالهندوس » ولا تطلبه عن طريق البحث فى أرضه وهوائه ومائه ، والتطلع العلمى إلى سمائه ، ولا تَقَصُّ آثار يده فى صنع نماذج الطبيعة ، لتعرف مقدار ماعنده من العلم والإحاطة بالجزئيات والكليات ، ولا تلخص أسرار صنعته وتختزلها فى قوانين ومعادلات حسابية وجبرية ، ولا تحاكى نماذج الطبيعة ، إنما هى أمم بدائية ضالة طريق تحقيق الأوْطار والأشواق إليه ، جلّ مَجْدُه ! قليلة العلم بما عنده من أفانين تتجدد ولا تنفَد ، تعرفه عن طريق العواطف والرموز ، لاعن طريق الفكر والوضوح .

إن الإرادة العليا مصرّة على إغلاق ماوراء الطبيعة الآن أمام فكر الإنسان ، ولعلها تفتحه بعد أن يفرغ من إدراك كل مافى الطبيعة أولاً .

أما الطبيعة ذاتها ، فقد دل تاريخ العلوم على أن أبوابها تفتح لمن تركوا

اتخاذ الكلام غاية وحيدة للحياة ، وعكفوا على محاريبها وأطفالها وموجوداتها ، يقلبون النظر والفكر واليد فيها ، ثم يتكلمون بعد ذلك .

إن الكلام وسيلة لا غاية . هو قوالب لاختزان المعانى التى تنشأ من المزاوجة بين خواطر الفكر وخواص المادة . هو أوعية الحقائق المرفوعة من الأجسام إلى عالم التعبير والصور والأرقام . فلا يصح أن يمتلىء بتكاذيب الأمانىّ وتخييلات الأحلام ، إلا أن تكون تمهيداً من عالم الخيال والمثال لعالم الواقع . وكثيراً ماهدت سوانح الشعر إلى حقائق العلم .

* * *

فلا يضمنّ أحد السدود النظرية أمام عمل الإنسان فى الطبيعة مادامت هى تلبّيه وتتفتح له وتنتج . ولا يجوز حمله على السكون والركون إلى مواريث الأفكار القديمة التى تجعل الطبيعة أمام الإنسان حرماً مقدساً ، يجب التهيّب من الشروع فى تغيير شىء فيه ، أو تنقيحه بالزيادة أو النقصان .

فهى وحدها الحكَم الذى تُرضى حكومته فيما يمكن وما يستحيل . فما دامت تفتح له الأبواب وتهتك الأستار ، فليدخل وليتوغل ، وهو موقن بأن هذا من عمله الذى خلق من أجله ... وليس إبقاء الطبيعة كما هى بدون تغيير عبادةً ، كما كان الزعم القديم ، ولكن صار تغيير الطبيعة إلى الأصلح هو العبادة . . .

والتربية الناجحة هى التى توحى للنفس ألا تتقهقر وتتضاءل وتنزوى فى نفسها أمام قوى الطبيعة ، بل تجعل من النفس قوة غازية موجبة غير

سالبة ، تؤثر فى الطبيعة بالتسخير والتحويل والتنقيح ...

والتربية الشرقية على العموم ، لاتزال تؤوّل قصور النفس الناشىء عن الجهل والكسل والعجز أمام الطبيعة ، بتأويلات تحمّل فيها الأقدار العليا أكثر مما تحتمل ، وتفر من وجه السدود والعوائق ، تحت تأثير قناعة مصطنعة ، تحيكها أخيلة طفلية ، ولا تأخذ ما فى الحياة ، وإنما يأخذها ما فى الحياة .

وكأن الشرقيين لما وجد المرء منهم نفسه ضعيف الحجم وسط هذا الكون العظيم ، استكثره على نفسه فاحتقرها بالنسبة له ، وأثار فى نفسه شكوكا فى قيمتها فنشأ عجزه ، أو قل امتد عجز آبائه القدماء اليه ، فاضطربت حياته ، وصار رهين الأرض وأمراضها .

وقد كان الاعتماد على « القوى السحرية » هو أساس العمل لتحقيق الأمانى عند الشرقيين على الأخص ؛ والآن صار الاعتماد على القوى الآلية فى الطبيعة هو أساس ذلك العمل .

وأعمال العلماء الطبيعيين قد اكتسبت من جبروت الطبيعة شيئاً من الهول والاجتياح والاتساع : فمدافع « كروب » الثقيلة البعيدة المرمى والقنابل الشديدة الانفجار ، والقنابل الطائرة البعيدة المدى ، والقلاع الطائرة والمناطيد ، والخزانات العظيمة ، والمحطات الكبرى لتوليد الكهرباء ، والمصانع ، والإذاعة المبثوثة باللاسلكى ، وتعبيد الطرق العظيمة كطريق (نيويورك — ميامى) مثلاً ، أو إكسبريس الشرق ، وغير أولئك ... كلها أعمال عظيمة تمتاز بطابع الاتساع والهول والجهد الجبار .

* * *

فماذا ينتظر الفكر الإنسانى بعد فراغه من هذا التسلط ؟ وما هى النتائج ؟ وأين مَصابُّه التى يصب فيها تياراته وفيض عبقرياته ؟ أهى المغالبة والمنافسة والشهوة على الأساليب التقليدية الجاهلية ؟ إن هذه النتائج لاتتلاءم مع عالم فكره العالى ، ولا يصح أن تكون أهدافاً لهذه الصرامة وهذا الجد العظيم الذى تسير به الحياة وقوانينها فى خدمته ... وإن المغالبة والشهوة بأساليبها المعروفة الوضيعة ، ينبغى أن تكون غير ذات خطر عنده بعد أن عرف آفاقاً جديدة لشهوات رفيعة ، وهى تحقيق أحلامه فى الكشوف العلمية والانطلاق السريع بالطيران والسبح والسبق وإزالة الحواجز والسيطرة على القوى الآلية ، وغير هذا من طلائع مجده وملكوته المرتقب !

* * *

فلنبدأ عصر يقظة لحياتنا الممتازة ، وإحساس بقدرتنا الفائقة على الأعمال العظيمة . وليكن ديننا هو حيرتنا ودهشتنا : كيف خُلقنا ؟ وكيف اقتدرنا ؟ وكيف نعلم ؟ وكيف نعمل ؟

والراحة الدائمة هى فى أن ندفع بأجسامنا وأفكارنا إلى رحاب الطبيعة مفكرين فيها باحثين عاملين ... وبأرواحنا بين يدى ربها متعرفين اليه صابرين على الدهشة والحيرة والإيمان بالغيب حتى يأتينا اليقين فى الآفاق وفى الأنفس . ولابد وراء ذلك من تأويل ويقين !

* * *

قد تطير الطير فى أجواز الفضاء وهى فى ذهول ...

وقد يسبح الحوت فى جوف العُباب وهو فى ذهول ...

وقد تَدْرُجُ الوحش والأنعام والبهائم على أديم الأرض وهنّ فى ذهول ...

ولـكن ابن الانسان ينبغى له أن يتساءل دائما : كيف أحيا ؟ ! كيف أفـكر ؟ ! كيف أدرُج ؟ ! كيف أسبح ؟ ! كيف أطير ؟ ! ثم كيف أريد وأقتدر ؟ !

وينبغى له ألا يغفل عن ترديد هذه الأسئلة :

ما الذى أخرج الإنسان من رُكام المَوات والجمود ومختلط القوى العمياء التى يَزخَر بها الـكون ؟

وما الذى وضع فـكر الإنسان واختياره وسط الدورات الجبرية التى تتداول الأرض ؟

وما الذى هيأ له مهاده الوثير المريح المستقر وسط النيران والصخور وتَدافُع القوى العمياء ؟

إن رحلة واحدة فى جوف الماء الزاخر ، أو الهواء الدافع ، أو النار المَوّارة ، أو التراب الثقيل الفادح المتراكم . . . كافية أن تشير لنا إلى موضعنا وخصوصياتنا فى الـكون ، وإلى رعاية من أُخرجنا وسط هذه الأهوال والقوى العارمة المجنونة ، فى مِهاد من رحمته ، بين عوامل جبروته وسطوته !

أدركت الثمار وآن القطاف !

آلهة وحيوانات — عمل الطبيعة فى تكوين الانسان الواحد — عصر الفوران والغليان — مدنية خالدة ذات سلطان عجيب شامل — جئنا لنحيا لا لنموت — الحياة بالفكر فى المجاهل والمعامل

إذا جردنا الإنسان مما أسبغته عليه الحياة المدنية من أفانينها وأنواعها وأشكالها ، ظهر لنا أن البون بعيد جداً بين الإنسان الذى أخرجته الطبيعة ، وهذا الإنسان الذى غيرته الصناعة وتعقيد الفكر ، وظهر لنا أن حياته الصناعية عالم مستقل منفصل خلقه هو . ولكنه عالم غير خالد ولا متوالد إلا باطراد تقدم الإنسان . بخلاف مخلوقات الله فى الطبيعة فإنها أبدية دائمة تعمر بها الطبيعة .

وكلما فكرت فى الفرق العظيم بين حياة رجل على الفطرة ، وبين حياة رجل ألمانى أو أمريكى أو انجليزى ، وعقدت موازنة بينهما فى المأكل والملبس والملهى والمركب والعمل والإنتاج والفكر ، والإحاطة بآفاق الدنيا ، والتسلط على الطبيعة ، ظهر لى أن الأول يكاد يكون فى صفوف نوع آخر غير الإنسان ، وأن الثانى ينقصه الروح والعدل والإيمان ليكون الإنسان المنشود البار بوصايا الله ؛ لأنه هو الذى أحسن الأخذ عنه ،

وخلفه فى الماديات خلافة واسعة ، ونمت على يده الحياة وتنوعت ، وتشققت مجاريها وتوسعت ...

ولا يجوز عقلا أو شرعاً أن يعطى الأول كرامة الحياة وعزتها ، وأن يتسلط على الثانى ، مادام كل منهما على حالته . كما لا يجوز لحيوان أن يسخر إنسانا .

وكلما استعرضت معارف الإنسان المدنى المدونة فى كتبه وصحفه وألواحه وأرضه وآثاره ، أدركت مبلغ ماحمله من أمانات الحياة ، وأسرار الدنيا .

ولا شك أن الإنسان المدنى العادى الذى يقرأ صحيفة يومية ، يحمل ذهنه من قضايا للعالم وأخباره فى الصباح والمساء ، مالم يكن فى حسبان أحد من السابقين ووجدانه ...

ولا شك كذلك أن هذا قد ترك أثره الواسع الشامل فى تكوين الذهن الإنسانى الحالى ، وتكييف أعصابه وإحساسه بالحياة على غير ما كان عليه الناس فى زمن المواصلات والثقافات المحدودة .

فالأقدار تصنع عقل الإنسان الحديث وقلبه صناعة تشترك فيها كل معارف الحياة العصرية .

ومن الأعمال العظيمة التى تقوم بها الحياة الآن ، عملها فى تكوين الإنسان الواحد الخاضع لمؤثرات واحدة . ونحن الذين يقع علينا تأثير أعمالها العظمية ، ونعيش فى غيبوبة عن خطواتها بنا ، لا يدرك منا هذا التأثير إلا الراصدون المسجلون الذين تجعلهم الأقدار مخصصين لرصد خطوات الحياة وتسجيل ظواهرها . وهؤلاء يكادون يكونون نادّين عن حبال الشبكة

التى تَلُفُّ غيرهم من أبناء الحياة .

لقد تركزت المعلومات ، فصارت القارات كالقرى ، وملايين الجنود كأصابع اليد ، والدبابات كالنعال ، والطائرات كالعصافير ، وأخبار العالم الإنسانى كله كأخبار الحى الواحد . . . !

وهكذا تتركز الحياة وتتلخص فى فكر الإنسان ، وتختزل صورها العظيمة فى أرقام وحروف . . .

* * *

هذا العصر جدير أن يسمى « عصر الفوران والغليان » — على سبيل التشبيه بسطح ماء فى وعاء على نار — فقد لبث سطح الحياة ساكناً فى عصورها السالفة ، لا يتحرك إلا حركات موضعية ، كما يلبث سطح الماء أول ما يوقد عليه فى النار . حتى إذا وصلت حرارته إلى درجة الغليان ، هدر وفار واشتد وقذف وتبخر وتحول . . .

إن عوامل الحرارة كانت تحته من قديم ، ولكنها لم تصل معه إلى درجة الإنضاج والحركة السريعة والتحويل إلا أخيراً . وكذلك عصر الإنسانية الحالى ، هو عصر ظهور كوامن أسرارها وأسرار الطبيعة ظهوراً شديداً متلاحقا .

وقد انكشفت حيوات جميع الناس للناس ، فعلموا أنواعهم ولغاتهم وأديانهم ومذاهبهم فى الحياة .

وقد كانوا ضائعين مغمورين تائهين كأسرة مفرقة ، فرقها حادث ، ثم جمعتهم الظروف مرة ثانية .

إنى أتخيل صورة الدنيا فى عقول ساكنيها الأولين ، وصورتها الآن فى عقول بنيها المثقفين ، فيصيبنى دهَش مَشُوب بفرح وبهجة وشكر لله على تسديده الإنسان إلى غاية ابتدأت تنكشف وجوهها .

وكان الأنبياء والحكماء القدماء وحدهم هم المدركين وجهات الحياة . وكانوا فى الناس ما يكون البصير بين عميان ، والأب الكبير بين صبيان ، والراعى بين قطعان . وكان قليل من الناس هم الذين يدركون ما يشيرون إليه . ولكن الآن صار العلم والدين والإدراك الصحيح شيئاً مشاعا كالهواء والماء ، تقاربت فيه المعتقدات والآراء .

* * *

أجل ، هذا زمن حصاد جهود الإنسانية ؛ فقد أزهرت الأزهار وأدركتْ الثمار ، وظهر الحقل مستوى السوق مستغلظ الأعواد ، قد أينعت فيه عُلب الأسرار وحان قطافها !

انظر فى بقاع الأرض جميعها ، تجد إنسانية تفتح عيونها وتستيقظ من غفلاتها لتدرك الحياة الحديثة ، وتشترك فيها وتتلاقى مع غيرها فى خدمتها . وقد زال الإبهام والغموض اللذان كانت عقول الإنسانية القديمة والمتوسطة تراها فى ظواهر الحياة ، وصار الإنسان معتمداً على نفسه وحسابها الدقيق وأخذِها بأساليب الطبيعة فى الإنتاج والاختراع ، وترك الاعتماد على الأمانى ، فضاقت دائرة الاعتماد على الأقدار وحدها .

ولنلتفت إلى الماضى كثيراً ، لندرك مدى ما كسبناه وحصلناه كإنسانية واحدة من محصولات الحياة التى وضع كل شعب وكل حضارة لَبِنة

فى بنائها ، حتى خرجت هذه الحضارة العالمية المشتركة التى اقتحمت كل قطر وكل مدينة فى الأرض ، وصارت من قدر الله الذى لامرد له ولامفر منه .

إنها حضارة باقية خالدة ، لن تبيد ولن تفنى ولن ترتد ؛ إذ أن بذورها ألقيت فى كل مكان ونبتت فيه . فلئن ذهبت أوربا إلى الخراب والدمار ، لسوف تبقى أمريكا .. ولئن ذهبتا معاً ، لسوف يحمل المشعل أمم الشرق وتلك الأمم المنثورة فى القارات وجزر المحيطات ، وغيرهم ممن اقتنعوا بأن هذه المدنية هى نبوءة الطبيعة ذات المعجزات الدائمة ، التى لامفر من الإيمان بها والعمل لها ، وأن هذا العصر هو أوان حصاد الغلال وجنى القطاف التى زرعها وتعهدها الأقدمون ، وزادت كل أمة فى ميراثها حتى صار فيها من كل قطر وِرْدٌ ، ومن كل أمة مدد ورِفْدٌ .

إن هذه مدنية فرضت نفسها فرضاً على الناس جميعا : فرضت آلامها وشرورها ، كما فرضت إسعادها وخيراتها وعلومها ، وصار الناس لا يستطيعون منها فراراً ، بعد ما دخلت عليهم أقطارهم قسراً واقتداراً ...

هى قَدَر لازم لا فِكاك منه كأنها الرياح والأمطار والأشعة ...

ومما يؤكد أنها خالدة مؤبدة ، انتشارها فى كل مكان وأنها ليست كالمدنيات السالفة الموضعية ذات العصبية القومية ؛ لأنها قامت على العلم الذى لا تتناقض حقائقه بتعدد الأماكن والأجناس ، بل تتلاءم وتتوافق بتوافق قوانين الطبيعة الواحدة .

وكانت المدنيات السابقة تجارب وجذوراً متشعبة لجذع شجرة عظيمة هى هذه المدنية الحالية .

ولم يحدث فى الماضى أن صبغت مدنيةٌ الناسَ جميعاً كما فعلت هذه المدنية ، فخضع لها الموحد والوثنى ، والملحد والمؤمن ، والزنجى والإسكيمى ، والشرقى والغربى .

ولم يحدث أن وُجدت ميادين كثيرة مشتركة بين الناس جميعاً كما وجدت ميادين الاشتراك العلمى والآلى والصناعى والسياسى والأدبى فى رحاب هذه المدنية .

ولم يحدث أن اشتبكت مصالح الناس جميعاً كما اشتبكت الآن بفعل السرعة ، وسهولة الانتقال ، وتبادل المنافع ، وتشعب الاحتياجات .

ولم يحدث أن درست ثقافة واحدة فى مدارس الأمم جميعها كما درست هذه الثقافة العصرية .

فأى مكان نجا من سلطان مدنية الزمان ؟

أى طريق لم تجس خلاله السيارة ؟ وأى جو لم تخفق فيه الطيارة ؟ وأى بلد لم يستصبح بنور الكهرباء ؟ وأى قطر لم يعرف ما عند غيره ؟

إن هذه المدنية تحيط بالإنسان فى كل أفق من آفاق حياته . وإنى أستعرض الآن كل ما يحيط بى وأنا أكتب ، فأجد جميع ما تقع عليه عينى قد اشتركت فيه آلاف العمليات الإنسانية المعقدة ، وقد صار إحساسى بها كإحساسى بضرورات حياتى . وأكاد لا أرى شيئاً من يد الطبيعة وحدها إلا جسمى ... وحتى هو لم يسلم من هندسة الخلاق و « رتوشه » !

ويمكنك أن تجرد الأرض مما فعله الإنسان فيها ، وما عقده وركبه ،

لتدرك مدى الحياة الأرضية من غيره ، ومدى العالم الذى أحدثه هو ...

وإذا ألقيت نظرة على شارع فى نيويورك أو لندن أو القاهرة ، يَرُوعك أن ترى ما فى مخازنه ومناظره ، وآثار الأيدى التى عملت فيه ، حتى لا تستطيع بعض الأذهان أن تتخيل الدنيا خالية منه ، من طول الألفة وطول الغفلة عن التفكير فى مبادىء الحياة ...

طوفوا فى شوارعكم أيها الناس بقلب ذاكر للطبيعة ، مدرك لمباديها لتعرفوا مقدار مابينكم وبينها ، ومقدار قوتكم الابتداعية ، فتتلفتوا لأنفسكم متعجبين محترمين محافظين عليها وعلى قواها الفكرية والإنتاجية من الضياع والذهول والغفلات !

إن أفراح الحياة تغمر قلبى حين أطوف بجسمى فى المدن العظيمة ، أو حين تطوف بى الحياة فى دور السينما ، فأرى عجائب ماستحدثه الإنسان فى عوالم المواد والمعانى .

ولست أزهد فى رؤية الحياة المادية وتقصّى دقائقها ، لأن كل دقيقة منها ترسل فى قلبى دقيقة من التعجب والإيمان . . .

ماجئنا للحيات لنموت ونستحضر فلسفة الموت من أول يوم ! والقبر ليس نهاية ، وإنما هو بداية مرحلة تالية . . . فعلى الذين يجعلون القبور نُصْب أعينهم فيهوّنوا من أجلها كل عظيم ، ولو كان الصحة أو العلم أو التفاؤل ، أن يعلموا أنهم جاءوا ليحيوا ويحسوا الحياة عميقة فيما خلق الله من شىء ، وينتفعوا بالطيبات والزينات التى أخرج الله لعباده .

ومن الكفر أن نترك الأجسام فريسة للآفات وعوامل الشؤم ،

انتظاراً للموت الأكبر .. فيدب فيها منذ ولادتنا ...

كذلك يجب أن يكون إيمان الرجل المتمدن ، إيمان البصير الواثق بأن عمل النفس البشرية فى المادة ومتاعها بها مع تذكر الله تعالى ، باب إلى الإيمان لا الكفر كما يتوهم الأغبياء البلداء الأغرار !

إنى لاأعيش فى نفسى وحدها ، ولكنى أعيش فى نفوس بنى الدنيا الدنيا جميعاً ، لأرى الحياة بعيونهم من آفاقهم ، حتى أخرج من الدنيا ومعى كثير من أسرار الحياة فى القلوب والعقول .

وأنصح لأصحاب الإيمان التقليدى أن يستحدثوا فى قلوبهم ونظراتهم ماأستحدث ، ليعرفوا أى لذة وأى إيمان مضاعف يغمر قلوبهم .

وأنصح لأصحاب النظرة المادية والذهول عن المعانى ، أن يستحضروا أرواحهم وراء كل نظرة وكل عمل وكل علم ... فإن هذا هو الوضع الحقيقى لحياة الفكر ، والاستخدام المعقول للروح وقوى الجسم .

لنعش بأفكارنا وأرواحنا دائما ، سواء أكنا فى غابات خط الاستواء ، حيث الطبيعة بكرٌ غير مفضوضة ، لم يطمثها إنس ولا جان ..! أم فى مصانع « فورد » بأمريكا ، حيث يدور الفكر مع الحديد فى ضجة وتعقيد وقدرة !

حيث الأُنسُ بالانسان !

زال عهد الصمت والجمود — رسالة يبعثها سر الانسان — ضآلة لاتبعث على الاستكانة — لاتعجلوا النتائج — موارد فياضة معطلة تنتظر الصنعة السيد هو إنسان الصناعة — بين قيادة البقر وقيادة الفولاذ — مضى زمن التخريف فى الله وبقى التخريف فى الانسان — برزخ على هوة ! سر ظهور الدين قبل العلم أسس خفية لحياة الاجتماع — أباطل أصلح للحياة من الحق ؟ — مم تفجر نبع الضمير ؟ — حيث الأنس بالانسان .

قديماً كان كل شيء فى الطبيعة صامتاً جامداً ، أيام بدء ظهور الإنسان ، فلم يكن يتكلم غيره هو ؛ بل كان هو أيضا أبكم محبوس اللسان لايتكلم إلا بمقاطع ساذجة ، وأصوات وجدانية ، وكانت وجوه الطبيعة جامدة مبهمة ، وأبوابها موصدة .

والآن صارت الأشياء متكلمة محدّثة طليقة الوجوه مفضوحة الأسرار. أنطقها الإنسان الذى علمه الله البيان ، فعلمه هو بدوره إياها ، وجرد منها حناجر تحدثه وتعيد عليه حديثه ، لتؤنسه فى رحلته إلى صوب مجهول . . !

ولقد زادت عجائب الكون بانضمام العجائب الإنسانية إلى العجائب الإلهية فى الطبيعة ، وكان كفر الإنسان بالله ناشئا من ذهوله عن بدائع مخلوقاته تعالى ، وكذلك صار الآن كفر الإنسان بنفسه ناشئاً من ذهوله عن مصنوعاته هو !

ألا إن حمله على الإيمان بنفسه ، رسالة لا تحتاج إلى رسل يبعثهم

سرُّ السماء إلى الأرض ، وإنما تحتاج إلى رسل يبعثهم سر الإنسان ووحى أعماله فى الأرض . . . !

وقد ظل الله ربه يقول له وهو طفل جاهل قاصر عاجز : من هنا الطريق .. إلى الحياة والملكوت . . افعل هذا واترك هذا . . كن كذا ولا تكن كذا . . حتى أدرك جادّة الحياة الكبرى ، وبانت له تباشير المدنية المنشودة التى كان يحلم بها ويطلبها من الرسل كمعجزات .. فأسرع إليها وغمرت حواسَّه دهشتها وأعاجيبها ، وألهاه ذلك عن التفكير فى نفسه ، فعاش فى ضجة مايصنع كما تعيش دودة القز فى الشرنقة .

وقد خلَّى الله بينه وبين الحياة ، بعد أن ترك له وصاياه فى الصحف الأولى ...

قد يقول قائل من ذوى الروح المتشائمة المعطِّلة : ماذا يريد ذلك الإنسان المحدود من ضجته فى الأرض ؟ ضجة حناجره ومصانعه ومدافعه وجراراته ودباباته وطياراته وبوارجه ؟ إنه ضئيل ، وإن مسرحه ضئيل : فهو شىء صغير على سطح الأرض ، وهى ذَرَّة سابحة مع ملايين الملايين من النجوم والكواكب ؛ فماذا عساه أن يصنع ، حتى لو ركب الأرض نفسها وصرّف مقاليد سيرها كما يصرّف مقاليد طياراته وجرارته ؟ أليس الفناء نهايته ونهاية مايصنع ؟

فأقول لأمثال هذا : رويدكم . . . لاتتعجلوا نتائج حياة الإنسان ولا تشكّوا أنها ستكون عظيمة أعظم مما تتصورون ، بعد أن رأيتم من فعله مالو رآه آباؤكم لماتوا عجباً !.

إنكم تشكون فيه لأنه لم تثبت لحياته نتائج دائمة ، وعندكم أن كل أعماله مَلاهٍ وسَلَوَيَاتٌ فى شئون خاصة ، كالشئون الخاصة بأى فصيلة من فصائل الحيوان .

كذلك قال الذين لا يعلمون من آبائكم مثل قولكم ، إذ لم يروا ميتاً يرجع ومفقوداً يؤوب ... !

ولكن الأمر فى حياة الإنسان وخلوده ليس ، كما تتوهمون ، أمراً متعجّلا . إنه ثمرة لابد من نضجها فى زمن معلوم تظهر بعده نتائج خالدة ، وأسرار مخبوءة ، لها صلة وثيقة بالكون الطبيعى نفسه ، وبالروح الأكبر الذى وراء الطبيعة .

ومادام الإنسان لم يصل الى حدود جامدة لا وراء بعدَها فى الكشوف والاختراعات والوقوف على أسرار الطبيعة ، فتَمت له بقاء ، ولوجوده غايات ، هو لا يذهب من الأرض حتى يحقق جميع الغايات من خلقه .

إن كل شىء يبدو عليه انتظار تحقق تلك الغايات المجهولة المرتقبة ، وربما يذهب من الأرض حين يستطيع أن يحول جسمه إلى قوى وطاقات تعبر الأرض فى لحظة وتوجد كما تريد باذن الله !

وسيرى الذين يذهبون الآن ، أنهم بعد الموت فى دور انكشاف وظهور ، إذ لا يعقل أن يمضى هذا « الخالق الصغير » إلى الفناء المطلق . .

ثم أقول : ماذا تريدون أن يفعل إذاً ؟ أتريدونه ينام حالماً يدخن النارجيلة والحشيشة والأفيون كما يصنع أغلب إنسانية الشرق المضيّعة ؟ أم تريدونه يجلس فارغاً ينتظر الموت ، وينشد الأشعار ولهو الأحاديث ؟

إن عليه أن يملأ هذه الأرض بالضجة والقوة التى يستطيع تسخيرها ، وأن يسلط قوى نفسه الكامنة على هذه المواد الساكنة ، ويثيرها أيّما ثورة ، ليدخلها فى نطاق الحركة بعد السكون والحياة بعد الركود . ولا عليه بعد ذلك أنه ضئيل ، فوق زورق ضئيل ، يسبح فى عَيْلَمٍ كبير . . .

فلو نظر الإنسان إلى جبروت الطبيعة وهول السماء ، لاستصغر جهده على الأرض مهما عظم ، ولم يفعل فى حياته إلا ضرورات احتياجاته . وبالطبع هذا يردّه ضعيفا مستضعَفا ، شقياً ، فريسة لغيره كما كان . ولكنه إذا آمن برحابة نفسه وقوة فكره وقدرته على أن يفعل الأعاجيب ، وأنه على ضؤولة جسده ، يستطيع أن يحرك الجبل وينسفه بتسليط قوة طبيعية أخرى عليه ، إذاً كان هذا عليه أنفع وأجدى ، وكان أشرف له ، إذ يجعله قوة من القوى العاملة فى الحياة .

إن الطبيعة تغازل فكره وتثيره للعمل فيها منذ أيامه الأولى ؛ فالطفل يبحث فى محيطه ويسلط جميع حواسه على محتوياته ، فيراه ويلمسه ويذوقه ويتسمعه ويشمه ، حتى يحيط بخواصه ويثير كوامنه ويطلقها خيراً من تعطيلها وسجنها .

وقد وجدنا كل ما فى الطبيعة من مواردها الكبرى بسيطاً غير معقد ، فياضاً بكميات كبيرة جداً ، خاضعاً للتعقيد والتركيب والتأليف والتوزيع والتنويع ... فدلنا ذلك على أن هذه المواد إنما وضعت هكذا هائلة فياضة ، انتظاراً لصنعة ستتناولها بها يَدٌ صَنَاعٌ .

وكلما رأيت غزارة الماء — وهو أصل الحياة — وكثرة المقادير التى تصبها الأنهار فى البحار فتذهب من غير انتفاع إلا بجزء قليل جداً منها ، قلت : إن هذه الكميات الهائلة إنما أفيضت لا لإخصاب السهول الحافَّة بها فقط ، والتى تصل اليها مياهها فى سهولة ويسر ، وإنما أفيضت لإخصاب هذه الأراضى البوُر من الصحارى والسهوب الظمآى العقيم ...

وكلما رأيت مناجم الأرض تمتلىء بالمعادن والركاز المعطلة ، وهى ذات النفع العظيم والإمتاع الدائم ، قلت : هنا مواد ظلت الطبيعة تحفظها فى صدرها ، حتى أتى يوم بعثها على يد من عرف أسرار الانتفاع بها فى زمن نمو علوم الآليات والكهرباء .

وكلما رأيت أغلب مناطق الأرض لا تزال خالية من السكان أو غير متشبعة بهم ، قلت : هذه مساكن احتياطية لأقوام آتين ستلجئهم ضرورات الزحام إلى سكناها وتعميرها وتعديل مهودها وأجوائها وإخصاب بقاعها .

وكلما رأيت البحار السبعة وما فيها من عوالم وعناصر وموارد للطعام والحرارة والصناعة ، قلت : هذه قُدورٌ هائلة يطبخ فيها مستقبل مجهول لهذا المخلوق .

فهذه المقادير العظيمة من المياه والمعادن والأراضى والغابات ، ظلت تُفيض فيوضها بالكيل الواسع ، وتدور دوراتها وترجع من غير أن ينتفع بها أحد انتفاعاً يبرر غزارتها ، إلى أن أتى عصر تفتح حاجات الإنسان

الصناعية والعمرانية بتفتح أسرار الطبيعة لفكره ، فإذا بهذه الموارد التى كان يظن البعض أن فيها إسرافاً وتبذيراً ، يبدو لعيون العلماء وأرباب الصناعات والأعمال أنها موزونة متكافئة مع نمو حاجات الإنسان واتساع افتنانه .

* * *

هذه الحياة الصناعية البارعة المعقدة الكاشفة عن قوة الإنسان الابتداعية النامية المنمّية ، التى بها تفرده وامتيازه بين الكائنات ، وبها تغلّبه على غيره من الحيوانات ، بل وتغلّب بعض أقوامه على بعض ، قد تمت نمواً عظيماً حتى بدت فى هذه القوى الساحقة التى يستخدمها الآن فى حربه .

ولا شك أن إنسان الصناعة هو سيد الأرض . أما إنسان الزراعة فمهما اتقنّ فيها وهندس واجتهد ، فإن حياته حياة بدائية ، لا تعقد الفكر ولا تترك فى الأعصاب أثر القوة والابتداع والسيادة . وقد صارت الزراعة الآن خاضعة إلى حد كبير للصناعة ، وذات تبعية لها .

ولذلك رأينا الأمم الصناعية تسود الأمم الزراعية ، على رغم القلوب الطيبة والمثل العليا التى تشيع بين الزراعيين فى العادة ، منتقلة إليهم من اعتمادهم بعد بذل جهودهم على منزل الغيث وباعث الخصب ، ومن طول معاشرتهم للنعاج الوديعة والبقر المطيعة والأنعام التى تعطى ولا تأخذ ، وتسام على الخسف ومع ذلك تجترّ سعيدة حالمة ... !

وطبيعى أن يتغلب من يدرب أطفاله على ركوب «الحيوانات» الحديدية ، وقيادة «الوحوش» الفولاذية ، على من يدرب أطفاله على ركوب

الحمير والبغال ، وقيادة الأغنام والأبقار ...

وكل مايحدثه الإنسان فى المواد يدل على اتساع مدى نفسه وامتداد خيالها ، وأخذها من محيط واسع عميق ، وامتياحها من ينبوع زاخر بالصور والأشكال والأنواع ، وقوة تعقيد فكرها وقدرته على إحداث نَسَب جديد ، بين العناصر والمواد ... وهذا مالا وجود له فى الزراعة .

ولكى تدرك ما أرمى اليه ، فكّرْ فى الحياة الصناعية من المسمار الصغير إلى المصنع الكبير وما بينهما .

* * *

يلام الإنسان على غفلته عما صنعه هو بيديه وملأ الدنيا به ، كما كان ولا يزال يلام على غفلته عما خلقه الله فى الطبيعة .

ولقد مضى زمن التخريف والضلال فى العقيدة بالله رب الطبيعة ، لأن الحياة لاتحتمل الجهل به تعالى إلى الحد السخيف الذى كانت تقبل فيه عبادة الأصنام والأشخاص والنجوم وغيرها ، ولاتحتمل أن تجرد الطبيعة منه تجريداً كالذى كان من المعطّلين منكرى القصد والإرادة والعناية فيها ، ولفظت العقول الأديان التى تعتمد على غير العقل فى إثبات حقيقة الوجود الأولى والحقائق التى تليها ، وعشق الناس جمال الطبيعة وصدقها ، وعرفوا من أسرار الصناعة فيها ، فيبقى عليهم ، لتكمل عقائدهم فى الحياة ، أن يتيقظوا دائما لمنشئها ومدبرها ، ويتقربوا إليه بالفكر فيه وتكريم اسمه ، كما يتقربون — على الأقل — لأساطين علمائهم الذين عرفوا من علومه جانباً ضئيلاً .

ولكن ، جَدَّ تخريف وضلال فى العقيدة بالإنسان ، بسبب فرض لم

يثبت فى نظرية النشوء ، أطلق حوله كثيراً من الاعتقادات الفاسدة . ومقاومة هذا التحريف الأخير هى من أهم رسالات الدين فى هذا العصر .

* * *

هذا الفرض جعل كثيراً من الناس لا يريدون أن يصدقوا أن بينهم و بين الله صلة محترمة أو عناية . وكأنهم يجفلون من التكريم والإحسان اللذين يقول الدين إن الله يصطنعهما فى معاملة الإنسان .

وهم يقولون إن حياة الإنسان بالنسبة لله تعالى — على فرض إيمانهم به — حياة ضئيلة ، و إن بينهما هوة سحيقة لا عبور لها ، وأن الحياة الإنسانية على الأرض لا تقدم ولا تؤخر فى سير الناموس الأعظم الذى ينتظم الكون . فسواء على الله وعلى الكون ، أن يصل الإنسان أو يهتدى ، أن يَعِفَّ وأن يَشِرَه . . . فتلك شئون خاصة به ، خاضعة لاعتباوات مجتمعه ، وسوف يفنى بأخلاقه وأعماله كما تفنى النمال والنحل وكل ما لبسته الحياة ، من غير رُجْعَى أو مصير أكمل ...

ولكن الواقع أن ضجة الإنسانية وحدها ، وتغير الأرض بها وحدها وتعقد الدنيا بها وحدها ، و اطراد نمو الحياة المادية وانكشاف خصائصها بها وحدها ، وارتقاب غاية مجهولة منها وحدها ؛ هى أمور من الحق بحيث تشغلنا عن سواها ، وهى ذاتها البرزخ الذى نعبر عليه تلك الهوة التى بيننا و بين الله !

وما دمنا لم نر كائنا غيرنا يعمر الأرض ويثيرها ، و يستحدث فيها أعاجيب لم تكن ، وما دمنا نؤمن بحكمة بارىء الوجود الذى أدخلنا إليه ،

إذاً لا نستطيع أن نعتقد أنه ليس بيننا و بين الله برزخ أو صلة ، مع أننا نرى أنفسنا كل شيء فى الأرض ...

وعند ما ينظر السطحيون لظاهر مجموع الناس ، يخيل اليهم أنه لاصلة بين قلوبهم وأفكارهم و بين السماء ، وأنهم غير مَأْبُوهلم من صاحب الوجود ... وحينئذ تنطلق الاعتقادات الفاسدة والتافهة بالحياة وتنطلق وراءها الغرائز الخطرة ، وتوجد « طمأنينة الكفر ! » وينظر الإنسان للانسان على أنه شيء تافه ، يصح سلبه واستعباده وقتله .

ولكن عندما ننظر للحياة الإنسانية من داخل الأرواح والأفكار والقلوب ، نجد النظر يخلق للمنظور خلقاً آخر جليلاً ، ويشعر الناظر أن عين الله راعية وصية على هذا المخلوق .

فما أعظم أثر هذا فى طمأنينة النفس حتى لو كان باطلا ! إنه يرفع آمال النفس البشرية وأفكارها حتى يجعل منطق الله خالق الطبيعة الهائلة منطقها هى ! مع أن الهوة التى بينها و بين الله سحيقة ، إذا استسلم الإنسان للحس وحده فى عبورها لن يتمكن ! إذ يجد مكانه فى الوجود يكاد يكون لاشيء ... إذ الأرض ذاتها لاشيء بجوار عظمة الكون ، فما بالك بالفرد الضئيل فيها ؟

هذا النظر الروحى العميق يجعل للنفس ثقة وإحساساً بالعظمة ، إذ يجد به الإنسان لنفسه مكاناً ملحوظاً فى الوجود ، حين يجد علاقته وثيقة بصاحب الوجود مباشرة .

* * *

ومن العجائب فى ظهور حياة الإنسان وتدرجها ، أن حياة الروح والتدين فيها سبقت حياة العلوم ، فبنيت حياة التعزية والثقة على الدين قبل العلم .

ولو قد سبق العلمُ الدينَ ، إذاً لكان موقف الإنسان فى الحياة موقف ابن الطريق الشريد القادر الفاجر ، الذى لم يجد أباً وأمًّا يأخذ من حنانهما حناناً لنفسه ، ويعرف أن قلبيهما منبعان غزيران لصفات الإخلاص والرحمة والحب ، بل يجد نفسه مدركا رشيداً ، ذكياً قاسياً ، على قارعة الطريق ، تدافعه زحمته القاسية ، يعرف جرائم الحياة وجفاءها ، وأخلاق الشوارع والأسواق ، ولا يعرف روابط الأسرة ومعاملة الأخُوَّة والبنوة ووصايا الأمومة ؛ فيكون موقفه فيها موقف قاطع الطريق المسلح بالأدوات والمهارة ...

* * *

علام يقوم بناء الحياة الانسانية ؟

حين أستعرض نظام مدينة أو أمة أو أمبراطورية ، فأجد ناسها يعيشون فى تفاهم وتعاطف ومبادلة منافع ، وأجد مرافقها ومبانيها وشوارعها ومصانعها ومعاهدها تقوم فى دقة وموازنة وجمال وأمانة ، كأنها من الطبيعة الموزونة بيد الله ... أسائل نفسى :

من الذى أقام بناء هذه الحياة الانسانية فى تلك الأمة أو المجموعة على هذه الأوضاع العظيمة ؟ !

ومن الذى سدد جهاد أفرادها جميعاً نحو غايات مشتركة وأهداف موحدة ؟

ومن الذى أعطاها تلك الروح الاجتماعية الواحدة التى تجعلها تسلك فى أعمالها وآمالها مسلك الروح الواحد فى الجسم الواحد ؟

ومن الذى هذب طباعها ورققها وجملها وصقلها وسار بها شوطاً بعيداً من عيشة الوحشية والتأبد ، إلى هذه الإنسية والاجتماع ؟

ومن الذى أقام هذه الأسر « والعائلات » على التراحم ، وجمع أطفالها ورجالها على الحب ؟

إنه لاشك سر النبوّات التى هبطت على القلوب الكبيرة التى كانت الإنسانية فى مهد نشوئها، كالأمومة الرحيمة المضحية المربية المسدِّدة .

إن هذا لاشك هو الأساس الأول الذى قامت عليه الحياة الاجتماعية وذهب بناؤها مطرداً فى العلو والسموق .

فجامعو المعانى الكريمة التى اكتشفت فى الطبع الإنسانى هم الأنبياء .

وقد صارت المعانى الأخلاقية الكلية هى أساس بناء الدول المحكمة الوضع ، بعد أن كانت فى أول أمرها معانى شخصية فى قلوب هؤلاء الأفراد القلائل. ونسبة المؤمنين الآن أكبر من نسبة المشركين والمعطِّلين وصارت الأديان السماوية ممثلة فى أعظم أمم الأرض .

فلئن غابت ، الآن هذه الأسس المعنوية لحياة الاجتماع عن الأنظار القصيرة والأفكار المشلولة ، فكما تغيب أسس الأبنية العظيمة فى باطن الأرض ، لاتُرى ولا يعرفها إلا الناظرون فى الأعماق ...

ولقد مات الرَّعِيل الأول من الآباء والأمهات ، ولـكن بقى الأبناء دليلاً متجدداً عليهم .

* * *

ثم نسأل : أيهما أصلح للحياة ؟ أأن يعتقد الإنسان أن الله به حَفِيٌّ ، وأن يؤمن بالإنسان فيحتفل لولادته ، ويقوم لجنازته ، ويؤثره على نفسه ، ويتواضع له ويحترم دمه وعرضه ، ويعيش فى سجون الأخلاق التى تسمو بالحياة الاجتماعية ، وتقلل الخلاف والشقاق ، وتنمى المدنية وتحيط الإنسان بجو من سكينة العلم ورقّة الفن ، وتسخر العلم فى خدمته وتخفيف ويلاته ، وتضع أمامه أهدافاً مرسومة ومثلاً عليا ، وفلسفة يطّرد بها الوفاق ؛ وتجعل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا وغيرهم من الرجال الآباء نماذج وقمما يتطلع إليها ... ؟ أم أن ينظر الإنسان إلى الإنسان كما ينظر للنبات والحيوان ؛ فاذا ولد فـكَجَرْو الـكلاب أو سَخْل النعاج ؛ يسخَّر ويُلعب به ، ولا عِرْض ولا ناموس ولا قيود ، وحياته حياة فنُها آلىٌّ وعلمها للتدمير والغلبة ، ومُثُلُها وصولية ... وإذا مات هلك وقذف به إلى ظلمة الأبد من غير رَجعة أو ذكرى أو أمل فى مصير أكمل ؟!

أمَا والله لو كان دين الإنسانية هذا خداعا باطلاً ، لـكان أعظم أثراً فى صلاح الحياة من ضده ولو كان الحق ! لأنه قانون الحياة الاجتماعية ، فإذا تركه الإنسان كان عليه أن يرتد إلى حياة الغابات . وقد ارتد بعضه فعلا الآن ، ولـكنه سيعود ...

ولست أدرى : ما هو غرام بعض الناس فى أن يزعموا أنهم كشفوا

تيارات واتجاهات فى الحياة تجعل الناس يحطمون الحياة الاجتماعية التى نمت مواريث علومهم وأخلاقهم فى أحضانها ؟

إن كل ما يضر حياة الجماعة هو شر يميت الضمير وينزع منه الإيمان بالخير ويُسْلِم إلى النكسة والارتداد . فينبغى ألا يفلسف به .

* * *

على أسوأ الافتراضات فى تفاهة أصل الإنسان وضآلة مكانه فى الوجود ، فتَفَجُّرُ نبع الضمير فى قلبه ، وطواعيته تحت تأثيره ، لا بد أن يكونا بوحى وضغط من عالم أعلى ...

وهذا الروح اللطيف الذى يوجد فى القلب حين الحب ، أو حين مبادلة العلم والفكر ، أو حين تفتُّح القلوب بالخير ، أو حين النظر للوجود بالعين الصافية الآملة المتفائلة ، أو حين استحضار المعانى الكبيرة : كالمروءة والإيثار والتضحية الصامتة ، أو حين الإيمان العميق الرحب المُشِعّ ... هذا الروح هو مكان رصد الإنسان والأُنسِ به والأمل فيه .

فلنرصده من هناك ليكون المنظر جميلا أخّاذاً ، يبعث على التفاؤل والحب والسعى إلى الاكتمال ... أولى من أن نرصده من مكان آخر يبدو منه مطموس الجمال ، مقبوح الخصال ، منحط المكانة ، باعثاً على التشاؤم والبغض والحقد وسوء المآل !

الضمـــير

ووصايته على الحياة

حارس الحدود — لاقدسية لمقدس إلا معه — هو الباكورة الأولى — لاتتعجلوا الحلقة الأخيرة — البوصلة الهادية إلى القطب الأعظم — المجرى الخفى للحضارة — مقدمات الضمير العالمى — بركة من حرب كثير اللعنات — حديث الانسانية عن نبأ عظيم — لتسكن أبناء الحاضر — بين الحضارة والثقافة — قلوب قرود فى جلود بشر — فرار إلى العاصم .

كل مذاهب البر ، وحدود العدالة ، ومرافق الرحمة ، ومواضعات الفضيلة فى المجتمعات الإنسانية الراقية والمنحطة ، إنما هى آثار من آثار الضمير الإنسانى : ذلك النبع العميق الذى يستمد من فيوض الله المقيم الجبال أوتاداً ، والضفاف سدوداً للمياه أن تطغى وتملأ الأرض بدون نظام موزون ، والجاعل بين المواد والقوى العمياء حدوداً لحفظ الحياة ، ونَسْق الجمال .

وقد جعل للحياة الإنسانية الاجتماعية حدوداً كذلك بحراسة الضمير .

وكل شىء مقدس يتحول إلى عمل حقير مجرم ، إذا لم يصحبه الضمير والإحساس بالعدالة والحق ، كالإحساس بالنفس .

خذ مثلا : تشريح جثث الإنسان فى الموت المشتبه فيه ، أو فى حالة المرضى من الفقراء ، أو للتعليم : يحوله الأطباء الذين لا ضمير لهم ولا حس

بالجاءة عندهم إلى جزارة وإهدار لجسم الإنسان وكرامته فى سبيل التمرين ، حتى لتجد الجماجم البشرية فى المزابل ، والمخ الانسانى فى المراحيض ! مع أن العمل نفسه من أنفع الأعمال .

وخذ مثلا ثانياً : دراسة القانون للدفاع عن الحق ، ومعرفة الواجب ، تحولت فى أيدى المرتزقة من المحامين إلى مؤاجرة لطمس معالم الحق ، وتضليل القضاء عنه ، وإلباسه بالباطل ، وإيقاع من لا حيلة لهم ولا قدرة على الدفاع عن أنفسهم أو عن الحق .

وخذ مثلا ثالثاً : مهنة التعليم : هى فى أصلها وصاية على الناشئين والجهال ، وإرشاد من يجهلون العلوم والحقائق . ولكنها قد تحولت فى كثير من الأحوال إلى مجرد عمل آلى لملء حافظة التلاميذ بالأرقام والحروف تحت سيطرة آلية ، وإهدار للأخلاق والشخصيات .

وخذ مثلا رابعاً : الجندية : إنها أسمى مراتب المروءة وخدمة الحياة ؛ إذ هى جُودٌ بالنفس فى سبيل الحرمات والمقدسات . ولكنها قد تحولت إلى وحشية حين فقد القلب نبل الفروسية ورحمة الأقوياء .

وخذ مثلا خامساً : حياة التدين : إنها فى الأصل فيض ذاتى بين ضمير الإنسان وضمير الوجود ؛ فإذا بها تتحول إلى ألفاظ جافة وشهادات ومنافسات ومناقشات وارتزاقات ووظائف ومناصب مدرسية دنيوية ...

وهكذا لو رحت تتقصى سائر أعمال الإنسان المقدسة الكبرى ، تجدها قد خلت فى الأمم الضالة من خفقات الروح ومصاحبة الإحساس الإنسانى العالى ، يفعلها الفرد وهو كآلة من الآلات !

ولئن زعموا أن أصل الانسان وحشى منحط بغير ضمير ، وأن هذا الضمير تاريخه حديث فى حياته ، وأنه نشأ من ضغط الحوادث المؤلمة عليه، ومن تفاديه ماثبت أن به مضرة له بعد ارتضاء حياة الجماعة ... فمن الذى جعل فى أخلاقه تلك القابلية وفى أعصابه تلك المرونة التى تتأثر بتلك الحوادث والأخلاق الضارة والنافعة وهواجس الخير والشر ، حتى لتكاد تلك القابلية تكون ميزانا لايتغير ولا يتبدل فى جميع الأمم الحية إلا بعض أمم تعيش على هامش الحضارة ؟

فميزة الانسان على غيره هى هذه القابلية فى أعصابه ، والمرونة فى طبيعته . وليكن مكانه من الأحياء قبل نشوء تلك القابلية فيه ما يكون من الانحطاط والوحشية ؛ فلن يصير النخلة الفارعة المثمرة الجميلة أن يكون أصلها نواة ضئيلة محدودة ، وأن يكون البعد بين جذرها القبيح وتاجها الجميل بعداً بالغاً ؛ فإن كل كائن حى أرضىٍّ لابد له من أصل منحط فى الطين ، ثم يبلغ أوج حياته بعد حين .

ويتأكد عندى يوماً بعد يوم أن الإنسان لم يبلغ بعدُ درجة نضجه النهائية ، وأن كل حقبة من حقب التاريخ تظهر جانباً خفياً من طبيعته ، وأن « القطفة » الأخيرة من ثماره لا بد أن تكون هى التى تحمل جميع الأسرار التى أرادها فيه خالق الأنواع ! فمن الإنصاف ألا نحكم عليه حكماً نهائياً قبل أن يبلغ مبلغه الأخير ، وألا نفقد الأمل فيه مادام طريق ترقيه مفتوحاً أمامه ، وما دامت الطبيعة تفتح صدرها له .

أجل ، إنه قانون طبيعى لم تتم دورته ليفتتح نتائجه النهائية . وإن

الباكورة الأولى من ثمراته إنما كانت تلك الحساسية الدقيقة التى أطلقنا عليها اسم « الضمير » وهى حساسية صادقة مرهفة تتأثر بعوامل نمو الحياة ، وتتفتح لها وتركن إليها وتحبها وتحتمى بها ، وتستكثر منها وتسميها « خيراً » ، وتتأثر بعوامل الدمار والألم والفناء وتنقبض عنها وتفر منها وتدفعها وتسميها « شراً » .

ولا شك أن الذى وجه الأنواع كلها إلى طرق حيواتها المختلفة ، لايجوز أن يكون قد وجه حياة الإنسان إلى غير طريقها . فغير معقول أن يستثنى الإنسان وحده من بين الكائنات الأرضية ، ويدفعه فى طريقٍ خطأٍ غير طريق حياة قدرها له ؛ فما عهدنا فى الطبيعة عبثاً أو استثناء من قواعدها العامة إلى هذا الحد ! وفيماذا يكون الاستثناء ؟ فى الانسان : الابن البكر للأرض !

لاشك إذاً أن الضمير كان هو المجرى الخفى لحياة الإنسانية ، وأنه ميزان حياتها ، وأنه « إبرة البوصلة » تهديها إلى طريقها المقدر لها، وتتجه بها إلى قطب الحياة الأعظم !

وما وقع لى مرة أن أغفل الحق فى غمرة من غمرات الشهوة الحقيرة ، إلا وجدت له رهبة تزلزل قدمى وتطمس النور فى عينى ! فالحق يقظ جداً . أو قل إن الضمير متيقظ لحراسته جداً .

وأنت إذا تصديت للدفاع عنه ، ثم استعملت فى سبيل ذلك الدفاع شيئاً من الباطل ، شعرت — إذا كنت ذا ضمير — شعوراً صاعقا ، أن ذلك الحق الذى تدافع عنه بالباطل ، انقلب فى عقلك الباطن ووعيك الظاهر ، إلى سلاح مهاجم لك يقول : لا ! لا ! طريقى ليست من هنا ..

أنا ما جئت إلا لأزهق الباطل .. لقد ضللت وأضللت بى .. ارجع !

* * *

ومهما يكن من شىء ، فهل أضر نشوء الضمير حياة الإنسان أو نفعها ؟ هل كان من الممكن أن تنشأ تلك الحياة الاجتماعية السامية المعقدة العظيمة فى غير ظلاله ؟ وهل قامت حضارة من الحضارات العظيمة التى أثرت فى تقدم الانسانية بغير سلطانه ؟ وهل من الممكن أن يحل شىء آخر محله فى الوصاية على الحضارة والثقافة والحقوق والواجبات ؟ هل تستطيع حضارتنا هذه على قوتها وعظمتها وتعدد أفانينها أن تتحرر من سلطانه وما نشأ فى أحضانه من أخلاق ، ثم تحيا بعد ذلك وتستمر فى نمو وازدهار ؟

إن حدود الخير والشر التى ندين بها ، وصورهما التى نعرف ، إنما هى نتائج « عملية » تمت فى خفاء فى باطن النفوس الإنسانية ، فعزلت طائفة من الأخلاق والأفعال واعترفت بها ورضيتها وأسمتها « الخير » أو « البر » أو « المعروف » ، وعزلت طائفة أخرى منها أنكرتها وكرهتها وأسمتها « الشر » أو « الإثم » أو « المنكر » . ولن تجد أمة ولو كانت متوحشة تنكر بفطرتها أصول الخير والبر التى رضيتها حضارتنا وتتألم منها ولا تستجيب لها ، وترضى أصول الشر وتُسَرُّ بها وتستجيب لها بفطرتها .

نعم قد تنكر الخير والبر فى خارج دائرتها الخاصة وتأبى فعله مع غيرها من الأمم ، وترى من الخير لذاتها والبر بها أن تفعل الشر مع الأمم الأجنبية عنها ، ولا تشعر بوحدة الضمير بينها و بين سواها .. ولكن هذا

لايكون إلا فى تلك الجماعات الصغيرة التى لا تزال تعيش على هامش الحضارة ، ولا تزال متخلفة تخلفاً كبيراً عن سير الحياة بالأمم العظيمة .

على أن هذه الظاهرة إن وجدت فى المتوحشين ، فيخيل إلى أنها سرعان ما تزول منهم إن نشأ ناشئوهم فى أحضان مذاهبنا الخلقية وحضارتنا وثقافتنا . فليس إنكارهم للخير العام طبعاً أصيلا فى نفوسهم لايتخلون عنه . وقد مرت جميع الأمم بذلك الدور حين كانت الفرديه طابع الحياة الإنسانية . ثم تحولت الفردية والأنانية إلى غيرية وإيثار فى نطاق الأسرة ثم فى القبيلة ثم فى الجماعة ثم فى الأمة ثم فى الأمبراطوريات واتحاد الولايات . وإذا اطردت النتائج مع مقدماتها ، فستنشىء معارك هذه الحروب ضميراً عالمياً أوسع وأرهف ، بعد أن وجدت مقدماته من وحدة الثقافة العلمية والفكرية والفنية أو تقاربها فى الأمم ، ومن اختزال الأبعاد والمسافات بين بقاع الأرض ، حتى صارت أمريكا بعالمها الجديد النائى جارة للعالم القديم ، ومن اهتمام الكثرة الغالبة بقضايا الإنسانية وإحاطتهم بتفصيلات حيوات الشعوب والأجناس ، ومن اختلاط الناس فى نطاق واسع ، واشتباك مصالحهم اشتباكا ليس منه فكاك .

وإنى كلما رأيت تلك « التشكيلة » العجيبة التى حشدتها بريطانيا فى جيوشها بمصر ، من زنوج إفريقية وهنود آسيا وصُفْرها وبيضها ، ومن جنود أسكتلندا وإرلندا وكندا وجنوب إفريقية ، مضافا إليهم تلك التشكيلة الأمريكية وسائر الأحلاف .. أشعر شعوراً ساراً متفائلا ، خصوصاً إذا رأيت الجنود الزنوج والماورى وغيرهم من الأمم التى تعيش

على الفطرة إلى الآن ، يرتدون ملابس الجنـد الإنجليز والأمريكان ، ويتحدثون حديثهم ، ويخضعون للنظم العسكرية خضوعهم ، ويَمهرون مهارتهم فى قيادة الطائرات والسيارات وسائر الآلات الدقيقة ، وقد خرجوا من أدغالهم وأكواخهم وصحاريهم وكهوفهم إلى العالم المتحضر ينظرون ويدركون ما يدرك إخوانهم السابقون فى العلم والمدنية ، ويشاركون « الرجل الأبيض » أهدافه ويحاولون اللحاق به .

وإن عملية الخلط والمزج هذه التى تجريها هذه الظروف بين شعوب الأرض جميعاً ، هى لا شك من بركات هذه الحرب الكثيرة اللعنات ... وما كان لعامل آخر فى ظل التدرج والتطور أن يفعلها ، مادامت هناك نزعات استعمارية ووصاية جائرة جشعة خائنة من الشعوب السابقة على الشعوب المتخلفة .

وأحسب أن هؤلاء الجنود الملونين المتخلفة أممهم ، لن يرضوا بعد عودتهم إلى ديارهم أن يعيشوا عيشهم قبل الحرب ، بل لابد أن يعلو مستواهم ومستوى أمتهم تبعاً لهم ، ولا بد كذلك أن يزول منهم كثير من روح سوء الظن وقبح الثقة بغيرهم من الأمم بعد مخالطتهم إياهم وامتزاج دمائهم فى سبيل غاية واحدة .

* * *

هذه الإنسانية تتحدث الآن جميعها عن نبأ عظيم واحد : هو المثل العليا المرجوة لحياة الناس بعد هـذه الحرب ، وقضايا الحق والعدل ، بعد أن أصابها جميعاً طائف من آلام الحرب وفظائعها ، وقبح آثارها .

ولا بد أن يتسع ضميرها ويجنح من القومية الضيقة والأنانية الغاشمة ، إلى نزعات إنسانية شاملة سامية ، يتجرد فيها الحق والعدل من العَنْعَنَات والنعرات الجنسية التى طالما تقسّمته وتوزّعته ، وخلعت عليه من ضيقها وسفهها ما جعله حقاً لدى قوم وباطلا لدى آخرين ، وما جعله يوماً شرقياً وآخر غربياً . مما أورث كثيرين من المفكرين شكا فى وجود الحق وريبة فى تحقق العدالة بمعناها الجليل الجميل المرسوم فى الصحف المأثورة وفى الفكر المثالى .

وإذا تجرد الحق والعدل من النعرات والتعصبات ، ووضعا فى نصابهما المثالى أمام الإنسانية جميعها أبيضها وأسودها وأحمرها وأصفرها ، وطبقت آثارها عليها فى حراسة الضمير بدون تحيز وتمييز ، فقد وصلت الإنسانية حينئذ لفردوسها المؤقت المنشود ، وتفرغت لما يجب أن تتفرغ له وحده ، وهو فتح مجاهيل الطبيعة وكشف أسرارها ، وتسخير قواها لتقليل المشقة وزيادة المنفعة .

غير أن الناس لسوء ظنهم بأنفسهم ، ولقبح رأيهم فى الإنسانية ، وانعدام أملهم فى سمو مستقبلها ، لا يحاولون أن يأخذوا أحداث هذه الحرب وظواهرها أخذ دراسة وتمعن واتعاظ بعبرها ، بل يحسبونها طبيعة من طبائع الحياة لا يمكن أن تتخلى عنها الإنسانية . ولذلك لا تحتاج لديهم إلى تفكر وتدبر مخلصَيْن للنجاة من أهوالها بقطع دابر أسبابها .

وسوء ظنهم بأنفسهم ، وقبح رأيهم فى الإنسانية أثران من آثار الماضى الجاهلى الذى كان فيه الضمير الإنسانى ضيقاً ، والتفكير البشرى

محدود الأفق ، والخلق رهين الغرائز المنحطة ، والجهد عاجزاً قاصراً عن إدراك العلوم والأعمال الكثيرة البركات والمخففة المشقات .

ولذلك تمنيت ولا أزال أتمنى أن نتحرر من التاريخ ، وأن نكون أبناء الحاضر العظيم الذى سما فيه فكرنا وجهدنا ، وانكشفت لنا فيه من الطبيعة أكثر الوجوه التى كانت مستورة غامضة ، وأدركنا أطراف جسم أمنا الأرض ، وأنواع مواليدها من الجماد والحيوان والنبات إدراكا بالمقاييس الدقيقة والمعايير العلمية التى وزنت دقائق صنع الله وأبرزتها لنا واضحة جلية .

والواقع أن الدنيا برغم كثرة المتعلمين والمتحضرين فيها ، لا تزال مجتمعاتها مسيرة بآراء غير آراء المفكرين والعلماء المدركين لحقائق الحياة والباذلين جهودهم لتذليل العقبات وجلب المنافع . والذين يمسكون دفة المجتمعات ويديرونها ، هم الذين كان أمثالهم يسيطرون عليها فى القديم . وأكثرهم من السماسرة والدجالين ومحبى الجاه والمناصب للسيادة والخيلاء والانتفاع الشخصى واللعب بالشعوب وشفاء الحزازات والأحقاد .

ولا تزال خمائر الماضى تبث جراثيم الفساد فى الحاضر ، فيبنى الجديد بأنقاض القديم . وقد تتغير الصور والأشكال ولكن الجوهر باق كما هو . وقد حسب الناس أنهم ماداموا قد لبسوا لبس المتحضرين ومشوا برشاقتهم وحركاتهم ، واصطنعوا أدواتهم فى الزينة والرياش وطرق الأحاديث ، فقد تغيرت الدنيا وصاروا فى مدنية القرن العشرين ، بينما قلوبهم وغرائزهم على ما كانت عليه قلوب قوم « نوح » وغرائزهم ...

وينبغى أن نفرق بين الحضارة والثقافة : فالحضارة هى العيشة الجسمية فى الحضر، وهى تكسب الأشخاص رقة ورشاقة وخبرة بمواضعات الناس الاجتماعية وزيهم وحركاتهم ، ولكنها لا تكسبهم ثقافة عقلية خلقية عميقة تتصل بأصول الحياة والآراء والمذاهب والعقائد والأفكار والأخلاق والمعلومات التى يقوم عليها بناء حياة صحيحة . أما الثقافة فهى العيشة العقلية والقلبية بالمعلومات الحديثة والأفكار والآراء الصالحة .

ومع الأسف لا يزال المتحكمون فى الشعوب أكثرهم متحضرون غير مثقفين : يدركون صور الحضارة وقشورها ، ولا يدركون جوهرها ولبابها ، ولا يحسون حاجات الزمن ، ولا يعيشون فى قمة الفكر والعلم ، بل لا يرونها ؛ إذ ليس لديهم أدوات النظر .

فمن أين لهؤلاء الحاكمين أن يسيروا بمن تحت حكمهم من الشعوب إلى أهداف الإنسانية العليا وغاياتها المشتركة ، وأن يفقهوا لغة الحوادث ويسمعوا نداء الزمان ، ويروا تلك الخطوات المطردة التى تخطوها الإنسانية فى طريقها إلى غايتها المجهولة ؟ ومن أين لهم أن يقلبوا ضمائر الشعوب الضيقة الأنانية إلى ضمائر إنسانية عالمية تمهد لحياة السلام والاستقرار الدائم ؟

إن الأمل الوحيد هو فى المربين الذين يتولون الناشئين فى جميع الشعوب. وواجبهم أن يوقظوا ضمير كل ناشىء ، ويوسعوا مجراه حتى يشعر بمعنى الإنسانية الحقيقى ، فلا تكون حياته المدنية طلاء ودهانا فوق جلدة قرد وحشى !

وحسب الحياة ما لقيته من كيد هؤلاء الذين لهم مَساليخ الآدميين

وقلوب القرود ، وما تحملته من أنانيتهم وسفالاتهم التى شوهت وجهها وجعلتها مأساة دامية !

وكل يوم ، بل كل ساعة تصطدم حواس الذين لهم إخلاص الفكر والقلب بما يشوه جمال الحياة ، ويضع تحت الأضراس حجارة قاسية من الغيظ والاضطرام والألم الماحق لبشاشات النفوس وإيمانها بالعدالة فى حياة المجتمع !

وما قذف الإيمان بالإنسانية فى قلوب هؤلاء المؤمنين ، ونبههم إلى قيمتها الحقيقية ، إلا رؤية هذه الطبائع الممسوخة . . فما كانت الإنسانية لهذه المهازل والآلام والجرائم والسفالات التى تَزخَرُ بها المجتمعات الفاسدة التى يسيطر عليها من يأخذون الحياة كأخذ السباع والذئاب والكلاب والخنازير ، فهم لا يفهمونها إلا على وجه الختل والسطو والجريمة والنباح والعُواء والتهويش والانحطاط . .

ولسنا نحلم بجنة فى الأرض كاملة الأوصاف ، فيها ملائكة من الناس يحكمون ... ولكننا نريد بيئات تدين بمثل عليا على الأقل فى الحقوق العامة — ودع عنهم الحقوق الخاصة .

فإلى الضمير : ذلك المصباح الذى توقده يد الله دائما فى ظلمات القوى العمياء التى تعجُّ بها مَتَاهاتُ الحياة وحنايا الصدور ، ولن تستطيع أعْتَى الأعاصير أن تطفئه أو تخنق شعاعه — إليه يجب الفرار للاعتصام من أمواج هذا الظلام !

التحرر من التاريخ

التحرر من التاريخ — نحن غير البائدين — تلاميذنا أصح علما بالطبيعة من أرسطو — العلوم والفنون ليست تحفاً تقتنى منفصلة عن النفس — لابد من قلوب حديثة — من جرائر التاريخ — الإنسان يصنع كثيرا من أقداره استطراد إلى مشكلة القدر — الى المنتظرين بعثا من غير نفوسهم — الآن فقط وجد الحق أدوات كاملة للدعوة إلى تصحيح الأفكار عن الحياة — عباب التاريخ يجرف الطفولة النضرة مع الجيف القذرة ! — لامفر من عزل الطفولة لتصحيح أفكارها — مناقضات بين مافى الشوارع ومافى الجامعات صورة من دراستنا الحالية للتاريخ — طبائع مدلسة ليست بنت زمانها — مايستهلكه الشر — هل مضت الحاجة الى دور الغرائز فى خدمة الحياة ؟ — حرب الآلهة

طالما ألححت على التاريخ : هذا الجدار الهائل ... هذا السد القوى .. هذا السجن العتيد ... لأحطمه وأنقذ نفسى من جوه المعتم الخانق !

وطالما قلت مادام هذا الماضى القاصر الجاهل المخرف الوحشى يحمله الإنسان فى أوعيته وأعصابه إلى الحاضر ، فهو دائماً فى ضلاله القديم ، كما يعيش حامل الميكروبات الضارة دائماً فى أمراض ونكسات .

والحقيقة التى يجب أن توضع نصب العيون الآن ، هى أن هذا الإنسان العصرى ، هو غير الإنسان البائد بلا شك ! هو غيره فى علمه وإدراكه للطبيعة وتذليله لعقبات الحياة واضطلاعه بأدوات تحقيق الاحتياجات ، وتفتيحه لكنوز الأرزاق والأقوات .

فكيف يرضى أن يحمل ذات قلبه القديم وغرائزه كما كانت ، وأن يحمل غشاوات القرون الأولى ليعيش بها فى عصر الانكشاف والظهور والقدرة الفائقة ؟ !

كيف يرضى من ملك زمام اليابس والبحر والجو ، وذَرَع الأرض بالطول والعرض ، ونبش كنوزها ، أن يعيش بأساليب الذى كان لا يعرف غير طريق القرية أو النجع أو الجزيرة التى يعيش فيها ؟

إن تلاميذ المدارس الابتدائية أصح علماً عن الأرض والطبيعة من سقراط وكونفوشيوس وأرسطو وابن سينا والفارابى وغيرهم من حكماء القدماء ؛ فكيف ترضى الانسانية الحالية أن تعيش حياتها النفسية بأساليب جهلاء عصورهم ؟ !

إن التاريخ النفسى للحياة الانسانية ينبغى أن يدرس بعين غريبة عنه ناقدة له فى شك وتمحيص ، فما هو إلا سجل جهاد الناس فى سبيل وصولهم إلى حقائق هذا العصر الحالى ؛ وما يليق أن تؤخذ مرحلة من مراحله محطاً يطمئن الناس إليه بعقولهم ؛ لأن مراحله السابقة كانت مراحل موضعية ضيقة خاصة بأمة ما من أممه ، ولكن أمر أمم الناس الآن أمر جماعة توشك أن تتقارب أهدافها وتشتبك مصالحها وتَشْتَجِر اشتجاراً لاخلاص لفروعها منه ، أبت أم كرهت .

هل من المعقول أن نلبس ملابس الحياة الحديثة على الأجساد ثم لا نغير ملابس النفس ؟ أنكون قروداً وببغاوات تحكى قضايا العلم بألسنتها وظواهرها ولا تمثله قلوبها ونوازعها ؟

هل يكفى من العلم أن يقتنى فى الحوافظ والذاكرات غير ممزوج ولا مُدْمَج فى الأعصاب والأحاسيس والانفعالات ، وأن يوضع فى الرءوس كما توضع التحف والدُّمَى على الرفوف والمناضد للزينة والخيلاء والبيع والشراء عند الحاجة ؟ !

إن العلم ينبغى له أن يكون فى كياننا كالماء فى أعواد الشجر الحى ، لا يقف تسربه إليه وإنماء حياته إلا إذا جف وأحْطَبَ ومات .. فلا شجر بدون ماء .

إن « جراحة » عظيمة فى داخل الحياة النفسية الإنسانية ننتظر إجراءها لبناء قلوب حديثة تتلاءم مع الأفكار الحديثة !

* * *

ومن آثار التاريخ فى الحياة العصرية هذا الخلاف العنيف بين سَدَنة الأديان بعد ماسطعت شمس الله الواحد ... وبعد ماأدرك العقل التناسق والانسجام والتوافق بين قوانين الطبيعة مما لا يمكن أن يكون إلا بإدارة يد واحدة !

ومن آثاره فيها أننا لانزال نخضع لمنطق الأمم التى كانت تعيش متحاجزة فى سدود وتخوم تفصل بين عقولها وأخلاقها ومرافقها ، وتجعل الدنيا دنيوات ، والانسانية الواحدة أنواعا متباعدة ، وتجعل من اختلاف الأجناس والألوان واللغات اختلافا أصيلا جوهريا بين الطبائع الإنسانية يبيح هذه العداوة الفاجرة المَرِيرة المخربة للعمران ، ويحمل على المبالغة فى البطش والطغيان ، ونسيان الصفات المشتركة بين بنى الإنسان .

ومن آثاره أن أكثر الناس لم يدرك بعدُ مدى الانتقال العظيم ، والترقى السريع ، والتفاوت البعيد بين الحياة قبل القرن العشرين والحياة فيه ؛ ولذلك لايزالون يضمرون فى أنفسهم اعتقادات متشائمة فى الإنسان ومستقبله ، ويدينون فى الحياة بدين السخط وإطلاق الغرائز الخطرة والآراء التافهة التى تجعل الإنسان يَعْبر الحياة بدون أن يجتهد فى ملء نفسه بأسرارها ، وفى إضافة كشف أواختراع أومنفعة أو فهم إلى ميراث الحياة الإنسانية ... وليس هناك شىء أضر على الحياة الإنسانية من نزعة التشاؤم والتبرم والسخط على حاضر الإنسان ومستقبله !

ومن آثاره أننا رضينا أن يعيش أكثرنا جاهلا أمياً لا يفقه مبادىء العلم والحياة التى فى رءوس العلماء ، مع أن نمو تلك الأسرار يتغير ويتقدم كل صباح ومساء . وكأننا بذلك وأدْنا هؤلاء الأحياء ودفناهم كما كانت تفعل جاهلية العرب بموءودة الأجساد ... وكان هذا الإهمال منا كفعل من يرى أهله يموتون ظمأ واحتراقاً ، وهو على علم بمنبع ماء غزير يطفىء غلّتَهمُ ولوعتهم ويحيى نفوسهم ، ولكنه لا يسعى إلى إنقاذهم ...

ومن آثاره أننا نعيش فى ذهول عما يحيط بحياة الإنسان الآن من كنوز تتفتح وأعاجيب تخترع ، فترى الناشىء منا ينشأ بين القطارات والسيارات والطيارات والراديو والتليفون والغواصات والفوتوغراف والسينما وغير أولئك ، ثم يجهل أمرها وتركيبها ولا يدرى عنها شيئاً ، ولا يكلف نفسه سؤال أحد عن نبئها العظيم ... كأن ذلك شىء تافه أو أمر بدهى لا يحتاج إلى فكر شديد وتعجب بالغ !

ومن آثاره أننا برغم إدراكنا الآن كثرة الأقوات وكفاية الأرزاق كثرة وكفاية تشبعان حاجات الإنسانية جميعها ، لو وزعت توزيعاً معقولا بدون احتكار وتحكم وإتلاف لجانب من المحصول فى سبيل الاحتفاظ بالأسعار المرتفعة ... لا نزال نطيع الجشع والطمع ونعصى دواعى العدالة والرأفة بالطبقة المحتاجة المجهودة !

ومن آثاره أننا لا نزال نغطى عجزنا وكسلنا بالاستسلام لما نسميه « الأقدار » ، مع أن مفتاح كثير من الأقدار بأيدينا ، ومع أننا نرى فى الظاهر أننا نصنع أغلب أقدارنا ، ومع أن دائرة الإيمان بالأقدار فى الدين لا تتعدى منطقة الصبر على المصائب والكوارث التى تأتى إلينا بدون حيلة أو خيرة منا ، ومنطقة الرضا بما نحصل عليه بعد الجهاد ...

وهنا مكان استطراد إلى مشكلة الأقدار لا بأس أن نرسل فيه بعض الحديث :

* * *

هناك أقدار نريد أن تتحقق ، وهى أقدار الخير والسعادة ، وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتى :

أن نسعى جهدنا للتمهيد لتحقيقها بالأخذ بأسبابها التى تهدينا تجاربنا إلى أنها عواملُ جالباتٌ لما نسعى إليه ؛ فإن تحقق ما نبغى فذاك ، وإن لم يتحقق — وهذا قليل نادر — علمنا أن الإرادة العليا المسيطرة على وجودنا ، لها غاية غير غايتنا فى تلك المسألة التى نسعى لتحقيقها . والإيمان بتلك الإرادة يقضى حينئذ بالاذعان والتسليم لقدرها العالى الذى لا حيلة معه

وهناك أقدار نريد ألا تتحقق ، وهى أقدار الشر والشقاء . وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتى :

أن نسعى جهدنا للتمهيد لدفعها بالأخذ بالأسباب التى تهدينا تجار بنا إلى أنها عواملُ دافعاتٌ لما نخشاه ونتجنبه . فإن كان ما نبغى ، فذاك ، وإن لم يكن ، كان أيضاً الإذعانُ والتسليم للارادة العليا .

تلك هى مشكلة الأقدار فى جانبيها . وفى كلا هذين الجانبين رأينا أن على الإنسان أن يقدم جهده فى التمهيد لها أو دفعها . فإذا وقف أمامها منتظراً مكتوف اليدين مشلول التفكير ، كان حرياً أن تأتى إليه أقدار الخير فلا ينتفع بها ؛ إذ لم يبذل لها جهداً من فكره وأمله ، وكان حرياً كذلك أن تنزل عليه أقدار الشر فلا يسعى لتخفيفها ، وأن يجزع منها جزع الذى يظن أنه كان فى مقدوره أن يدفعها ولكنه قصر فى ذلك ، فيظل ملوماً محسوراً ...

* * *

والحياة العملية ذات البراهين البريئة من الجداليات توحى إلينا ، بل تحدثنا بكلمات مقروءة مسموعة بريئة من غموض الرمز والإيماء ، أن الذى ينتظر أقداره بدون أن يسعى لجلبها أو دفعها ، لن تكون حياته إلا كحياة ذلك البدوى ساكن الصحراء الذى لا يعمل عملا لجلب الماء ، وإنما هو ينتظر سقوطه عليه من السماء . وطبيعى ألا تكون آماله بيده ، وأن يعيش حياته معرضاً لأخطار الظمأ والجفاف ، معلق القلب ، مهدد العيش ،

يتجدد قلقه كثيراً لأنه لم يمسك من أسباب الحياة إلا بحبل بعيد ، هيهات أن يكون فى يده دائماً ...

وأنّى تكون حياة هذا البدوى من حياة بدوى آخر ، سعى حتى اهتدى إلى ضفاف نهر تمسك منابعه بحوالب السحاب ، وتجلب الماء إليه جارياً ميسوراً ليده وأفواه دوابه وقطعانه ، ثم هو بعد ذلك يقيم الخزانات ويشق السواقى والقنوات ، ليصل منها الماء إلى كل بذرة بذرها !

لاشك أن كليهما أخذ من مصدر واحد ، ولكن أحدهما حمل نفسه على العُشرى ، والآخر حملها على اليُشرى ... وشتان ما بينهما !

فلينهض الراقدون على آذانهم فى الشرق الإسلامى مستسلمين فى صغار لعوامل الشقاء والحرمان ، حاسبين أن أحوالهم ضربة لازِبٍ ، حتى يأتيهم آت من غير أنفسهم ، ينفخ فى الصور ، فإذا الأرض حولهم جيوش وجحافل ، ومصانع ومعامل ، ومعاهد ومعابد ، وحقول وجنات وعيون ، وإذا هم — بقدرة قادر ! — آلهة فى الأرض يحكمون !

لينهضوا وليحرروا أنفسهم من قيود التاريخ النفسى الذى انحدر إليهم من الجاهليات ، فهم يعيشون به فى الماضى ، وإن كانت أجسادهم تلبس أثواب القرن العشرين ...

ولتكن قوارع هذه الحرب أجراساً وأبواقاً تجمعهم وتدفعهم إلى السير مع قافلة سريعة المراكب ، متلاطمة المواكب ، غليظة الأثقال ، حاشدة جبال الحديد والفولاذ والقوى العارمة المجنونة التى يقول قائلها : « أنا القدر ! أنا القدر ! يابنى البشر ! »

هل لنا أن نزعم أن الحق وصل إلى نفوس أكثر الناس فأدركوا صدقه وجماله ثم مع ذلك رفضوه ، وحينئذ يحق لنا أن نتشاءم فى مستقبل الإنسان ؟

أحسب أنه لم يصل فى عصر ما من عصور التاريخ إلا إلى القليل من الناس . وإلى الآن لم تقم دعوة إلى الحق الواضح فى الطبيعة بدون أن توضع فى طريقها أغشية وعقبات ومعوقات تحجبه وتمنع الناس من إدراكه .

والآن ، وقد تيسرت أدوات الدعوة وأدوات الإقناع وأدوات التربية يجب بدء دعوة ...

وإن فى الناس لخيراً كثيراً جداً أعظم مما يتضح من النسبة التى نجدها فيهم الآن ...

والدليل على ذلك ، نجاح الدولة الإسلامية الأولى ونجاح أمم الشمال فى أوربا خلقياً وعلميا ، فقد أثرت فيهم التربية حتى أوشكت بلادهم أن تخلو من السجون والجرائم والخيانة ، حيث الثقة بالنفس الإنسانية وطيدة .

إن أدوات صحة النظر فى الحياة واتجاهاتها ، موفورة الآن لأغلب سكان الأرض ؛ ولكنهم مأخوذون عن ذلك بجرائر التاريخ . وكان من الواجب بعد العلم الغزير أن يوجد الفكر الهادىء والقلب الكبير الذى نضج وطاب ؛ ولكن عُبَاب التاريخ وسيوله لا تزال تجرف الطفولة والبذور مع الجيف والقش والغثاء ، وتلقى الجميع إلى المصبّ الذى تلتقى فيه الأخلاط من الضلالات التى تركها أبناء الجهالة الأولون ...

فلا مفر من فصل البذور والطفولة وعزلها عن مجرى سيل التاريخ ،

وإنشائها بأيد غير ملوثة ، إنشاء يرضى به هـذا الزمان وعلومه وفنونه ، ويؤهل الانسانية لتلك الخلافة الواسعة المتعاونة فى جهاد الطبيعة واستنزال بركاتها وثمراتها .

ولا مفر من تصحيح الفكرة عن الحياة وتوجيهها إلى الإيمان بها كرحلة ممتعة أتاحها القدر لمن يخرج من العدم ، فيجب صرفها فى العمل والفرجة والاطلاع على ما يمكن الاطلاع عليه من آفاقها .

ولا مفر من تحويل عبقرية الفكر إلى عبقرية القلب والخلق والجسم . فالعلم والفن يجب صقل النفس بهما ، وإشراب الجسم إياهما ، وإخراجه على مقتضاهما ، بحيث لا تتخلف حياة النفس والجسم وقواه وحركاته عن المدى الذى وصل إليه الفكر ، وبحيث لا يتخلف ما فى الشارع والحقل عما فى مدارس الفنون والعلوم والتجارة والزراعة وما اليها ، حتى تكون حياة الجماعة صورة ومظهراً صادقاً لحياة الجامعات والأندية الثقافية ، ولا يكون فى الأمة مفارقات ومناقضات بين حياة الفكر وحياة الواقع .

ولا مفر من حمل كل إنسان على أن يدرك نفسه ، ويستغرق فى التفكير فى حياته وحياة الإنسانية ، ويتيقظ لتلك القوة والقدرة التى تتسلط بها الإنسانية على القوى العمياء الجبارة وتسخرها فى خدمتها .

وما الإنسان بدون يقظة المعنى الفائق والروح السامى الذى فى حياته إلا جسد يختلج ويضطرب فى ذهول وبلادة ، ويحيا هكذا حياة مغناطيسية آلية .

* * *

ولكى ندرك جرائر التاريخ على العقول ، وأثره فى تدليس الحاضر وإفساده وتزوير النفوس ، سأعيد عليك حديث صورة لا تجهلها عن طرق دراسته على ألسنة العجائز وفى المدارس ومجالس القصص :

يتفتح عقل الناشىء منا فتلقنه عجائز بيته ، وشيوخ قومه ، ومعلمو مدرسته تاريخ قوميته ، وتاريخ الإنسانية بأغلاطه ونقائصه ، ومحاولات العصور القاصرة فى فهم الحياة ، وجهاد الإنسانية فى شق طريقها الأول بين الصخور والمتاهات والعقبات ؛ فما يكاد عقل الناشئ يصل إلى دور الحكم والموازنة ، حتى يكون قد تطبع بما وعى ، وأصابه ثقل التخمة ، وحيرة الامتلاء والتبلبل .

ذلك لأن التاريخ لا يدرس على أنه محاولات أولية من الإنسان ، فيها أخطاء كثيرة ، فيجب الحكم عليها حكم دور الرشد على دور القصور ، ولكنه يدرس وعليه طابع التقديس والإعجاب بالأقدمين والاعتزاز بهم فى مغالاة وتصعب ، وبخاصة تاريخ القوميات والجنسيات .

وكان من كبرى نتائج ذلك ، أن عاش كثير من الماضى السيئ فى الحاضر . بل وجدنا جماعات تفر من الحاضر لتعيش فى الماضى وترى أنه كان الحياة . . ! وتمدّحَ الناس بما فعلت الجدود وقالوا إنا على آثارهم مقتدون .

فلم يفتح أبناء العصور المختلفة عيونهم على حياتهم فى زمانهم ، بل فتحوها على الماضى وعاشوا به فى الحاضر ، وظهر أثر ذلك فى الافتتان بهوامش الحياة ؛ والعكوف على دراسة سطوحها ، وترك دراسة أصولها

وعلومها النفسية الطبيعية والتجريبية التى تبقى لها نتائج دائمة تسلم إلى نتائج أخرى فى سلم الترقى والتطور .

وقد لاقى أكثر الناس الحياة بطباع مدلسة ليست بنت زمانها ، وإنما هى بنت الماضى السحيق ، وحملوا معهم فى رحلة العصور خرافات ووثنيات وسخافات احتفظوا بها ، حتى فى القرن العشرين ، ووضعوها حواجز وعوائق فى طريق الحياة الحديثة ذات المعجزات والنبوّات الدائمة التى لا تحتمل جدلاً أو مَخْرقَة !

وكان من نتائج ذلك أن وجد المصلحون فى كل عصر ركاماً من الغباوات والجهالات توضع فى طريق دعواتهم إلى الإصلاح والعلم وفتوح الذكاء ونور البصيرة ...

* * *

ليس قبيحاً جداً بالطفل أن يعترك مع إخوته على شىء يريده لنفسه ويريدونه لأنفسهم ، فيتصايحوا ويتضاربوا ويحطموا ما أمامهم ؛ لأن الطفل يعيش بالغرائز ، فهو أنانى ضيق التفكير ، لا يدرى أن أباه يملك الكثير ، ولا يفهم فضيلة الإيثار إلا بعد التمييز والتدريب .

ولكن ما بال الأمم التى رأت خيرات الله تملأ فجاج الأرض ، تتقاتل على البحر الزاخر والحقول المُمْرِعة والجو الواسع ؟ إن ذلك من أخلاق الطفولة ، وضيق آفاقها ، وتحكم الغرائز فى حياتها . وهذه صفات وجدت لها فى مخلفات التاريخ مبررات وحججاً وتأريثاً !

ومن العجائب أنهم يدمرون ما يسعون إليه من الغنى والثروة حين

تثور غرائزهم ! و إن الحقد والشره والطمع لتستنفد وتهلك من مال الأمم الأثِرة الجشعة ، ومن بذلها الدمَ الفياض ، ما لا يمكن للخير والسلام والإحسان والتعاطف والتفاهم أن يستهلكه أو يستهلك عشر معشاره ! !

ونظرة واحدة إلى النفقات اليومية للأمم المتحاربة الآن تكفى فى البرهنة على هذا ، وعلى أن الإنسانية ما دامت مصروفة عن طاعة الحق والعدالة والحسنى ، إلى تحكيم الغرائز الدنيا والانحدار فى مجرى التاريخ ، فسوف تظل هكذا تعمّر لتدمر ، وتعلم لتجهل ، وتتقدم لتتأخر .

وكأن المقصود بحياة الإنسان ، إذا استمر على هذا ، هو تحقيق مشتهيات الغرائز ، و إظهار عبقريات النفس البشرية فى التخريب بعد التكوين : فهى طوراً تبنى وتعيش فى صفات البناء وأخلاقه ، وطوراً تهدم وتعيش فى أخلاق الهدم وصفاته ، لتدرك معالم الضدين المتقابلين الأبديين : الخير والشر ...

ولكن إن صح هذا كتعليل لحياة الشر فى الماضى ، حين كانت الحياة محتاجة إلى دوافع الغرائز لتدريب الإنسان فى طفولته على ما تهيئه له الأقدار فى مستقبله ، ولحمله على الاقتحام والكشف وتفتيق الحيلة ، وحين كانت نتائج ثورات غرائزه محدودة ضيقة لا تتعدى أضرارها إلى هدم أصول الحياة ، وتحطيم أسس الاجتماع ومخلفات الإنسانية ذات الحرمات والقيم التى لها اعتبارها ، كما هى الحال الآن فى نتائج هذه الحرب .. فلن يصح الآن هذا التعليل بعد أن صار قتال الإنسان كقتال الآلهة لا كخصام الأطفال !

وقتال الآلهة — لو كان هناك آلهة إلا الله — تخريب لأصول الحياة ، وسحق لبراعمها ومناطق نموها . وهم يعلمون بالطبع طرق التسلل إليها والإطباق عليها ؛ لأنهم — فرضاً — خالقوها وواضعو أسرارها ...

فلنوحد الإنسانية بعد أن صار لها قوة الآلهة فى التخريب ، كما وحدنا الأرباب !

ولنعلُ بأرواحها وأفكارها عن مستوى بنات الطين والتراب ، من كل ذات ظفر وناب !

٣

فى أصول الاجتماع والسياسة والاقتصاد

obeikandl.com

عقيدة الجنس !

قلوب الأمهات — حدود الجنس — الإحساس بالمجتمع فى الذات — فى الدورة الصغرى — للدورة الكبرى — جوهر واحد فى ألوان مختلفة — منطقة التلاقى والاتفاق — سدود العامية تنهار .

يَدين اللهُ الإنسانَ أن يشعر فى أعماق نفسه شعور الإحساس بالجنس البشرى ، و بوحدته معه وفنائه فيه ، وخدمة أفراده ومجموعه وأهدافه العليا .

وفى ضمائر بعض الناس أغوار عميقة رحبة فى حبها الإنسانية وشعورها بها و بوحدتها معها ، كأنها قلوب الأمهات فى شعورها بأبنائها ...

لاشك أن هذه القلوب تستمد من فيوض رب الرحمة والعون والحب ! ولا شك أن ضمائرها تأخذ من ضميره تعالى وتنظر إليه دائما ...

ولن أستطيع أن أفسر التضحية الكاملة والغَيْرِيَّة والإيثار العجيب ، تلك الصفات التى نجدها فى قلوب خدام الانسانية وآبائها ورُوّادها ، إلا اذا قلت إن يد الله تعمل فى هذه القلوب ، وتتصل عن طريقها بخدمة الحياة وحفظ لبابها ، وتعمل أعمالها العظيمة للإصلاح عن سبيلها .

و إلا فما هذا الشعور العميق عند هؤلاء بالفناء فى خدمة الجنس ؟ ! إنه من عالم غير أرضى . . . و إلا فما هى العدالة التى رضى البشر جميعهم الدعوة إليها منطلقة من تلك القلوب ، ولَهِجُوا باسمها ، وطالبوا بإقامة الدول والمجموعات البشرية والعلاقات الدولية على أسسها ؟ إنها إن لم تكن

مستمدة من عدالة السموات ، فما هى إلا لفظ كعلبة فارغة يملؤها كل حاكم قوى بما يهوى .

إن هذه القلوب ذات العمق والاتساع ، تشعر شعوراً أكيداً أن كل ظلم أو فساد يقع على إنسان أو مرفق من المرافق الصالحة لحياة الإنسان ، إنما هو واقع عليها بالذات ، وتحس لسعة الأفعى كلما أصاب الأفراد أو المجموع ظلم أو فساد .

لا شك أن الله تعالى خلق هذا النوع من القلوب لحفظ المجتمع القاصر وإرشاده ، كما خلق غرائز الأمومة والأبوة لحفظ الطفولة وإرشادها .

ودائما يشعر هذا الصنف من الناس أن حدوده مع الله تعالى تكون حيث حدود الآخرين ، وأن منطقة متاخمة ذاته لذواتهم يقف عليها حارس يقظ ، هو ذلك الذى يسمونه الضمير ، ومعه جرس التنبيه ، تدقه يد الله من داخل النفس ، فلا يسمع رنينه إلا حامله ... وهو حارس حريص على أن يرفع صوته دائما ، سواء استجيب له أم لم يستجب .

وحيث تتنادى أكثر ضمائر الإنسانية وتتقابل أصواتها على شىء ما فثَمَّ حدود الجنس كما أقامها الله !

والإنسان الاجتماعى ينبغى أن تكون له عقلية وشعور وآمال تغاير ما يكون للفرد الآبد المتفرد مغايرة تامة . وليس الأمر فى الانتساب إلى جماعة والعيش معها ، أمر عنوان أو رابطة ظاهرية ، وإنما هو أمر عميق فى النفس ، لا أمر خوف من الانتقادات ، أو قوانين العقوبات ... هو أمر إحساس بالذات فى مجتمعها ، أو بالأحرى أمر إحساس بالمجتمع فى

الذات ! وكل مصائب الاجتماع ناشئة من ترك أدوار النمو فى الفرد بدون رقابة وتعهد رشيد يسهر على إنبات النفوس نباتاً اجتماعياً مسالما ، لا غواً شيطانيا طاغيا . وإن حياة الجماعة يجب أن تَخْضِد الأشواك فى أعواد الأفراد ، وتجمع تلك الأعواد كما تجمع طاقة الزهر فى تنسيق وتصنيف لاتختلط معه أشواكها الحادة المُشْرَعَة بأوراقها الرقيقة الحريرية فتمزقها تمزيقا ، وتعكس المطلوب من جمال منظرها مجتمعةً ، إلى قبح منظرها مجتمعة ممزقة ...

أجل ، إن براثن الناس وأنيابهم فى الأمم المنحطة التى لاتزال الفردية والأنانية متغلغلة فيها ، تمزق وجوههم وتقطع روابطهم ، فتبدو حياة اجتماعهم قبيحة الظواهر قبيحة البواطن ، ويشعر حينئذ الانسان الحر العامر القلب بالمعانى السامية ، أن حياة التفرد والعزلة أجمل وأكمل وأدعى الى راحة الفكر ، وصيانة أمانات الحياة فى النفس .

والناس لا يزالون فى دورتهم الصغرى حول نفوسهم وذواتهم وقومياتهم . لايزالون محكومين بأنانيتهم ورغباتهم الخاصة ، كما يحكم الأطفال بغرائزهم الدنيا وحدها . أما دورتهم الكبرى كجنس عظيم يعمر الأرض ويثيرها ويسخرها مسددا الى هدف واحد ، فتلك لمّا يشعروا بها بعد ... مع أنها من الغايات العظمى لخلقهم .

إننى أشعر أنه يجب أن نسقط اللغة والوطنية والقومية الآن من حسابنا حين نتحدث فى شأن الإيمان بالجنس ، وأن ننظر إلى الإنسانية الواحدة من أزلها إلى حاضرها ، ونتخيل مستقبلها ، لنراه وحدة جامعة تسير فى

دورة كبرى بخطى مطردة فى طريق تعلو وتسمو .

وقد أخذت كل أمة تقريبا دورها التاريخى فى حمل الشعلة على طريقتها الخاصة ، حتى ضعفت يدها عن حملها فتسلمتها أخرى ، ثم وصلت الحال الآن إلى أن الأمم جميعها توشك أن ترفع بأيديها مجتمعة شعلة الحضارة .

و إننا حين نجرد الأشخاص الإنسانية من جلودها الملونة وألسنتها المختلفة ، نجد جوهراً واحداً فى قلوبها وعقولها ؛ فالعواطف الشريفة والنوازع الحسيسة واحدة فى الجميع ، والاستجابة لحجج الحق والعدل واحدة فى عقول الجميع .

وفى كل مكان وجدنا زرعا إنسانيا متشابها فى طباعه واجتماعه على المعانى الكلية التى تنظم حياته ، وفى تلبيته لدواعى العلم والدين والجد واللعب والحياة والمجد . وما وجد فى مقادير ذلك من تفاوت ، فهو لا يضير وحدته ، ولا يمنع الاعتقاد بأنه من بذرة واحدة .

نعم إن الله بذر بذور النوع الإنسانى فى بقاع الأرض المختلفة الطبيعة ، وجعلها تنبت متباعدة فى عهد طويل ، حتى تكونت الإنسانية الحالية منوعة الظواهر بفعل الأمكنة والتربية واختلاف اللغات ، وتنوعت أفكارها تبعاً لذلك .

فمن أراد بعد ذلك أن يمحو آثار ذلك كله ، فهو جاهل خائب . ولكنه يستطيع أن يجمعها على صفاتها الكلية المشتركة وجوهرها الواحد ، و يقيم حياتها السياسية والاقتصادية على العدالة التى تدركها عقولها وضمائرها

جميعاً ، ثم يترك أمر تفرقها فى الفرعيات بدون محاولات .

فالناس لا يمكن جعلهم أمة واحدة فى غير العدالة والمجال السياسى والاقتصادى ، لأن غير ذلك مناقض لقوانين الفطرة فى اختلاف الناس اختلافا كبيرا فى الأمزجة واللغات والألوان وسائر الفرعيات ؛ إذ أن خالقهم أراد تمايزهم وتنوعهم هكذا ليتعارفوا ، وتكثر معانى المعرفة بينهم تبعا لكثرة التفرع والتغاير والتميز والاختلاف ، ولأنه نوَّعهم كما ينوع البستانى الحاذق الثمار والأزهار ، فذلك أجمل وأوقع ، وأدعى للتنشيط وكثرة المعلومات والأذواق .. أما التوحيد السياسى والاقتصادى فى نطاق واسع مشترك ملحوظ فيه حق كلٍّ وواجباته ، سواء أكانت «الوحدة» فى ذلك النطاق الفرد أم الأمة ، فذلك ممكن ما دام مدعماً بوسائل القوة والسرعة والإخضاع للتنظيم ، واحترام السلامة الإجماعية ، واشتراك الجميع فى إخضاع الثائر على نظام الجميع .

ومهما فعلت « العامية » فى نفوس الساسة المتخلفين عن ادراك هذه الحقائق السامية فى حياة الجنس ، والقاعدين عن الوصول إلى قمة الفكر والخلق ، الذين يأبون أن يعترفوا بما توحى به حقائق العلم والإيمان وسَيْر الزمان ، ويقيمون الحدود المصطنعة بين جوهر القلوب والأفكار التى وحدها الله ، ويجعلون الفروق السطحية موانع وعقبات كأداء لا يمكن اجتيازها — مهما كان من ذلك ، فان السيل الجارف والتيار الدافق النابع من عالم الفكر الإنسانى والضمير الواحد ، سوف يجتاح ما أقاموا من سدود ويدمر ماصنعوا « وباطلٌ ما كانوا يعملون ! » .

وقد انبثقت البُثُوق فى تلك السدود ، واتسعت الثغرات بما قدمته الكهرباء الساحرة ، والأثير الجامع ، والعلم ذو الطبيعة الواحدة الموضوعية وبما قدمته الحروب القديمة والحديثة من مزج الدماء ، حتى يخرج منها لون جديد تراه بصائر الأبناء بعد هلاك الآباء !

وان أحداث القوة والدم ، وفتوحات الروح والعلم ، هى التى تستطيع دائماً أن تجعل دائرة الجوهر الإنسانى الواحد أساسا مشتركا لتلاقى الضمير الواحد للأمم والأفراد ، على استنكار جرائم القوة والدم ، والاستكثار من فتوحات الروح والعلم .

obeikandl.com

النقص والتكامل

الإنسانية الواحدة — أدوار نمو الإنسانية هى أدوار نمو الفرد — من وحى الحرب المصرية — مقدمات الوحدة — عصر القبيلة الأممى — الأقدار تفصل الجسم الواحد — دفع وهم — الحيرة فى أمريكا — أم مجنونة وبنت عاقلة — من توحيد الأرباب إلى توحيد الإنسان — لا حياة مع هذه الحرب — قيامة صناعية — سلم طويلة من حرب خاطفة — المبضع من السيف — دم الحرب دم مخاض — معان تبقى من أمم تفنى

ألمس فى نفسى ، وفى كل فرد عرفته من أمتى مهما كان عظيما ، نقصاً أجد تكميله عند غيرى وغيره . وهذا مما يؤكد فى فكرى أولا أن الدولة جسم واحد يكمل بعضه بعضاً ، ولا يستقل عضو منه بحياته إلا ظهر مبتوراً ناقصاً . وكماله وجماله فى أن يَتَضَامَّ إلى غيره ، ويتعاون ويصبر على مضايقة ذلك الغير حتى يستطيع إدراك الكمال الميسور .

وكذلك ألمس فى كل أمة نقصاً أجد تكميله لدى غيرها من الأمم . وهذا مما يؤكد فى فكرى ثانياً أن الأمم فى المجموعة البشرية ، كالأفراد فى مجموع الأمة الواحدة ، كل منها لها ميزة تكمل غيرها ، وفيها نقص يكمله غيرها .

فالفرد الكامل الذى يستطيع أن يحيا وحده لم يخلق بعد ولن يخلق .

والأمة الكاملة التى تستطيع أن تحيا وحدها لم تخلق كذلك ولن تخلق . . .

تلك حقيقة توحى إلينا الإيمان بالإنسانية الواحدة ، وتحتم علينا أن

تتناسى مواريث الوحشية القديمة والعصبيات الأولى ، وأن نفكر للحياة الواحدة المستقبلة التى يصح أن تنتظم الإنسانية جميعها ، بعد أن ذهب عنها دور الطفولة التى كانت فيها حدود الأرض ومعارفها مجهولة ، ومواردها وأرزاقها محدودة .

ويعظم فى نفسى يوماً بعد يوم وجه الشبه بين سير الحياة بالفرد الواحد من طفولته إلى رشده إلى شبابه إلى كهولته ، وبين سير الحياة بالإنسانية جميعها من طفولتها إلى شبابها إلى كهولتها .

وإنى أكاد أجزم أن خطوات سير الحياة بالإنسانية كلها ، هى خطوات سيرها بالفرد الواحد . وكل من يتفرس فى الحياة الاجتماعية يجدها وحياةَ الفرد سواء فى تدرجها من الغرائز والعواطف إلى الرشد والعقل

وكما يحصل للطفل والشاب أن يغضب كثيراً ، ويكون أنانياً فردياً فى حاجاته ، ويحطم ما أمامه ولا يبالى النتائج ؛ كذلك الإنسانية فى دور طفولتها : أنانية غضوبٌ تحطم كل شىء فى سبيل منفعتها الضيقة .

ولكن كما تمنع التربية وضبط الأعصاب وفعل الزمن الرجولة من أن ترتد إلى أساليب الأطفال وغرائزهم ، وتحبسها عن الغضب والتحطيم — إلا إذا امتدت فيها حياة الطفولة ، للشذوذ أو عدم تقدير النتائج — كذلك الإنسانية لا بد أن تصل إلى هذه المرحلة فى يوم ما قريب أو بعيد . . .

يوحى إلىَّ ذلك ، ما أراه فى الحرب الحالية من عنف التحطيم وشدة البأس ، وجنون الإنسان ، وقسوة الآلة ؛ بحيث لا يمكن مطلقاً أن تحتمل

الحياة بعد هذه الحرب ، إذا لم تقمع الغرائز والحماقات التى أثارتها ، وإذا لم يوضع أساس حياة مشتركة الإنسانية الواحدة التى ابتدأت وحدتها تبدو وتستعلن فى هذه المجموعات الكبيرة من الأمم ، وهذه الرباطات الوثيقة بينها ، ومن اختزال المسافات والأبعاد واشتباك المصالح ، واشتراك مناهج الدراسة والثقافة العامة ، ومن معرفة كل جنس بخصائص كل جنس ، ومن الدراسات المنظمة ، والمؤتمرات الجامعة ، والجمعيات العالمية ، ومن كثرة الأسفار وامتزاج الطبائع ، واختلاط الأجناس ، وتفكير أرباب التجارات والأعمال فى الأسواق العالمية ، ومن تبادل تعلم اللغات والأغانى والملاهى وأدوات الزينة ، ومن « الصندوق السحرى » : الراديو الذى سيصوغ حواس الطفولة وقلوبها غير صياغة قلوب الآباء الذين نشأوا محجوزين ، محجوبا بعضهم عن بعض بالسدود والحدود والتخوم ، ومن « السبورة السحرية » : السينما التى تنقل الدنيا وناس الدنيا ، وتعرض الجميع على أنظار الجميع فى حجرة ضيقة .

* * *

يصح أن نسمى عصرنا الحاضر « عصر القبيلة الأممى » . والإنسانية كلها الآن تمر به كما مرت كل أمة بعصر القبيلة . واشتداد التناحر بين مجموعات الأمم المختلفة فى هذا العصر ، هو صورة مما كان يحدث بين القبائل فى الأمة الواحدة .

ولم يحمل القبائل المتعادية فى القديم على الصلح الدائم والاندماج والوحدة الشعبية ، إلا ما كان بينها من حروب وتخريب وتعطيل للحياة .

فلما رأت أنه لاحياة مع الحرية الكاملة والوحشية المطلقة ، تنازلت كل قبيلة عن بعض حقوقها وحرياتها ، ورضوا ذلك ، إما بضغط الأقوى الأعدل ، وإما بالإدراك الصحيح الموقف ومراعاة مقتضيات الحياة .

وكذلك كان الأمر فى تكوين الأمبراطوريات المختلفة : حروب ونزاع مستمر ، وتخريب الممالك والملوك ، ثم اتفاق أخير ونزول من الجانبين عن بعض المصالح فى سبيل المصلحة التى لا غنى عنها للجميع .

وكذلك تكوّن الاتحاد السوفييتى ، والولايات المتحدة الأمريكية من جنسيات وأديان ومذاهب مختلفة ، بعد حروب ونزاع دمر حياتهم فى بعض مراحل تاريخهم .

وكذلك وجدت البذرة التى لا بد أن تنمو بعد هذه الحرب : وهى بذرة « عصبة الأمم » التى سيحافظ الغالب والمغلوب فى هذه الحرب على إيجادها وجوداً فعالا مسلحاً (١) ، لا وجوداً صورياً كالذى كان عقب الحرب الماضية .

وعندى يقين غالب ، أن الأقدار تفصّل الآن بالحديد والنار جسم الإنسانية الواحدة ، ذات الحكومة الواحدة ، كما فصلت جسم كل امبراطورية على حدة ، كما فصلت جسم كل أمة على حدة ، كما فصلت جسم كل قبيلة على حدة ، كما فصلت جسم كل أسرة على حدة ، كما فصلت

---

(١) نحرر هذا للطبع مصادفة فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٤٥ (بعد أن نشرناه فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٤١) ومؤتمر « سان فرنسيسكو » مجتمع لتكوين « مجلس الأمن الدولى » المستند إلى قوة عالمية . وفى قلوب الانسانية التى دمرتها الآلام صلاة حارة أن ينجح الله هذا الأمل العظيم ، وأن يوفق الجميع للإخلاص فيه وتجنب أسباب انهياره .

obeikandi.com

كل جسم على حدة ، كما فصلت كل عضو على حدة ، كما فصلت كل خلية على حدة ... !

هو قانون واحد ينتظم الكون كله ! قانون الجزىء والذرّة هو قانون المجاميع . . والالتحام السياسى واللغوى والعلمى والاقتصادى فى المجموعات الكبرى والأمبراطوريات واتحاد الولايات ، هو الوسيلة إلى ذلك الأمل المنشود .

ولا يتوهمن واهمٌ أنى أزعم أن الخلاف سيذهب من الأرض كلا . وإنما سيبقى كما هو ، فى حدود الدولة ، بين الأحزاب والآراء والمذاهب الاجتماعية ، وكما هو بين الأسرة الواحدة ، وكما هو بين القوى المتنازعة فى الفرد الواحد : بين العقل والعاطفة والغريزة ؛ لأن الدفع قانون طبيعى كقانون الجذب ، ولكنه دفعٌ لا يفلت من قانون القوة والقهر ، كما هو الحال فى الدولة الواحدة القوية التى لا يفلت منها من يريد الخروج عليها

إن نفوس الأجناس وطبائعها تتغير تغيراً سريعاً من التمايز إلى الاندماج والاتحاد السياسى . فلم يبق فى الولايات المتحدة نعرات أجناس ، وإنما صارت كتلة سياسية واجتماعية واحدة بمرور جيل أو جيلين ، و بتوحيد اللغة العامة .

والولايات المتحدة « خميرة » للحياة الإنسانية المقصودة . هى نموذج ناقص ، ولكنه أقرب إلى الكمال من غيره ، وكان من الواجب أن يحذو العالم القديم حذو هذا العالم الجديد السعيد ، و يترك مواريث التاريخ السيئة ، وعصبيات الأجناس ونعراتها ، ويتفق على الحد الوسيط الذى يرضى

الجميع ، مع التضحية ببعض الاعتبارات والحريات .

أوربا ولدت أمريكا . والبنت هنا أعقل من أمها وأسعد ! فلا تزال القارة العجوز تحتفظ بأحقادها القديمة ، ومواريث تاريخها السيء فى عالم الحسد والبغض والخديعة والبطش والتنازع . ولا تزال تشقى الأرض كلها معها . بينما أمريكا تسعدها وتجدد الحياة يوماً بعد يوم ، وتنثر الأفراح والمباهج فى كل مكان .

لقد برئت أمريكا من حب الاستعمار والتنازع عليه ، فبرئت من الشعار الذى يصاحبه ، و برئت من الصفات الذميمة التى تصاحب خلق الافتراس . وصارت حبيبة إلى جميع أمم الأرض .

اتخذت الطريق المشروع إلى الغنى والثروة ، وهو طريق التجارة والمنافسة المحمودة واستغلال الموارد الطبيعية ، لا طريق الغصب والغِلاب ، فأخذت تجمع من هذه الطرق المشروعة وتعيش بما تجمع ، وتوزع منه على مؤسسات البر والعلم فى بقاع الأرض ، ثم لاتُفجع فيما تجمع ، ولاتحترق وتدمر معه كما جرى لأمم أوربا .

وتورطها فى الحرب الماضية والحالية إنما كان لتأمين هذه الطرق المشروعة ، وللدفاع عن أقرب الناس إلى عقائدها فى الحياة .

* * *

لقد خطا الإنسان بإدراكه عقيدة توحيد الله خطوته العظمى إلى الكمال العقلى والقلبى ، حين رأى أن العالم كله يساق بيد واحدة ، وتوزن أموره بميزان رب واحد ، فيجب أن يتجه بقلبه إليه وحده .

وسيخطو خطوته العملية والعلمية العظمى ، حين يدرك « الإنسانية الواحدة » ويؤمن بها . وكما حلت عقيدة توحيد الإله مشكلات الاعتقاد ، ووجهت الحياة وجهة واحدة ، بعد أن كانت موزعة على أرباب متفرقين . كذلك سيحل الإيمان بوحدة الانسانية مشاكل وعُقَدًا مستعصية ، وتتجه به الأمم وجهة واحدة ، هى وجهة الخير المشترك ، بدل الخير المتفرق الضيق الأنانى ، ووجهة العلم البانى المعمر ، بدل العلم المخرب المدمر ...

لقد كان منطق الفُرقة والتنازع العنيف بين الناس معقولا فى الأزمنة الماضية التى كان بين الأمم فيها حواجز سميكة من الجهالة والأسفار الطويلة واللغات المجهولة ، والثقافات المختلفة إلى حد التناقض ، وانحطاط الأهداف ، وكان دور تحكيم الغرائز مقبولا لحمل ذلك الإنسان الجاهل على التسابق العنيف إلى كشف بقاع الأرض المجهولة ، لا للذة العلم وسمو المعرفة ، وإنما لمنافعها المادية الضائعة ، إذ لم يكن له علم وعقل يغنيانه عن الغريزة . وكان الاختلاف الحادّ بين الناس متمشيا مع منطق أحوالهم حينذاك ، لأنه لم يكن هناك أفق عقلى أو علمى أو عملى مشترك بين أمة وأمة متجاورتين ، بَلْهَ المتباعدتين ، ولم تكن الظروف لتسمح بوجود ذلك الأفق المشترك إلا عن طريق الحرب التى كادت تكون الوسيلة الوحيدة للاختلاط بين المتفرقين ، والتعارف بين المتجاهلين ...

أما الآن فقد صار هذا التفرق والتنازع ضاراً بالجميع ، قاطعاً للعلاقات التى تنمو فى وقت السلم نمواً عظيما غزيراً لم يكن له مثيل فى العصور الأولى ، وصارت العودة الى تحكيم الغرائز ارتداداً وانتكاساً فى الحياة كانتكاس

الرجل الحليم إلى غضب الطفولة الذميم ؛ إذ قد صار فى يد الإنسان من أدوات الهلاك والدمار أشياء فظيعة تهدم الحياة من أساسها ، وتسحق براعِم نموها ، وتجعل العمل للحياة والسعى لها فى وقت السلم ، عبثاً لا طائل تحته ، ما دامت الحرب تأتى بعد ذلك لتأكل الأخضر واليابس ولا تبقى ولا تذر .

وقد ثبت الآن أن كل ما يصل إليه العلم من أدوات السيطرة والتغلب على قوى الطبيعة ، وأدوات ترف الحياة ومباهجها ، يتحول إلى أدوات دمار و إبادة إذا ما ثارت بالأمم ثورة الحرب و براكين الحقد الدفين .

فلا أمان على الحياة من شىء مع غضب الإنسان . وقد عاد شعار الجاهلية القديم الذى كان يهتف به المحاربون القدماء ، وهو تلك الصيحة : يامنصورُ أَمِتْ !

وكانت الأديان والأخلاق قد جعلت للحرب فى العصور المتوسطة قوانين فيها بُقْيَا على مناطق نمو الحياة ، وفيها ذكرى للود القديم والدم والنسب وصلة العلم والفن والعمران ، وكانت الحرب تجدها فى وقت احتدامها ما يخفف آلامها من نبل الفروسية ، ورحمة القادرين ، ووصايا القواد بالضعفاء والمرضى والشيوخ والأطفال والنساء والحرث والنسل :

إذا اختَرَبتْ يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القُربى ففاضت دموعها !

أما الآن فاذا بطشوا بطشوا جبارين ! لا يذكرون طفولة ولاشيخوخة ولا مخلفات فنون وعلوم وآثار ثمينة ، هى ملك الإنسانية جميعها .

ومن كان يظن أن الإنسان الأوروبى العالم الفنان الذى فتنته أحاسيس

الحياة وجن بها جنوناً ، فعبدها فى الزهور والرياحين والحب والألحان والعناية بالطفولة ، واقتنى التحف والمخلفات الأثرية من الجماجم والعظام والأحجار والحرزات ، ولم يدخر فى سبيلها مالا ، وجمع مجموعات النبات والحيوان ، وحرص على استخراج كنوز الأرض ، والتقى على صفاء فى المجامع العلمية والأدبية والملاعب الرياضية والمؤتمرات العالمية ، وتَبادَلَ تعلم اللغات ، وسكن جميع بقاع الأرض ، وعرف آلام الأجسام والأرواح ، وأنفق الأموال الطائلة على نبش الأرض ليستخرج منها حلقة مفقودة تنير له تاريخ الإنسانية التى يعتز بها ... من كان يظن أن من فعل كل أولئك يجرؤ على أن يهدم حاضر الإنسانية بكل ما حمل فى طياته من الماضى ، ولا يبالى أن يزهق الإنسان ومدنه وكل ما حمله عقله وقلبه ! !

فأين عالم الدفاتر والمحابر والمنابر والمؤتمرات والمجامع والمعاهد والمعابد ؟ أين عالم العقول والقلوب ؟ أين الشعر والفن والرحمة والحب والجمال والخير ؟ أين المعانى التى سجلها الدين والأدب عن الآلام ، ودارت عليها فلسفات وقصص ومسرحيات ؟ أين مؤسسات الرفق بالحيوان ؟ أين كل « الدراما » و « التراجيدى » التى كانوا بها يبكون فى المسارح على آلام الانسانية ؟ !

أكانت ملاهى وملاعب لا أكثر ؟ يا لها إذاً من خديعة عبقرية !

ولكن هذه هى الحرب العصرية : صورة مصغرة من أهوال « القيامة » . . بل القيامة ساعة ثم تنقضى الحياة ويستريح الناس بالموت إلى حين . . ولكن الحرب العصرية « قيامات » لا عدد لها . بها يموت

الناس و يبعثون ، ثم يموتون ويبعثون ، كلما شنت عليهم غارة جوية إلى أن تضع الحرب أوزارها .

فيا بنى الحياة ! أى حياة هذه !؟

إن الله أرحم بالناس من أن يجعلهم لمثل هذه الحياة . والناس أرحم بأنفسهم من أن يحيوا مثلها . إنها مرحلة لا بد منها فى طريق الإنسانية الشقية إلى الاستقرار والراحة واللقاء الذى لابد منه بعد الافتراق والتقلقل .

ومن بين ظلمات هذه الحرب الخاطفة السريعة يلمع نور السلام البطىء الطويل ..

ومن بين نيرانها وزلازلها وبراكينها يبدو برد الحياة وثباتها واستقرارها .

ومن بين قسوة القلوب فيها ، بقسوة الآلات والمدمرات تلوح عواطف الرحمة والحب .

لقد كان من نتائج الحروب الكبرى دائماً ابتداء دورة زمنية بالإنسان وانقلاب فى أوضاع الحياة . والذين عاشوا قبل الحرب العظمى الماضية و بعدها يدركون الفرق الشاسع بين الحياتين .

هذه السرعة التى فى آلات الحرب ستكون فى آلات السلم مضاعفة . وكما استحال سيف الحرب إلى مِبْضَع للطب ، ستستحيل جميع آلات الدمار إلى آلات إنتاج وتعمير ورفاهية وهدم للسدود والعقبات فى طريق تعمير الحياة .

ولا شك أن تشبيه الحرب بحادث المخاض والولادة تشبيه صحيح

من كل وجه . . فكل حرب تلد مولوداً من الطباع والأوضاع والأفكار والآلات والمرافق .. مولوداً يجدد الحياة ويقذف فى شعلتها حطباً !

ولا ضير فيما يصحب ذلك من الألم والدم واالهزّة والخوف ؛ فكل هذه أعراض تصحب حادث الولادة فى حياة الانسان . . .

ولن تضيع سدى تلك الأرواح التى ذهبت قرابين المعانى السامية فى قلوب الأمم المحاربة لإقرار الحرية والحق والسلام ؛ وإنما هى لَبِناتٌ فى البناء الخفى للوجود الانسانى .. وإنها كلها حية تنظر إلى عراك الجماعات فى عالم الظواهر كعراك ذرات تحملها الريح ، أو حصى يحمله ماء السيل حتى تبلغ مكانها المرصود فى بناء الوجود ...

وسواء أوضع حجر فى خفاء الأساس ، أم رفع فى علانية القِمّة ، فالكل بناء واحد ...

وتبلغنا أنباء انكسار أمة وانتصار أخرى فلا نلتفت إلى الأفراد فيها ، وإنما يعلو عنوانها أو ينخفض ، وهى صورةٌ موحدة ليس فيها توزيع ، فتفرح كلها بالانتصار ، ولو باد فى سبيله كثيرون ، وتستاء كلها بالانهزام ولو انتصر فيها كل فرد نصراً فردياً ، وأتى بأعمال البطولة المعجزة .

فهل لأصحابنا الفرديين الأنانيين أن ينظروا موضع الفرد من الأمة على ضوء نار هذه الحرب ، وموضع الأمة من مجموعة الأمم التى تنتسب إليها ، حتى يتبينوا أنه لاوجود إلا للمعانى العامة التى هى ملك الدولة أو الإنسانية جميعها ؟

إن هذه النظرة إلى المعانى الكريمة العامة تجعل الناس يحملون السلم بقلب عارف بها ، ويحاربون إذا كتبت عليهم الحرب بسيوف كمباضع الأطباء : تقطع لتشفى ، وتقتل فتُحسن القِتْلة بدون مُثْلة ولا نِيَّة إثم أو جريمة ، وتجعلهم خصوماً شرفاء رحماء ، يحاربون بروح رياضية كأنهم يلعبون ، وتجعل من السيوف ظُلَلاً للضعفاء والمسالمين .

وتلك نظرة الربانيين المؤمنين بالله وبالإنسان : أثمن ودائع الله فى الأرض !

الواحـــد !

البحيرة الـكبيرة من المنبع الصغير — هذه الحرب من قلب واحد — صمامات التيارات العظمى — الفرد المنشود عالم معقد — التبادل بين الفرد الواحد والانسانية الجامعة — توزيع الدنيا على الأفراد والأفراد على الدنيا — من جذور الشجرة الانسانية الى ثمارها — لابد لحياة الشجرة من اعتراف كل جزء فيها بكل جزء

تظهر بوضوح قيمة الفرد البشرى الواحد ، ومبلغ آثار تصرفه ، فى تدبير تشرشل أو هتلر أو روزفلت أو إينونو أو ابن سعود أو ستالين أو أيزنهاور أو أمثالهم ؛ فإن تصرف أحدهم يجر على أمته إما الحسنى والفخار ، وإما السوء والدمار .

ففى أمثال هؤلاء يتبين كيف يجر فرد شعبه أو العالم وراءه فيخفضه أو يرفعه . ومعنى هذا أن الفرد البشرى ذو قيمة كبرى فى حياة الاجتماع ، وأن وضعه هذا يحتم على الدولة وعلى العالم أن يحترسا دائماً من سوء تصرفاته ، وما يجلبـه على الاجتماع من الضر ، وأن يحفلا دائما بحسن تصرفاته وما يجلبه إلى الاجتماع من النفع .

فتصرف الفرد فى الحياة الاجتماعية أشبه بتصرف ماء مستبحر من ثلم رخو على أرض منخفضة ، يبدأ ضعيفاً ، ثم لا يلبث أن يتحول سيلاً جدوراً لايستطاع رده .

ومهما قيل فى حكم الديمقراطيه المطلقة ، والشورى الفضفاضة ، فروح

الانتقال والبطولة وفتح آفاق جديدة ، تتركز غالباً فى فرد واحد ، وخصوصاً عند الأزمات الخطيرة ، ويكون هذا الفرد حينئذ كموضع نبع الماء فى البحيرة التى يكوّنها ويكوّن آثاره وعظمته بها : فموضع النبع صغير ، ولكنه هو البحيرة الكبيرة فى الواقع .

وكيف انبثق هذا الدمار فى هذه الحرب على العالم ؟ لقد انبثق من قلب رجل واحد ملىء بالحقد والضغينة على الذين رآهم لم ينصفوا أمته . وتجمع الحقد والضغن فيه ، وانتقل منه إلى أمته ، كما يتجمع القيح والصديد والرَّحَضُ فى رأس خُرّاج ، فيصيب جسم صاحبه بالحمى والرِّعدة ، ولا يمكن سده إلا بعد التصفية النهائية .

فهل بعد هذا يحتقر بعض الأمم شئون الفرد الواحد ويتركونه مهملاً زاعمين أنه لا وزن له إزاء الأمة أو العالم ؟ !

وهل قام الخير أو قام الشر إلا بواحد ؟ الواحد هو أساس العدد اللانهائى .

وهكذا ، إذا أراد الله أن يتصل بالناس اتصال تغيير فى نظمهم المعاشية أو السياسية أو الدينية ، وضع يده فى قلب واحد ، وسلط منه تياراً خفياً على الجميع . فإذا كان يريد خيراً بالعالم أطلق تيار الخير من قلب رجل الخير ، وإذا كان يريد نقمة وقصاصاً أطلق تيار الصعق والحرق السريع أو البطىء من قلب رجل الشر .

فلنجتهد أن نجعل قلوب الأفراد مواضع ليد الله حين يريد الخير .

* * *

والعناية والمشيئة الإلهية التى تخرج وجوه الناس ونفوسهم وعقولهم صوراً شتى متمايزة ، مهما كثرت الأعداد ، بحيث لايتشابه وجهان ، ولا يتماثل عقلان فى كل شىء ، حتى ولو كانا لتوأمين ، ترشدنا إلى أن نرى فى كل فرد جانباً متميزاً من الإنسانية ، وأنه موضع عناية وقصد من مخرجه إلى الوجود .

ولو فهمت الدولة قيمة القصد فى الفرد الواحد ، وخطره فى الحياة فى حالتى صلاحه وفساده ، إذاً ما كانت تسمح لنفسها أن تترك فرداً دون أن تمر عليه بمنظار مكبر يكشف عن أدوائه ومنافعه .

فالفرد إما بؤرة ظلام ونجس وفساد متنقلة تحمل الجراثيم الفتاكة معها حيث حلت . . وإما بؤرة صلاح وطهارة وإشعاع تحمل وتعكس عوامل الحياة والجمال معها حيث حلت . وشتان مابينهما ! فكيف تهمله الدولة هذا الإهمال الشنيع وهو ما هو فى جسمها ؟ !

لو أفلت فرد شرير شيطانى من قيادتها وحراستها ، إذاً لعاث فساداً فى حرثها ونسلها وعمرانها . ولو ضاع فرد ملكى من رعايتها وتعهدها وتشجيعها ، إذاً لضاع عامل عظيم من عوامل نموها وارتقائها وسعادتها ولعل فيه ما يرفع النوع كله .

ويظن أكثر الناس أنه يكفى لإنشاء « الفرد الإنسانى » أن نطرح بذرة منوية فى رحم من الأرحام ، تولد بعد مدة ، فتنمو حتى تكون ذلك الجسم المعهود الذى يملأ أسواق الحياة . . ونسوا أنهم فى إنشاء شجرهم وغراسهم وحيوانهم يسلطون يقظتهم وعلمهم وتعهدهم الدائم ، حتى يحصلوا

على مايريدون من الأصناف المطلوبة المرغوبة ، وأنهم يسهرون لمحاربة الآفات التى تدنو من حرثهم وحيوانهم .

ألا إن الإنسان المنشود عالم معقد ، ليس الجسم الظاهر إلا وعاءه وقالبه ! أما سره ومعناه ولبابه ، كما يريد رب الحياة من « النوع » ، فأمور لاتظهر الى عالم الاجتماع إلا إذا اجتمعت لها عوامل الحياة الصالحة بنسب موزونة .

وإن الروح التى عنها يتحدثون ، هى نتيجة تفاعل الحياة الحيوانية فى الجسم مع نتائج التربية والبيئة والتعليم وجميع المؤثرات . إنها كائن ينفصل عن الجسم كنتيجة وجود هذه العوامل الأرضية المختلفة . وإن من أدواتها ذلك اللوح الحفى السريع التأثر ، الذى ينطبع فيه مايقع عليه أو يتخايل أمامه من المؤثرات .

فالذين يلقون « بذور » الإنسان فى الأرحام ، ولا ينتقونها قبل إلقائها ، ولا يهيئون لها الجو الصالح وهى فى مستودعها ، ولا البيئة الصالحة وهى فى نشأتها ، ويتركونها هكذا تتداولها العوامل الطبيعية مصادفة ؛ هؤلاء ينبغى ألا ينتظروا من الحياة أن تعطيهم تلك الوحدات الإنسانية المنشودة القريبة من الكمال فى صفات نوعها .

* * *

والإنسانية ملكُ الفرد ، والفرد مِلْك الإنسانية . وما كان من المستطاع أن يحصّل الفرد الإنسانى مايحصّله الآن من الأفكار والمعلومات والتجارب والأرزاق والمتاع لو أنه عاش فريداً متأبداً معتزلا حياة الاجتماع

فنحن جميعاً بإزاء بحار المعانى يأخذ كل فرد منا غرفة منها يلونها فى إنائه بلونه الخاص ، ثم يقدمها إلى غيره من الناس . وكلما أضيف فرد إلى المجموع ، زاد أفق من آفاق الحياة فى الأرض . ولن يمكن أن يحل فرد محل آخر ؛ فإن كل ثمرة إنسانية لها سر خاص لا يرى فى سواها . وإنى ماجلست مجلساً مع فرد ما ، إلا رأيت فيـــه صورة للدنيا لست أراها مع غيره .

ومن العجيب أن كل فكر يريد أن يطبع الإنسانية على غِرَارِه هو ويحملها على حياة تصدق منطقه الخاص ، مع أن التوزّع والتمايز بين الوحدات الإنسانية قانون مطّرد .

وينطوى فكر كل فرد على صورة للدنيا غير الصور التى فى أفكار الآخرين ، فكل فرد يرى الدنيا من خلال نفسه ، وكأن الأكوان عدد العقول . .

وما أعجب أن تقرأ وجوه الناس ورءوسهم ! إنها صفحات يبدو للناظر العَجْلان أنها سطحية ضحلة ، ولكنها للناظر المتمهّل المتفرس ، تقذف به إلى لانهائية ذات أعماق . . والعيون هى مسالك تلك الأعماق !

هكذا يثير وجه كل فرد وعقله صورة من صور الدنيا . وكل فرد كأنه الحياة كلها مستقلة ، حتى ليخيل إليك أن الدنيا الإنسانية تنقص بموت فرد واحد ، وأن مكانه لا يملؤه غيره ، سواء علا أم سفل ، علم أم جهل . فتوزيع الدنيا على الأشخاص ، وتوزيع الأشخاص على الدنيا ، يعطى صورة فنية أو حبكة مسرحية يحشد فيها الفن الرفيع ، والإخراج البديع

ولذلك قالت التوراة والقرآن : « أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ... »

ومن هنا جاءت قداسة الحياة الفردية فى الشرائع ،واستنكر الاعتداء عليها استنكاراً إجماعياً . وقدأعطت الإنسانية الفرد حرية تخيلتها لنفسها ، واستوحتها من إحساسها العام وضميرها المشترك .

* * *

والإنسانية كجسم شجرة واحدة : فيها جذور لابد أن تعيش فى الطين والظلام والعفونة ، لتحلل غذاءها وتأخذه عناصر بسيطة تركب منه ماتشاء من اللباب والقشور والأزهار والثمار والعطور ، إلى آخر مافى عالم الأشجار .

وفيها سيقان لا بد منها لتحمل غيرها وترفعه إلى عالم الجو والضوء والنسمات .

وفيها أوراق تبلغ من الكثرة حداً كبيراً يرتفع إلى مستوى الزينة ويشترك فى صميم العمل الضرورى لحياة الشجرة ؛ لأنها « رئات » يتنفس بها الشجر .

وفيها أزهار وهبها واهب الحياة العطر والجمال ، وأخرج فيها روحاً خاصاً يخيِّل للناس أنها ليست من عالم الطين والعفونة والتحلل والظلام .

وفيها ثمرات هى صناديق أسرار الشجرة ومستودع حياتها المقبلة ، وهى روح الشجرة ، تحمل سر نوعها من الماضى المستقبل .

ولا مفر من اعتراف كل جزء من الشجرة بكل جزء آخر لتحيا جميعها ، ولابد أن يعلم كل جزء أنه وضع فى موضعه الرفيع أو الوضيع ، ليخدم نفسه ويخدم الجميع . والسفالة فى الموضع أو العلو فيه ، والعلانية أو الخفاء ، كلها نظرات اعتبارية فى الظاهر . والحقيقة أن نصيب العمل واحد ، والنتيجة واحدة : هى حياة الشجرة بحياة أجزائها ، وحياة الأجزاء بحياة الأمّ .

وينبغى ألا ينظر جزء من الشجرة لآخر نظرة حسد أو ازدراء ، وإنما ينظر نظرة طاعة لليـــد التى وضعته فى هذا الـكل ليؤدى دوره وخدمته .

ويكفى عزاء لما أسفل واختفى أن حياته كثيراً ماتكون أثبت وأدوم مما علا . ويكفى عزاء لما علا وارتفع عن سرعة فنائه أنه أجمل وأشهر . وكلا المعنيين جدير أن يَحارَ بينه و بين قَسِيمِه الاختيار !

ألا إننا ممثلون نؤدى أدواراً يرسمها ويحملنا عليها مؤلف رواية الحياة ومخرجها ، بديع السموات والأرض ! فينبغى أن نعرف مواضعنا الحقيقية من الـكون ، وأدوارنا فيه ، لنؤديها على أكمل وجه ، ثم نختفى وراء « الـكواليس » إلى يوم إصدار الرواية الأخرى التى سنؤديها فى المسرح الأكبر ، فى الـكون الواسع !

* * *

فقط ، اضمنوا لـكل عامل بارع ، مهما كانت مواد عمله خسيسة أو كريمة ، مكافأة وتكريماً وتعظيما لمواهبه ، ولا تقصروا اهتمامكم

وتمجيدكم على الأجزاء الرفيعة الملونة المزوقة من شجرة الإنسانية : كالساسة والحكام والأثرياء ومن إليهم ، من الذين خصهم المجتمع الجاهلى بالاحترام، بل امنحوا وقدموا ذلك الاهتمام والتمجيد لكل عامل بارع فى عمل من أعمال الحياة الإنسانية ؛ تتفتح لكم أبواب من سعادة الحياة ما كنتم تتصورون أن وراءها شيئاً ذا قيمة وتأثير فى حياتكم يعادل تأثير السياسة والحكم وما إليهما .

اقضوا على تخصيص الحكام وذوى السلطان والثراء بتعظيمكم وخشيتكم ، وانظروا لغيرهم كذلك من العمال والكناسين ومن إليهم ، وكرّموهم كرامتهم ؛ فإن لهم فى الدولة أثراً لابد منه كآثار «أصحاب الدولة» !

اللؤلؤة والصَّدَفة !

[رد على « نبي » النازية « نيتشه » الذى كان لإيمان « هتلر » بفلسفته فى عبادة البطش والخيلاء والكبرياء أعظم سبب فى فداحة جرائم الألمان فى هذه الحرب]

رحمة القبح والنقص — الفارون من الزحام — النقص هو مادة فن الضحك والتهريج — الشعور بالنقص وخدمتــه للحياة — عبقريات الغباء ! — فى سعير الذكاء — الحذر من جموح الذكاء — تبادل الفهم بين العاجزين والقادرين

مات صديقى المفكر المخلص ، المُشوَّه الخلقة ، المحروم من الجاه والثروة ، الموهوب من الحكمة وصدق الإحساس ، فتحررت أفكاره العظيمة من شخصه الضعيف وجاهه المغمور ، وانقطعت الصلة بين الكاتب الضئيل والمكتوب العظيم ، وابتدأت كلماته تدب فيها الروح وتبرز مستقلة بهيئتها المجردة من هلهلات ملابسه وسقم جسمه ومَهانة فقره !

وكان يدرك مايجول بخواطر الناس عنه حين يغشى مجالسهم ويحتك بهم ، من الاستصغار لشأنه ونبوّ البصر عنه ؛ فكان يجتهد أن ينأى عنهم ، وَيتحرّج أن يغشى مجامعهم التى يعرضون فيها أجسامهم الرشيقة وملابسهم الأنيقة ، وأحاديثهم اللبقة التى يتحدثون فيها عن أنانيتهم واختباراتهم فى علائق الطين والذهب ، وضجيج المخاصمات والمنازعات التى لاتتصل بصميم الحياة ولبابها ، ولا بقدس الفكر وحقائق العلم .

ولم يشأ أن يترك صورة لشخصه ، حتى لايقترن وجهه — وكان دميم الخلقة — بأفكاره وميراثه الروحى ، فتذهب قباحة بزّته وهيئته ، بقداسة فكره ونزاهة حكمته . وقال : أتركها كلمات يتيمةً محرَّرة من وجهى وجملة جسدى ، كما تلقيتها كلمات طليقة محررة انسَرَبَتْ إلى فؤادى موجات عذراء ليس لها نسَبٌ إلا ضمير الكون !

وكان يشعر بجسمه الناقص شعوراً عميقاً عصّافاً عصف بزَهرة صباه وضَحْوَة شبابه ، إذ كان مُبكّر الحساسية بذاته وشذوذها عن ذوات أترابه ولِداته ؛ وضاعف من آلام شعوره بشذوذه الجسمى ما كان يلقاه من عبث أولئك الرفاق الصغار به ، وسخريتهم من قماءته وخروج خلقته على غير استواء .

وفى قلوب الصغار جبروت وقساوة لاترحم الضعف أو القبح فى حيوان ولا إنسان ، إذ لم يُعوَّدوا أن يستقبلوا الدنيا بشىء قليل من فلسفات رحمة النقص والقبح ، لأن القبيح أو الناقص لم يخلق نفسه ، ولم يُخيَّر هواه ، ولو خُيّر لاختار وكان المهذب الكامل الجميل .

ولما مضت به السن من بيئة الطفولة العابثة الساخرة بألوان من السخرية الصريحة القاسية ، وأقبلت به على بيئة الشباب الذى عرف من ضروب الحياة ألواناً من النفاق الاجتماعى ، وعرف من آداب الاجتماع أنواع المجاملة والمصانعة التى قد تخفى من الرحمة والرثاء أو الهُزء المقنّع والسُّخْر المبرقَع ، أقسى أنواع الإيذاء على النفس الحساسة الشاعرة بنقصها بين الكاملين ، أيقن أنه لاقِبَلَ له بزحمة الاجتماع ، ولا احتمال

منه لضغطه وقسوته ؛ فأخذ يرتد عن موارد الحياة الاجتماعية ، وانحاز إلى نفسه وحدها ، وانطوى عليها فى صبر وسكينة و براءة صدر من ذلك الغِلّ والحقد الذى يعترى كثيراً من الناقصين ، حين يطاردهم زحام الكاملين القادرين الذين سُلِّحُوا بالغفلة أو بالفجور أو بالاقتحام أو بالثروة أو بالجاه ، فينقلب الناقصون إلى أبواق سخط و بُؤَر تشاؤم ومصادر إجرام ، ليحصِّلوا مافاتهم الحصول عليه من طريق السباق الشريف والمواهب القادرة ، أو ليحطموا المتاع الذى لم ينالوا منه شيئاً ونال منه غيرهم أىَّ منال !

قلت له مرة : — « يا كمال — وكان هذا اسمه ! وكأنه كان من تمام سخرية الظروف به — إنك لاتصلح لجِدِّ الحياة وصرامتها التى أخذت بها نفسك ، لأن للجد والصرامة أدوات مادية من السَّمْت والقامة والقوة تكون إطاراً لازماً لمعانيها ، وليس لك من ذلك شىء ! و إنما أراك تصلح لعبث الحياة ومُحبُوحاتها وأضاحيكها التى تفرِّج عنك ضيق ذلك الجد الذى حبست فيه نفسك ، وتفرج عن الناس حين يرون منك الاعتراف بنقصك ، واستغلالك إياه فى العبث بالحياة والناس و بنفسك ، أو يكون هذا على الأقل وسيلتك الإيجابية لإثبات وجودك فى هذا المجتمع الذى يصيح فيه كل شخص لإثبات شخصه والإعلان عن ذاتيته » .

فقال : « تعلمُ عنى ، منذ طفولتنا ، أنى برغم نقصى تعشقت الكمال وهِمْتُ به ، وأنا أعلم أنى لا أمثله ، وأن الأروح لى وللناس أن أرسل نفسى على سجيتها ، فأعترف بعجزها ونقصها ، وأستخدمها فى فن الضحك

والتضحيك على الأقل ، وأعلم أنى حينئذ أكون قريباً إلى قلوب الناس حين أُرضى إحساسهم بكمال شخصياتهم بمضاهاتها بنقص شخصيتى . ولكنى من أجل عشقى للكمال وشدة شوقى إليه، تمسكت بالسبب الوحيد الذى أتيح لى منه ، وهو هذه السكينة وهذه العزلة النفسية ، وهذا الرضا المستسلم بالواقع المقسوم لى من حظ الدنيا ، وهو الفكر المخلص الذى يرصد الحياة والناس بعين غريب عن الحياة والناس . وإنك لاتدرى ماأهتدى إليه من فجوات لايهتدى إليها المغمورون بضجة الحياة القادرون على الخوض فى زحامها . ودائما يلقط الضعف مافات القوى ، وكثيراً مايفوت ! فالقوى دائما مشغول بعنف نفسه وكثرة مايحصله من مظاهر الحياة عن الاشتغال بما تحت الظاهر . والضعف يسبب للضعيف الذكى يقظته إلى مايفعله القوى وما يتركه ، ويجعله يظفر بالحق المغمور فى دنيا القوة . والتجربة دلت على أن الضعفاء أو الذين فيهم « مركب نقص » هم من خدام الحياة ، وموطدى الاجتماع على أساس الحق والواجب ، والرحمة والعدالة .

ثم قال : إن الحياة مدينة لنا نحن الناقصين بأعظم نصيب . . وإن الأقوياء المُدلِّين بقدرتهم على الخوض فى معترك الحياة لا يدركون أن الشعور بالنقص أعظم عامل فى حمل أصحابه على الإنتاج ومتابعة خطوات الكمال الحضارى والخلقى ... لأن الفاقد يدرك لذة الواجد وحولها هالة من أحلام الحرمان ... ولأن الناقص يكمل الحياة بإرهاف حسه بالفجوات التى فى حياته وحياة الناس ، ويزيد عليها ما لم يستطع أن يحققه فى نفسه .

والاستعراض التاريخى لمن كملوا الحياة من العلماء والحكماء والصالحين يكفى أن يقيم الدليل على تلك الدعوى . فقد كان دائما الرواد فى الخلق والسلوك والعمل والإنتاج هم من يشعرون بعدم القدرة على الخوض فى معترك مظاهر الحياة مع الأقوياء المسلحين بأدوات القدرة على الزحام . ثم قال : من أجل ذلك تحملت العزلة والحرمان من المتاع بالناس ، لأفكر فى وضعى ووضع أمثالى ، ولأذود قسوة الجاهلين عن الضعفاء والشاذين ، ولأحاول إحداث انقلاب فى نظرة أولئك لهؤلاء حتى يروا أنهم شركاؤهم فى خدمة الحياة شركة متساوية ، وأنهم حتى ولو كان شذوذهم وضعفهم عن غباوة وتخلف ذهن ، هم وحدات من الإنسانية لاغنى عنها ، وأن للغباوة عبقرية كعبقرية الذكاء ! ! هى عبقرية الصبر والاحتمال والقيام بتوافه الأعمال التى لاغنى للحياة عنها ، والسير فى الحياة فى ذهول ورضا وقدرة على تقبل العمل الرتيب المكرور فى غير سأم ولا ملال !

فلئن كان للذكى فضل السبق إلى كشف واحات جديدة فى الحياة ، وفضل إضافة ماليس منها أو تنقيح مايستحق التنقيح فيها ، فللغبى فضل عظيم فى احتمال واقع الحياة بدون تذمر وكفران ، وعدم تطلع إلى شىء غير ما كان ، وفى التعبد للحياة والتعلق بها .

وله كذلك فضل الرضا بما يكلفه فيها من عمل ضرورى حقير كالكنس والكسح والخدمة وما إليها . وإنى أتخيل الحياة خالية من المحدودين فى آمالهم وعقولهم ، فأراها حينئذ سعيراً محتدماً بين الأذكياء القادرين الذين يتطلعون جميعاً إلى السيطرة والسيادة ، ولديهم وسائل الخديعة والغلبة ،

وفيهم الحسد والقلق والحقد والنفاق والجرأة والاقتحام . ! فالذكى دائما منتقض على الحاضر ، يحاول أن يغير مايحيط به ، ويخلق لنفسه عالما آخر يكون هو وحده رأسه وغيره الذُّنابىَ ... وإن الذئب أذكى من الحمار والشاة ، ولكن شتان بين نفعهما الحياة ، وإضراره بها !ولذلك أهدرت الحياة ذكاءه وطاردته ؛ شأنها مع كل ذكاء بارع يعتدى على قوانينها فى سبيل غاية شخصية ، لأن الذى يهدم دعامة بيت ليستعملها أرجوحة مزوّقة يتمتع بها ، يجب عقابه وإهداره مهما كان عظيم الصناعة بارع الافتنان . . وقد ثبت أن عالم الذكاء الإنسانى يشتط كثيرا فى الخروج عن نطاق الطبيعة وحدودها ، ويأتى بأشياء غريبة عنها ؛ فواجبٌ الاحتراس منه !

وأغلب ذكاء أذكيائنا القادرين وعلومهم كذكاء الثعابين والذئاب ، لارحمة معه ، ولا خلق ولا شعور بالمسئولية الاجتماعية ، ولا بالمعانى السامية التى تحمل على العطف والتواضع ورحمة النقص وتقدير حياة الأقل ذكاء وقدرة . فكلهم يخاتل ولا يخلص للجماعة ، لأنه لم يشعر بالجسم الاجتماعى الواحد ، ولم يؤمن بعقيدة الجنس .

إن الأولى أن نعتقد أن الحياة الاجتماعية مبادلة بين القادرين الأذكياء والعاجزين الأغبياء . فلقد أخذ الآخرون من الأولين عبقرية الفكر وانتفعوا بها ، وأخذ الأولون من الآخرين عبقرية الصبر والاحتمال والعمل وانتفعوا بها كذلك لتحقيق أفكارهم وأحلامهم . وأكثر من ذلك : أخذوا منهم غفلتهم ونقائص خلقتهم وصيروها « قفشات »

وتهريجات وأضاحيك أوسعت مدى أفراحهم ومباهجهم وسَلواهم جميعا ساخرين ومسخوراً منهم .

ثم قال : تلك هى التعزية عن حياتى وحياة أمثالى من الذين خرجوا على غير استواء .. جنت عليهم الجهالة القديمة ، وأوشكت الثقافات والتأملات الحديثة أن تنصفهم وتضعهم مواضعهم فى خدمة الحياة مع خدمات القادرين الكاملين . . ولولا ضعف قوتى وهَوانى على الناس ، وقلة أدواتى المادية للدعاية بين الجماهير لهذه المعانى ، لصدعت بها دعوة إلى تكريم كل كائن بشرى والعناية به ، وتفهم الحكمة فيه مهما بدا به من نقص ظاهرى ! فليس المهم أن يكون المرء تاجاً على رأس الإنسانية ، وإنما المهم أن يكون نافعاً ولو كان نعلاً لها !

* * *

استمعت فى عجب إلى هذا الحديث الصادق الذى ملك علىّ منافذ السمع ، ودوّى فى فؤادى ، ووجه فكرى لبعض أسرار الإنسان ، وجعلنى وأنا من «وحدات» الإنسان العادى الذى لا يشعر بنقص أو يخيل إليه بذلك — أتضاءل أمام هذا الذى ينْبُو عنه نظر أكثر الناس ازدراء له وتهويناً من شأنه ، وتذكرت به لُباب الإنسانية الذى ضيعه وأخطأه الناس وراحوا يبحثون عن القشور المزوّقة ، ويقيسون المرء بعرضه وطوله ، ولونه وثيابه ، مُغْفِلين وزنه مِن أصْغَريْه : قلبه ولسانه .

ثم قلت له : لقد كنت أرثى بعض الرثاء لك ولأمثالك ممن أخطأهم حظ كمال الأجسام وأصابوا من كمال الفكر والروح . . ولعلى الآن أرثى

لنفسى وأمثالى ممن لا يفقهون كثيراً من أسرار الحياة ، ولا يبقى منهم شىء حين يضرَحُ لهم فى القبور التى يستوى لديها جسم العملاق وجسم القِمِىء والوجه الجميل المصقول والوجه المقبوح الممسوخ ، ولا يستعصى على ظلماتها إلا نور الفكر والروح اللذين ليسا مما يحمل إلى القبور ، وإنما يخلدان فى الأفئدة والصحف والسطور !

فقال : لا ترثِ لأمثالى ولا ترث لأمثالك ... فإنما نحن جميعاً نمثل « رواية » الحياة التى لابد فيها من اختلاف شخصيات التمثيل وأنواع الأدوار ، حتى لا تكون الرواية حديث شخص واحد ، وموقف ممثل واحد يتكرر تكرير الرقم الواحد فى الملايين ...

لا رثاء ... وإنما فَهمٌ وتفاهم وتبادل تقدير ، وتساوى نظرات من الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى ، إن صح أن فينا أعلى وأدنى . . وذلك كله من حدود عقيدة الجنس . . »

* * *

لقد مضى « الجسم » الناقص ، وخلّف هذا الكلام الكامل .

ولا عجب فالنحل ، وهو ذباب ، يخلّف الشهد المُصَفّى . .

وقد أحسن حين لم يترك صورة « للصَّدَفَة » الخسيسة ، حتى لا تجفى على « اللؤلؤة » النفيسة ، بل تركها دُرّةً عذراء ، ليس لها نسَبٌ إلا جِيدُ الغادة الحسناء المعشوقة : الإنسانية !

الفكر والسُّلْطة

أثر التناقض بين ما فى النفس وما فى خارجها — صفات الأب الشعبى — أرستقراطية الفكر محمودة — السياسة على قوانين الفضيلة — الكفاح بين جرائم حب المال وجرائم حب السيطرة — دولة الأحلام فى حكم المفكرين الصديقين — أيهما أصلح للحياة ولرجال الفكر ؟ — العيش أولا ثم التفلسف — اقتراحى للإصلاح السريع — الحكم ضريبة على المفكر الصالح

تمنيت ولا أزال أتمنى أن يكون رجال الحكم فى كل أمة هم رجال القِمَّة فى الفكر والخلق والقدرة على تربية الشعوب ؛ فإن هذا هو الوضع الصحيح للحياة الاجتماعية التى يستقيم فيها كل شىء ، ويؤمن المرء فيها بنفسه وبأمته وبالإنسانية جميعاً ؛ إذ لايجد فى الحياة تناقضاً بين المثل العليا والقوانين المرسومة فى الكتب ، والواضحة فى نظام الطبيعة ، وبين الوقائع العملية التى يسير بها الناس . وحيث لاتناقض بين ما فى النفس وما فى خارج النفس ، فهناك السعادة ، وهناك الإيمان ، وهناك الأمل والعمل المطرد .

إن الذى يؤهل الأب لأن يكون قَيِّماً فى الأُسرة ، هو بذاته الذى يخوّل الحاكم والسلطان أن يكون قيما فى مجموع الأُمَم . وأول صفات الأب ، الفكر والرشد الممتاز ، والعدالة بين أبنائه ، والحب لهم جميعا .

والحكم كالأبوّة : وصاية وخدمة وقيام على الناس بالرعاية والإصلاح

والعدل ، لاسيادة وسلطان ، أو مكاثرة ، أو حب تسخير للناس ، أو طلب للامتياز عليهم ، أو اتقاء لشرور سلطة أخرى ، إلى آخر أسباب الحكم التى تواضعت عليها جاهلية الناس .

وكما أن الأب فى الغالب هو أكبر أهل البيت عقلا ، وأقدرهم على الكسب والإنتاج والإصلاح ؛ كذلك يجب أن يكون «الأب الشعبى» أى الحاكم الراعى .

وقد أغفل الناس هذه البديهية فى الحكم ، ووَسَّدُوا الأمر إلى غير أهله الطبيعيين ، وصار مالكو رقاب الناس ، وموجهو الأمم ، غير رجال القِمَّة فى الفكر والخلق ومعرفة اتجاهات الحياة ؛ وإنما هم المحترفون للسياسة ، والجائعون للشهرة ، والعاشقون للجاه والمناصب والبطش والخيلاء ، والجاهلون بعلوم النفس والتربية وأرصاد القدر وسير قافلة الحياة بالأحياء . . الذين صعدوا إلى المناصب بالمكر والخديعة والدجل السياسى لا بالطبع الكريم ، والفكر الناضج ، والمجهود الصالح والخدمة النافعة . . الذين نفوسهم نفوس عوام ، أو هم جعلوا هَمَّهُم تمليق العوام والنزول إليهم ، بدل أن يرفعوهم بالتربية وقسوة الآباء التى لابد منها فى بعض الأحيان . .

و « الأرستقراطية » فى الفكر ضرورية للاجتماع ، وليست بغيضة كالأرستقراطية فى المال ؛ إذ لو اتبع الحكماء أكثر الدهماء ، ماخطوا بالإنسانية خطواتها فى الترقى ، وما وصلوا بها إلى شىء من أسباب سموها وهداها .

والمحترفون للسياسة ، وعشاق المناصب ، يجعلون همهم تمليق العوام ليركبوهم إلى المناصب . أما العلماء والمجاهدون فى سبيل الفكر ، فهم الذين يحملون الناس على أكتافهم إلى واحات السلام والصلاح والانتفاع . وقد يضربهم الناس و يهينونهم كما يهينون الدواب التى تحمل متاعهم . ومع ذلك لا يتخلفون عن أداء رسالاتهم فى نقل الناس من سيىء إلى حسن ، ومن حسن إلى أحسن .

إن رجال الفكر المخلصين للحقيقة ، الباحثين دائما عنها ، الحالمين بصور الكمال ، هم وحدهم الذين لاتُبطرهم المناصب والرياسات ، ولا يسعون لها إلا لأنها تمكنهم من تحقيق مايحلمون به من وسائل الإصلاح و إسعاد الناس ، وهم الذين يقيمون السياسة على قوانين الفضيلة ، لاعلى الختل والخداع وتصيّد المال والخيلاء بالجاه .

واعتقادى أن شقاء الإنسان السياسى ناتج من أن أكثر رجال السياسة الآن صاروا بعيدين عن الأفكار العليا الحرة ، وصاروا تابعين لرجال المال الذين يبعدون عنهم كل ذى فكر وأحلام ومثل عليا فى الروح .

وعالَم المال بؤرة للشهوات العنيفة ، والغرائز الحادة ، والمنافسة الذميمة ، وشراهة التملك ، وتبرير الواسطة ، والخوف من التغيير والتحول

وقد نشأ من اللقاح بين جراثم هذين الصنفين : محبى تملك الرقاب ومحبى تملك المال ، ذلك الإنسان السياسى الفظيع الذى يخدع القطيع و يلعب به و يحلبه و يسوقه و يذبحه حين الضرورة الشخصية على مذابح الهوان والظلم ! ولن تتخلص الأمم من شقائها وفوضى حياتها ، إلا إذا

اختارت رجال حكمها من بين مفكريها الذين لهم روح تهيم بالكمال ، ولهم قدرة عملية على التنظيم وفن « الإخراج » والتنفيذ ، ولهم مع هاتين الهبتين شخصية قوية تصون المنصب وتخلع عليه من هيبتها وسيادتها الذاتية .

فعلى الأمم أن تبحث عن هذا الطراز المفكر الحالم العامل ، القوى الشخصية بين رجالها وشبابها الناشئين ، وأن تربيه فى مدارس خاصة بتخريج الحكام ، يكون لها برامج تكفل إنضاج الفكر الحاكم السائس المربّى .

***

وحين يوجد الفيلسوف الحاكم يكون التناسق والتربية النفسية وحياة الحقيقه والرضا عن الوطن و « المواطنين » .

وقد كان عهد الإنسان الكامل (محمد) وعهود خلفائه الراشدين مُثُلا عظمى فى حكم المفكرين الصديقين القديسين فى الزمان القديم .

وكان عهد الرئيس الدكتور (مازاريك) فى « تشيكوسلوفاكيا » مثالاً صالحاً للحكم تحت وصاية أرباب الفكر المحدثين الذين لايخضعون « للروتين » ولا يتحجرون فى قوالب الواقع السيىء .

فقد فاق « شعبه » تحت حكمه جيرانهم جميعاً ، حتى الألمان ؛ فاقوهم فى التنظيم الإدارى والاقتصادى والرياضى والعسكرى والاجتماعى ؛ إذ أنهم كانوا تحت وصاية رجل بصير ، بآفاق الحياة ، مدرك اتجاهاتها ، برىء السيرة والسريرة من آفات محترفى السياسة الطالبين المناصب ، ولو لم يكونوا أهلا للوصاية للعامة ، الحاذقين « للمناورات » والمقالب والدسائس مع الجهل بالإصلاح .

إذاً فمن الخير للأمم أن يتولى سياستها رجال الفكر وعشاق المثل العليا ، وأن يطبقوا حياتها العملية على أفكارهم النظرية السليمة .

* * *

ولكن هل من الخير لرجال الفكر أنفسهم أن يعهد إليهم أمر الناس وتدبير سياستهم ومعايشهم ؟ إن لذة الفكر المجرد والهدوء الذى يغمر عالمه ، والأنس به ، والأحلام فيه ، والانقطاع إليه ، شىء عظيم قد يفضله كثير من المفكرين على الاشتغال بصغائر الحياة العملية ، ومضايقات سياسة الناس وتدبير أمورهم ، ولو كان مع هذا جاه ومال وسلطان وقوة وشهرة .

بل إن أكثر الذين أخلصوا للفكر والفن ، يضيقون ذرعاً بحياة الناس العملية ، ويخلقون لهم جواً خاصاً بهم يعيشون فيه وحدهم ، ولا يعدلون به سواه . ولذلك قال الجاحظ مامعناه : « مالذة الأسد بلطع الدم بأعظم من لذة العالم بعلمه » . وقال أحد الصوفية : « لو علم الملوك ماعندنا من اللذات لقاتلونا عليها » .

وقد صور « جبران خليل جبران » وجدانىّ رجل الأدب ورجل النشب ونَظْرتيهما للحياة حين قال : « تبادل غنى وأديب النشب والأدب ، فرأى الأديب مابيده حفنة من تراب ، ورأى الغنى مابرأسه نفخة من ضباب ... »

فهل يلذ المفكرين أن ينزلوا عن أبراجهم العاجية المليئة بصور الكمال والجمال والهدوء إلى دنيا الواقع المليئة بالصخب والتشويش والمتاعب ؟

وهل من الخير للحياة أن يظل رجال الفكر فى نظرياتهم وأحلامهم يتصيدونها من آفاق بعيدة ، ويؤلفون صورها ، ويدمنون ذلك وينقطعون إليه ، حتى يكثروا أمام الناس صور الكمال ، وأن يتركوا الملوك والساسة العمليين أن يأخذوا منها الجانب الذى يروقهم ويحلو لهم تطبيقه فى أساليب حكمهم ؟ أم أن من الخير للحياة أن يتولى رجال الفكر بأنفسهم تنفيذ ما فكروا فيه ووفقوا إليه ، ولو قطعهم ذلك عن إنتاج الأفكار الكثيرة الرائعة ؟

وهل من الخير للرجل أن يخلد ويذكره التاريخ على أنه مفكر أو فنان ، أو أن يذكره على أنه حاكم سديد مصلح ؟

إن النتاج العلمى والفنى قد يبقى كما هو دائما فى الكتب والدواوين والآثار ، يراه الناس كما كان فى عهد صاحبه ، ولكن نتاج الحكم والإصلاح مؤقت بحياة صاحبه ، فلا تدركه الأجيال التالية ، إلا بالحكاية عنه والسماع ، وليس فيه خلود ذاتى كالأثر الفكرى والفنى ، وإنما خلوده بتطبيقه على الحياة العملية . وهذا طبعاً ليس مطرداً ولا كثير الوجود فى جميع العصور .

فحياة الإصلاح والقوة فى زمن عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز مثلاً ، انقضت بانقضائهما ، وصار الحديث عنها حديث حكاية مضى أشخاصها ، وقليل أن يقتدى بهما حاكم آخر ، ولكن حياة أى كتاب دينى أو علمى أو فنى تبقى تمثل نفس صاحبها ومنتجها دائما .

* * *

ومع هذا يجدر بنا أن نعلم أن حياة الفكر وحده لافائدة منها إلا لفترات « الترف العقلى » والترف العقلى كالترف المالى ، ماهو إلا شهوة . . شهوة رفيعة .

نعم إن للعقل شهوات كشهوات الغرائز ! فالمفكر أو الشاعر الذى يتفرغ لعالمه الخاص ، ويترك العمل على إصلاح مايحيط به ، ماهو إلا كالمدمن المستهتر على الخمر أو القمار ؛ إذ يغيب عن حياة المجموع ،ولايجعل بين عقله النظرى والعقل العملى صلة .

والسؤال الذى يجب أن يقدم قبل البحث فى هذا هو : أمن الخير للحياة أن نقدم للشعب الفقير المريض المحتاج دواء وحياة عادلة ، أم أن نقدم له لحناً جميلا ، أو شعراً رائعاً ، أو نظرية كالية ؟

أعتقد بصدق الحكمة اللاتينية القديمة « عش أولا ثم تفلسف » .

والحياة العملية هى الحكم فى هذا . وقد قلّ الجهد والفكر القديمان اللذان كانا يدوران على اللذة القاصرة ، وأتى عصر الفكر العملى الذى ينتج محصولاً ينفع الناس فى حل « مشكلات العيش » .

فصاحب الفكر التجريبى الآن صار صاحب الحظوة ، والخالد الأثر عند الناس ، لأنه يشتغل فيما يعود بالنفع عليهم جميعاً .

وقد جانبت الحياة الحالية من لاينتج شيئاً يصح انتفاع الناس جميعاً به ، واحتضنت كل من يقدم لها المنافع ، وأغدقت عليه الجاه والسمعة .

* * *

وينبغى أن ينصرف حديثنا هذا إلى غير العلماء الطبيعيين الذين يكشفون عن أسرار الطبيعة . فهؤلاء لهم أن يتفرغوا ويعيشوا فى عالمهم وحده ، إلا إذا كانت لهم قدرة على الجمع بين حياة الحكم وحياة هذا اللون من العلم .

أما الذين يفكرون فى النظريات الأدبية ، ويدرسون الاجتماع ويضعون فلسفته ، فيجب أن يختار منهم من يستطيع الاضطلاع بأعباء الحكم وتطبيق النظريات على الواقع .

ويجب أن يعلموا أن المفكر الناجح هو من يلهم فكرة ، ثم يصنع بها أمة أو جماعة .

ويخيل إلىّ أن كل الجهود الفكرية التى ليست داخلة فى منطقة العمل هى هوى ذاتى وترف عقلى .

إننا لانمسك ديوان شعر ، أو نسمع لحنا ، أو نقرأ قصصا أو تاريخا ، إلا إذا فرغنا من أعمالنا المعاشية ، وأقبلنا على أوقات الفراغ نستمتع بها ، ولن يقبل على هذه الألوان فى جميع الأوقات إلا هاوٍ مستغرق ، أو محترف مرتزق .

وقد يكون من العجيب عند بعض الناس أن يعلموا أننى أعتقد أنه يجب للإصلاح السريع فى أى بلد أن يضحى أهلها بعيشة الترف العقلى مدة موقوتة ، تغلق فيها جميع المعاهد العالية سنة أو سنتين ، ويحشد جميع أساتذتها وطلابها للخدمة العامة والاشتراك فى حركات الإصلاح الأولى ، وتترك التفرغ للبحوث الفكرية والهوايات الفنية ، وتتفرغ

لتدبير أمور الجمهرة الجاهلة من الأمة حتى يعلو مستواها ويتقارب مع مستويات الأمم التى سبقتها فى التعليم والإصلاح .

قد يبدو هذا غريباً عجيباً . . ولكن هو ماأعتقده ، لأنى أرى وجود المريض جداً بجانب الصحيح جداً ، يفقد بهجة الحياة لدى الصحيح ، ويؤلم المريض بالحسد والنظر المحروم . وأرى أن الأولى للعالم والمفكر ألا يوغل فى علمه وفكره بينما يترك غيره جهلاء لايفهمونه ولا يقدرونه .

ووجود عدد من جهابذة العلماء بجانب ملايين الجهلة التعساء المرضى هو بذاته كوجود الميادين والشوارع الجميلة فى المدن المعدودة ، بجانب آلاف القرى التى تقام من الطين والسرجين والأحطاب والمستنقعات .

فعلى هذا ينبغى أن يعلم الأدباء والمفكرون أن عملاً صالحاً يقدمونه فى حكم صالح يسعون إليه ، أولى ألف مرة من تقديم قصيدة رائعة ، أو مقالة بارعة ، أو فكرة عبقرية غير عملية ؛ إذ أن هذا العمل الصالح المثمر أهنأ لدى آلاف من القلوب المحرومة ، وأسرع إلى إسعادها وأدنى إلى أسلوب الله فى نفع عباده ؛ فهو يعمل لهم كثيراً فى تدبير الطبيعة ولا يتكلم . .

وإن قانونا عادلا يضعه لأمته حاكم رشيد ، لأنفع ألف مرة من جملة كتب تعرض أفكاراً عالمية للترف العقلى ؛ لأن القانون العادل يضمن ضرورات الحياة للناس جميعاً . أما كتب الترف ، فتضمن الحياة المترفة لبعض الناس .

ولو ترك محمد (عليه الصلاة والسلام) القرآن من غير أن يترك أمة قد قام عليها بالتربية والحكم والتوجيه والتعليم ، لظل القرآن ككتاب من الكتب لمؤلف من المؤلفين ... ولكنه عمل وجاهد كما أمره مُنزل القرآن ، حتى صنع أمة تجسّدت فى أشخاصها معانى هذا الكتاب ، فأخذ يسعى بهم وصاروا هم كلمات حية تشرح آياته .

وأظن أن سعادة الرجل الذى ينجح فى تطبيق مشروع يسعد الناس ، تربو كثيراً على سعادته بإخراج أثر فكرى أو فنى حبيس فى الورق .

فليحمل الأدباء والمفكرون نصيباً من الخدمة العملية ، وليروضوا أنفسهم على إسعاد القلوب بالأعمال ، كما يسعدون الآذان بالأقوال ، وليجتهدوا أن يحققوا معانى مقالاتهم فى أشخاص وأعمال مجسمة ، وليسعوا دائماً إلى أن يكون الحكام والزعماء من رجال القمة فى الفكر والخلق ، حتى نلائم بين مافى النفس ومافى خارج النفس ، فيكون الحكم ضريبة على من يحسنه من هؤلاء ، ولا يسند إلى غيرهم مهما كانت الظروف .

ثورة الفكر على الواقع !

أقدام تتحكم فى الرءوس ! — هل الجامعات مسارح للتمثيل؟ — الجهل يستغل العلم — لابد للعلم من جذوة الروح — الحياة تخطو دائما إلى الأمام — قصة الحياة هى قصة الفكر الثائر — لا استسلام للواقع الناقص — فى نفوسنا أطلال ومستنقعات ! — وجوب العزل الصحى فى أمراض الفكر — إصلاح الدعائم أولا — دهن الحطب باللون الأخضر !

أمَا من ثورة عالمية للعلماء والمفكرين يقومون بها فى إجماع ضد دجاجلة السياسة ، وسماسرة المال ، وحاملى الجاهلية ، والمرتدين عن دين الحياة بالعلم والفضيلة ؟ !

أما يؤلمهم ويحزّ فى نفوسهم أن تخنق آراؤهم ومثلهم العليا ، وتداس أفكارهم التى لها يعيشون وبها يأنسون ؟

أما يغيظهم أن يظلوا دائماً مجرورين فى عجلات أولئك الدجالين والجهال والسماسرة ، يسحبونهم على وجوههم فى تلك الطريق المعهودة من عهد الجاهلية للآن ؟

الجامعات ، لو صحت الأوضاع ، هى رءوس الأمم التى تفكر بها ، وتتصرف فى شئون الحياة صادرة عن وحيها ، فلماذا نرى الشوارع تتحكم فى الجامعات ، ولا نرى الجامعات تتحكم فى الشوارع ؟ لماذا نرى الأقدام تتحكم فى الرءوس ؟ !

هل يقنع الجامعيون من الحق والعلم والفن أن يروا كلا منها فى إطار

من الصحف والكتب الجميلة والصور المعلقة على جدران الجامعات والمتاحف والمعارض ، وأن يتحدثوا عنها فى حجرات الدراسة ، ويلبسوا لها « الروب » الجامعى ، ويهزّوا بها ذقونهم ، ويقفوا بسَمْتٍ ووقار ، وينطقوا بمضغ ولباقة ؟ !

مافائدة هذا التمثيل الدائم على مسارح العلم أيها الحكماء ، مادام هناك مناقضات فاحشة بين مافى البيوت والشوارع ومافى الجامعات ، ومادمتم أنتم تلبسون للحياة العملية ثيابا أخرى ، وتضطرون لأن تواجهوها بوجوه أخرى ؟ !

مافائدة الجرى وراء البَدَوات والفروض الرياضية للحياة ، والتنقيب عن أحافير الماضى اللغوية والأثرية ، والتخييل بأحلام المستقبل المثالية ، مادامت تيارات الحاضر تفلت من أيديكم وتستعصى على توجيهكم ؟

لقد نكل الحاضر بمخلفات الماضى ومقدساته ، وبآمال المستقبل وتخييلاته تنكيلا فظيعاً ، حين أطلق هذه الحرب الحُطَمَةَ الطاحنة بصواعقها وفواسفها ، فإذا الأبراج العاجية والصوامع الجامعية تذروها الرياح دخانا وهباء منثوراً مع مافيها من كنوز الماضى ورصيد المستقبل .

وكان ذلك كذلك لأن الجامعيين والمفكرين لم يؤمّنوا طريق العلم والحضارة ، ولم يكبّلوا الوحوش والغيلان الممثلة فى الدجالين والسماسرة والجائعين للشهرة ، والجهال الذين يفتكون بالمدنية ، ويأخذون منتجات العلم وينتفعون بها فى تسخير الحياة من غير أن يأخذوا الأسس النفسية الفاضلة التى فى نفوس العلماء .

وكان ذلك لأن خدام العلم لم يسلكوا فى تعبيد طريقه وتأمينها مسلك خدام الدين الأولين ؛ فلم يقيموه على أساس التعصب له والثورة به والفناء فى سبيله ، ولم يقيموه فى نفوس الطلبة على أساس الروح ذات الجذوة الحمراء التى تنضج كل ماتقتنيه وتحوله إلى كيانها ؛ وإنما أقاموه على أساس الفكر ذى الجذوة البيضاء الهادئة التى تقتنى المعلومات كما تقتنى اليد الأشياء ، وتضعها على الرفوف وفى الخزائن : فهى دائماً منفصلة لاتندمج فى كيان المقتنى .

فلابد إذاً من ثورة إجماعية للعلم تقوم على أساس التعصب له وللفضيلة ؛ فان العلم من دين الله الذى يدين به البشرية وتتوحد به غاياتها ومقاصدها ، وتخضع أعناقها لمعجزاته الدائمة المتجددة .

ولابد من السرعة فى إقامة أسس الحياة على الثابت من قوانينه ، حتى لايكثر العدد من ضحايا عهد الانتقال كما هو الحال الآن ، كما لابد من الثقة بالفكر البشرى الهادىء المستنير ثقة كاملة .

فقد قاد الفكر القطيع البشرى ، ونقله من حياة البساطة والعجز والجهل إلى هذه الحياة المعقدة القادرة العالمة ، ولا يزال يقوده وينقله مرحلة مرحلة فى طريقه إلى مستقبل مجهول .

وكلما استقرت الأجسام البشرية فى مرحلة ، وعاشت فيها حياة آلية رتيبة ، واطمأنت جنوبها إليها ، وقالت هنا ينتهى الطريق ويقوم الهدف ، أربها ثائر من عالم الفكر ، ودفعها إلى أفق جديد تقاوم هى الاندفاع إليه فى أول الأمر ، ثم لاتلبث أن تسير مع عجلة الفلك بدافع من قوة

التطور البديعة ، وتأخذ فى دور الاستقرار فيما انتقلت إليه ، إلى أن يومض بارق ويثور ثائر على الواقع ، ويلوّح لها بجديد من عالم المثال ، فتتبعه بعد جهد على رغم ماتلاقيه من عنت الانتقال وترك المألوف .

فقصة الحياة الإنسانية هى قصة الفكر وثوراته المتتابعة على الواقع . ولولاه لظل القطيع البشرى كأى قطيع حيوانى مما يدرج على الأرض : لاارتقاء له بذاته ، ولا قدرة له على تغيير واقعياته .

وما كان يراه الواقعيون القدماء مستحيلا أو بعيداً عن قدرة الإنسان ، حققه الفكر المتطلع الثائر ، وجعله من أيدينا دانى القطوف على طَرَف الثمام .

وبعبارة أخرى : كثير من حقائق اليوم وواقعياته التى تتقلب فيها الحواس ، وتعمل فيها الأيدى ، كانت أحلاماً وبروقاً تلوح فى آفاق الفكر الموهوب المدرك لما وراء صور الواقع من صور أكمل وأبدع .

والبطء الشديد فى الانتقال ، بل التخلف والوقوف الطويل فى مرحلة من مراحله ، بل الارتداد الذى يحدث فى كثير من الأحيان ، إنما مبعثه العناد والجمود والجموح من القطيع ، والتوانى والإهمال من المدركين للكمال ، القاعدين عن نداء الفكر وإهابته بهم أن يتجردوا لما استُحْفِظُوا عليه ويأخذوا الإنسانية إليه ، الطامسين لتلك الصور الجميلة التى يرسمها فى صفحات ضمائرهم ومخيلاتهم القلم الأعلى الذى يعلم الإنسان مالم يعلم ، ويدرّجه فى قراءة الحقائق وإدراك الكمالات درساً درساً .

ومما لاشك فيه أن الحياة الاجتماعية يمكن أن تكون أحسن مما هى عليه الآن وأكمل ؛ لأن تدرج هذه الحياة من صور الاجتماع الأولى إلى

هذه الصور المعقدة العظيمة فى الاجتماع الحالى ، وطواعية الفرد تحت أحكام القوانين والنظم والتقاليد التى تحيط بكل تصرف من تصرفاته ، أكبر دليل على إمكان الوصول إلى مايصبو إليه ذوو الأفكار السامية والقلوب الكبيرة التى نضجت فيها معانى الإنسانية وأسرارها .

وما يضر الإنسانية شيء كما يضرها الاستسلام للواقع الخاطىء الناقص القائم على أسس فاسدة .

وقد كان يصح إلى حد ما ، اغتفار التوانى وترك المجتمع يقوم على أسس فاسدة وأشكال ناقصة ، أيام كانت الثقافات محدودة والمعارف ضيقة والتعليم لونا من ألوان الترف فى الحياة ، وأيام كانت حدود الأشياء وقيمها مختلطة مشوشة ، وأيام كانت آثار هذا التوانى والإهمال ضيقة الأضرار هينة الجرائر والآثام ؛ وأيام كانت المعارف متقاربة يدور الناس بها دورانا نظريا فى حيز ضيق من حياة المجتمعات ، وأيام كان انتقال الحياة فى طريق الآليات والصناعات انتقالاً بطيئاً لاتنشأ عنه مسافات بعيدة بين القاعد والماشى ..

أما الآن ، وقد صارت قيمة التعليم والتهذيب للفرد كقيمة الخبز ، وحدود الأشياء واضحة مميزة ، وصارت آثار التوانى فى إقامة المجتمع على أسس العلوم والأخلاق والفنون آثارا عميقة غليظة الجرائم والآثام ، وصارت آفاق العلوم والمعارف متباعدة متعددة فى نُطُقٍ واسعة جداً لاختلاط بينها ولا تشويش ، وصار كل يوم يأتى بأشياء جديدة عجيبة من وسائل العلم والسيطرة والقوة ... فلا يجوز مطلقاً أن يتوانى مفكرو

أى مجتمع و يتركوه يقوم على الأسس الفاسدة ، و يسير على مجرى التاريخ الذى يجرف الطفولة النَّضِرة مع الجيف القذرة . . !

إن الناس لم يرضوا أن يسيروا بأقدامهم على الطرق والدروب القديمة فى المدن والقرى ، بل مهدوها تمهيداً فيه فن وتنظيم على أحدث الأساليب ، فكيف يرضون أن يظلوا فى حياتهم الفكرية سائرين برءوسهم على مسالك وعرة قذرة ، فيها أنقاض وخَرِبات من عالم بائد ؟ !

أجل ، فى حياتنا الفكرية أنقاض وخَرِبات يسكنها ظلام وحشرات وخفافيش وزواحف سامة تفزعنا وتفسد إحساسنا بجمال الحياة الحديثة ، فيجب هدمها أو تجديدها ، إذا كان فيها مايجب أن نبقى عليه ، و إلا فسنظل فرائس للفزع والاشمئزاز . !

وفى حياتنا النفسية مستنقعات آسِنة تَبِزُّ وتَرشَح إلى مايجاورها من الرياض العلمية والفنية الحديثة ، وتفرخ فيها كثير من جراثيم الآفات ؛ فيجب ردمها وتحويلها للإزهار والإثمار الصالح ، و إلا فسنظل مرضى مصروعين متناقضين ..

و إن الناس مارضوا أن يتركوا موارد الطبيعة كما هى بدون أن يدخلوا عليها أساليب التنظيم والاستغلال والانتفاع ؛ فلماذا رضوا أن يتركوا موارد النفس ومصادر الأخلاق ، كما هى بدون تنظيم وتعديل كما يقضى الإدراك الصحيح ، والمنفعة العاجلة والآجلة ؟

لقد أقاموا الاستحكامات والمَصَافِى والخزانات على المنابع والأنهار ، ليتقوا غَيْضها و فَيْضها وأقذارها ، مما ذاقوا منه الدمار والأمراض فى العهود

القديمة ، ولـكنهم لم يقتنعوا بعدُ بأن موارد النفس ومصادر الأخلاق وما فيها من غيض وفيض وقذر وضعف وطغيان ، تحتاج إلى إقامة أمثال تلك الاستحكامات ووسائل التصفية من الأكدار .

فهل يظلون مصرّين على العمى عما وراء الأجسام، سجناء الشواخص والـكثافات وحدها ؟!

لقد صارت الحياة المادية بما أدخله عليها العلم والفن حياة قيمة جداً ، تحمل على الثقة بالإنسان كعامل عظيم من عوامل التكوين والتنويع التى فى يد الله ... فيقبح جداً بالإنسان أن يترك نفسه تحت تأثير الغرائز الضيقة ، والحماقات القديمة التى تحمله على تدمير تلك الحياة المادية القيمة ، وتخريبها هذا التخريب الذى تمثل اليوم مأساته الدامية الشنيعة على مسرح الأرض كلها ...

إن الفكر البشرى قوة مبصرة عظيمة تتحكم فى كثير من القوى المادية العمياء ؛ فالواجب الأول أن يعنى به قبل غيره ، وأن يحافظ المجتمع على قوانين نموه واطّراده والانتفاع به ، وصيانته من العوادى التى تعدو عليه فتفسد حياته ثم تفسد الحياة به .

ومن العجيب أن تفزع الدولة حين ترى جسما مريضاً مرضا وبائياً فتضرب بينه وبين الناس نطاقا من العزل الصحى و « والتطعيم » والوقاية ، ثم لا تبالى ولا تفزع حين ترى الأمراض الفكرية الوبائية تجتاح صحة القلوب والأفكار ، وهى أوعية أسرار الحياة الإنسانية وعوامل توجيهها !

إن العناية بالمظاهر الجميلة البرّاقة لاتغنى عن العناية بالخفايا والأسرار فى أى شىء ، وخصوصاً فى الحياة الإنسانية التى يجب أن يسبق الفكر فيها كل عمل وكل مظهر . وإن المجتمع ليُهْدر قيمة الفرد الاجتماعية مهما كان جميلا قوى الجسم حين يرى به جِنَّة أو مسًّا من الخبال ، فيسجنه فى مستشفيات المخبولين أو سجون المجرمين ، ذلك لأن الفكر هو الشىء الأول الأهم فى الإنسان .

لولا العقول لكان أدنى ضَيْغم أدنى إلى شرف من الإنسان

والإخلاص للفكر والعلم يحمل على ابتداء حياة الأمم بهما وإنشاء أوضاعها من جديد ، ومقاطعة الاشتغال بأى فرع من فروعها إلا بعد إصلاح الدعامات والأصول التى يقوم عليها بناؤها .

و «الترف العقلى» الذى تراه الأمم المتخلفة فى الأمم الراقية التى سبقتها بأشواط وأشواط ، فتفتتن به ويتوجه إليه أفراد منها منسلخون عن حياة الشقاء التى تحياها أمتهم ، ينبغى ألا يشغلها ويصرفها عن مجابهة العقدة الأولى، وهى إصلاح أسس حياتها مهما لقيت من العَنَت والمشقة والاضطهاد من الراضين بالحياة كما هى ، والذين لهم مصالح فى الحرص على بقاء الحياة كما هى ...

فليكن اجتهادنا فى صنع القوالب الصالحة وتخطيط الاتجاهات ، ولو كانت تلك العملية مسئمة ليس فيها زُواق ورُواء .

وليكن لغيرنا ممن يأتى بعدنا لذة الاشتغال بألوان الترف العقلى ،

وطلب الشهرة بأعمال التلوين والزواق ، مما يَفتِنُ العوامّ وأشباههم ، ويذيع الشهرة بينهم.

فاذا أصررنا على تزويق الأجسام الآدمية الحديثة بطلاء رقيق من المدنية ، تاركين النفسية القديمة كما هى ، فلن يكون ذلك أقل خداعا من دهن الأحطاب والجذوع النخرة باللون الأخضر ... ! إيهاماً للناس بأنها نبات صالح فى أرض طيبة ...

obeikandl.com

المسألة الأفعوانية !

أمّ العدد والحساب — الرباطات الثلاثة — منطقة الزعازع والعواصف — الحدود فى الاقتناء والتوريث — الأسرة تتسع — خطر العقليات المادية

هَلُمّى ياذات الخطر والجلالة !

إلى قلمى .. كما يقبل الثعبان العظيم زاحف الرأس إلى ساحر ليحطم نابه ويطهر لعابه !

هلمى يا بوق الشيطان ، ينفخ فيه على القلوب فتكون كالمَخَالِى والخزائن والجيوب ، تختزن الأجسام ذات الحجم والكثافة والثقل ، وتمتلىء بالحطام وهى مهبط الأسرار ومجلى الأنوار .. !

هلمى يادين البشرية الوثنية ، وقِبلة قلبها ، وكعبة طوافها وسعيها . !

ياأم الدينار ! ذى الغُرّة والطُرّة ، والبريق والرنين ، والثقل الخفيف والروح اللطيف ، الذى يسرى به الشيطان إلى الأقداس المغلقة فى الضمائر فيفتح به مكان الطهر ، ويحيله إلى نَجَسٍ وعُهْر . !

ياروح « العجل الذهبى » الذى يتشكل ويتجسد ويتقمص جسم كل شىء ، فيتراءى به ويتخايل فى صور شتى تذهل العيون عن الحق والشرف والإيمان !

إلى قلمى أيتها الأفعى ذات الرءوس والقرون والألسنة والذيول التى لاعدد لها لأنها أم العدد والحساب !

أيتها « المسألة الاقتصادية » ! ياوكر الجرائم الفردية والاجتماعية والسياسية . . . !

إننا نشعر برباطات ثلاثة تضغط على قلوبنا وتشد عليها وتربطنا بثلاث غايات عظمى هى : « الحياة » و « ماوراء الحياة » و « المجتمع » . فالذى يربطنا بالحياة هو « الحب » ونتيجته الاندماج فى « الزواج » والامتداد فى « النسل » تعزية وتعويضاً عن « خلود الذات » وهو الأمل الأكبر الذى لم يتحقق .

والذى يربطنا بما وراء الحياة هو « الدين » ، ونتيجته التعرف إلى الله بارىء الوجود ومفيض الحياة .

والذى يربطنا بالمجتمع هو « المال » إرضاء لجملة غرائز حادة وشهوات عنيفة تظهر فى الأنانية والأثرة والخيلاء وحب التسلط والمباهاة والافتراس وحب الاقتناء والحيازة والتملك ، وحب « إعلاء الذات » مقرونة بغيرها فى مجموع . . .

والرباطان الأول والثانى لكل منهما منطقة تتصل بالجانب الأعلى من الإنسان ، وتثير فى قلبه أشواقا فيها سمو ، وفيها رفق ووداعة وحنان ونسيان « للذاتية » و الأنانية ؛ فلذلك تحيا بهما النفس سعيدة مُسعِدة ، منتفعة نافعة .

أما الرباط الثالث ، فلايتصل إلا بمنطقة العواصف والزعازع من النفس ؛ إذ هى مجال الاحتكاك والمنافسة والسباق والصراع بين ذوات مختلفة متفاوتة القوى والمواهب . . وقد سبق الشر من هذه المنطقة إلى الحياة

وأفسدها ، ولذلك كانت محل العناية والتنظيم والتهذيب ، ومحوراً عظيما لشرائع الأرض والسماء ، ومثار الحروب قديمها والحديث .

وبدون تسوية « المسألة الاقتصادية » ، فى العالم ، وحل « مشكلة العيش » وتوزيع الموارد الاقتصادية فى الأمة الواحدة وفى الأمم المتعددة فى عدالة وإنصاف ، وتجرد عن الأنانية الشخصية والقومية ، لايمكن الاطمئنان إلى مستقبل سعيد للإنسانية .

وربما كانت كبرى جرائم الحياة هى جرائم الغنى ومفاسد البطر والترف والطغيان ، نتيجة لغرور المال . نعم إن للفقر جرائم كبرى أيضا ، ولكنها جرائم ومفاسد هى فى الواقع عقوبة و « رد فعل » على جرائم الغنى وعدم التوازن الاقتصادى فى المجموع .

ولذلك كان من أول الواجب على رجال الروح والفكر ، أن يجعلوا المسألة الاقتصادية وتنظيمها واعتبار أسسها العادلة ، محل عنايتهم الفائقة ، كما يعنون بالمسائل النظرية فى اللاهوت والفلسفات والآداب ، وأن تكون لهم رقابة ساهرة وجهاد دائم فى التدبير والتنظيم الاقتصادى ، حتى يضمنوا لكل فرد أن ينال حق العيشة بالجسد كما ينال حق الحياة بالروح ، وحتى يكفلوا لمثلهم العليا أن تحيا وتتجسد فى أشخاص ، بدل أن تظل طول الحياة ميتة مدفونة فى بطون الكتب ، أو مُردَّدة فى المعاهد والمعابد وحدها .

ثم يكون واجبهم الأكبر أن يمنعوا التكالُب عليها ، والتطاغى فى رحابها ، وأن يحملوا المجتمع على السعى إليها فى هوادة ورفق وشرف .

وإن ماتطلبه غرائز التملك وشهوة المال لايمكن أن يقف عند حد ينتهى إليه . وعلى هذا فواجب أن يدرك الإنسان ذلك ، ويحدّ من آماله

ومطامعه بما يوافق مصالحه ومصالح الآخرين ؛ وإلا انقلب كذلك الثعلب الذى ظل يأكل من فريسة حتى امتلأ وعجز عن النهوض والجرى ، فاقتنصه الصائد ..

ومع عدم شعور الجد والأب بحب الحَفَدة والأبناء له ، بل مع عدم وجودهم فى حياته ، نجد الأجداد والآباء يغالون فى الاقتناء والإثراء بدون حد المطامع ، وبدون التفكير فى أن مازاد على الكماليات فى متوسط عمر الإنسان ، إنما هو حمل باهظ للنفس يرهقها ويكأَدُها .

فينبغى أن يحدّ الثرىّ ثروته بحيث تكفى ابنه المباشر وحده . أما الحفدة والأسباط فيجب إهمال التفكير فى توريثهم ، وعدم تضحية المجتمع والمروءة مع الناس من أجلهم وهم فى عالم الغيب .

ولماذا يلزم الإنسان أن يعول أهله الأدْنَيْنَ وذريته الضعاف ، ولا يلزم بإعالة إخوته فى الوطن من العجزة المحتاجين ، وهم أسرته أيضا بالمعنى الواسع ؟

لابد من إقامة مسائل الاقتصاد والإحسان على هذا المعنى العميق الكريم ، لا على التبرع والتفضل والاختيار .

لقد كثرت العقليات المادية المغالية التى تحاول أن تفسر الحياة دائما تفسيراً ماديا آليًا .. مُغفلة ذلك المعنى الإنسانى العظيم الذى يتّصل بالحق ومعانى المروءة والإيثار والنبل ، ولا يكون المرء إنسانا إلا بسيطرة ذلك المعنى على فكره وروحه .

هذه العقلية أعظم نماذجها هم اليهود . وقد انتقلت فلسفتهم المادية فى غلوها إلى أغلب الأمم ؛ فهم ليسو الآن ممثليها وحدهم .

نعم إن المادة آثاراً كبرى فى الحياة الإنسانيـة ، ولكنها يجب ألا تكون المحور الوحيد لسياستها العليا كما هى الحال الآن .

obeikandl.com

جرائم التفاوت الفاحش

ماذا بين الإنجليزى و « المنبوذ » الهنـدى ! — بُثور قبيحة على وجه الإنسانية — نقص القادرين على التمـام — استواء سطوح السائل فى الأوانى المتصلة — الحد الأدنى فى المسألتين الاقتصادية والأدبية — التعاون أخص صفات الإنسانية العليا — ينبغى تنبيه كل ذى حق إلى حقه — جرائم التهاون فى الـكرامات — لولا من يقبل الظلم لم يوجد الظالم — عباءة البقر والغنم — الغوانى وعشاقهن

ماذا بين فـكر الإنجليزى وفـكر المنبوذ الهندى من آفاق صناعية ؟!

إنه ما بين العطر والبول ، أو الزهر والبعر !

إنه ما بين قصر « نائب الملك » وجُحر « المنبوذ » فى الهند . .

إنه ما بين الإمبراطورية البريطانية فى ذهن الإنجـليزى ، وعالم الرَّحَض والأنجاس فى ذهن المنبوذ !

يفتح الطفل الإنجليزى عينيه على الحياة فيجدها مُلـكا كبيراً ومجداً عريضا وتاريخا يحدثه عن عظمته ، وحاضرا يوحى إليه بعزته ومجده ، ويجد دنيا ذات أفـكار وآراء وفنون وألوان علم وأدب وعمران وسياسة وأساطيل جوية وبحرية وجيوش برية ، ويجد وجوها مشرقة وأموالا موفورة ومساكن مترفة ، إلى آخر عالم الإمبراطورية العظيمة التى لا تغيب عنها الشمس ، ولا يغيب رجالها المنتشرون عن تلقى ماء كل سحابة ممطرة ، وثمرة كل شجرة مثمرة ، وكل فـكرة أو خطرة عابرة !

ويفتح الطفل الهندى المنبوذ عينيه على عالم عجيب من القبح والظلمة

والقذر والرّحَض والمطاردة واللعنة من المجتمع . . حتى لايستطيع أن يقرب من « البقر المقدس » !

وكيف يستطيع القرب من هذا الحيوان « المعبود » ذى الروث الشافى والبول المعافى والمقام الآلهى ! وهو النجس الشخص والظل ، الملعون الروح والفكر ، المسكون بأرواح الإثم والشر ؟ !

فمَن ذا وضع هذه الفروق الهائلة بين إنسانين كلاهما له رأس وعينان ، ولسان وشفتان ، وقلب وفكر آدميان ؟

من ذا وضع هذا كله غير الشيطان وجنوده ، وهم الأوصياء الجاهلون الظالمون !

وكيف اللقاء بين البشرية فى سلام على قدم المساواة مادامت هذه السدود فى وجوهها ، وهذه المخَاضَات من الأوحال فى أرجلها ؟

إننا لنأسَى ونأسف حتى على الفروق الصناعية المغتفرة بين فكر الإنسان الذى لايعلم من حقائق الكون إلا أن الشمس إذا طلعت يضىء الكون وترى العين الأشياء ، وإلا أن الإنسان إذا تكلم جهراً سمعه جاره ، وبين فكر الإنسان العالم بآخر النظريات الضوئية والصوتية . . فكيف لا نأسى ونأسف ، بل ونثور على تلك الفروق المجحفة التى تجعل البقر معبودا والإنسان منبوذا ؟ !

إن على روّاد الحضارة المنشودة أن يبحثوا عن أوكار هذه الجرائم المنكرة فى بقاع الأرض ويدمروها تدميرا ، حتى لاتنتقل منها عدوى الطغيان والمظالم ، وحتى يبرأ وجه الإنسانية الجديدة من بثورها ومَقابحها المُزرية .

ولست أدرى ، ما الذى حال و يحول بين الأورو بيين الراقين و بين أنْ يأخذوا بأيدى الأمم والجماعات المتخلفة ؟ وما الذى يجعلهم يهملون بل يقاومون حركة إنهاض هذه الأمم المحكومة بهم ، و يحقدون عليهم وعلى غيرهم ، و يبغونهم سوائم وحيوانات مُهدَرة الحقوق الإنسانية ؟

أهو شعور الوصىّ الظالم الطامع على اليتيم القاصر؟ شعور الذى يتمنى امتداد طفولة اليتيم وقصور السفيه لتدوم وصايته التى يملأ منها أوعيته الشرهة ، و بطنه النهم ؟ وما يدرى هؤلاء أنهم يملأون أوعيتهم و بطونهم من النار والسعير الذى يدمر حياتهم قبل حياة المحكومين بهم . ورب البشرية بالمرصاد !

إنهم لو فعلوا بمقتضى الروح المسيحى الحقيقى الذى ينتسبون إليه ، و بمقتضى موجبات الوصاية والرحمة ، لسعدوا وأسعدوا . .

لو فعلوا لأنقذوا رعاياهم القاصرين وأنقذوا أنفسهم من الأمراض والأحقاد التى تنتقل إليهم من هؤلاء لامحالة .

نظفوا الأرض من جهالاتها وآلامها أيها الأوصياء العلماء القادرون . .

فان أقبح العيب هو نقص القادرين على التمام . !

فما لم ترفع الأمم الوصية حياة الأمم المنحطة إلى مستواها الراقى ، فلن نظفر بالاستقرار والسلام فى هذه الحياة القصيرة .

ومن جانب آخر ، مالم ينهض المستضعفون بأنفسهم و يكافحوا ليرفعوها إلى مستوى الأقوياء الصالحين ، فلن يظفروا بطائل . . لأن مايدور بأخلادهم وقلوبهم من الألم و إحساس الشقاء لا تتفطن إليه قلوب الأمم اللاهية القوية البانية قوتها على ضعفهم ، وسعادتها على شقائهم ؛ إذ أن

ما يدور بجلد البقر والغنم لايهم الفلاح والجزار اللذين يستخدمانها ويذبحانها .

وإنى لأخشى أن يكون استمرار هذا التفاوت الفاحش بين الضعفاء والأقوياء ، إلى الحد الكبير الظاهر فى حياة هؤلاء وهؤلاء ، سوف يحمل العالم من النكبات مايجعله دائما فى شقاء وتعاسة .

ولن يحس الأقوياء ويفزعوا من هذه الحالة إلا إذا علت إنسانيتهم وسمت ، وصاروا أوصياء ذوى غيرة على أبناء الحياة جميعا ، وحكموا القاصرين ليخدموهم لاليستغلوهم — كما يعبر الرئيس الأمريكى الجديد «ترومان» — وسمحوا لحياتهم الراقية أن تتسرب إلى غيرهم فترفع مستواهم حتى يستوى سطحها فى أوعيتهم وأوعية غيرهم ، كاستواء سطوح السوائل فى الأوانى المتصلة .

وإن أول ماتجب العناية به الآن فى « المسألة الأدبية والمسألة الاقتصادية » هو أن يضمن الأوصياء للطبقات الدنيا فى العالم جميعه مستوى من العلم والصحة والنفقة يكفل لهم حياة الكفاية فى المسكن والمطعم والمدرسة والملبس والمتاع اللازم لتخفيف السأم وإدخال المسرات .. ثم يكون مؤقتا لأصحاب الأموال بعد ذلك أن ينموا أموالهم كما يشاءون ، ماداموا يؤدون واجبات الدولة والمجتمع والإنسانية .

والأمم التى تأبى حياة التعاون تعتبر أمما بدائية لم تبرأ من التوحش والتفرد القديم ، ولو كانت على قمة الأمم مكانة فى القرن العشرين .. إذ أنه إذا فكر الإنسان أو الشعب أو المجموع من الشعوب فى غايات نفسه وحدها وأنانيته الضيقة ، لم تحدث الغايات الاجتماعية والحركات

الدولية العظيمة التى تفسح للإنسانية مجالات حيوية جديدة المتاع والعلم .

فعلى الذين يريدون تحقيق أهداف الحياة العظمى أن يبعثوا فى قلوب الأفراد والشعوب الإيمان بوجوب خدمة غايات الحياة وأغراضها المشتركة ، وأن يجعلوهم حراسا لا يبالون الفناء فى خدمة هذه الغاية العظمى ، حتى لا يأخذوا الحياة بشكوك تزلزل إيمانهم ، بل يأخذوها بعقيدة لا تبالى الفناء فى سبيل الحق ، بل قد تطلب الفناء لتخرج من الحياة بشرف خدمتها وتدعيم قواعد الحق فيها .

فالإيمان بشىء عظيم ، والتعاون على تحقيقه ، والموت فى سبيله ، هو أخص صفات الإنسانية العليا والأمم العظمى .

* * *

وينبغى أن تقول الأمة أو الأمم لمن يجهل حقوقه فلا يطالب بها ، ويجهل فرص حياته العامة فلا يعرف التمتع بشئونها : هذه حقوقك وفرصك وامتيازاتك . تمتع بها ، واسلك ، إن شئت ، فى متاعك بها الطريق الفلانية .. لا أن يستغل قصور القاصر عن إدراك حقه فيغتصب منه ويسرق ويهمل إرشاده .

والحال فى أكثر بقاع العالم هكذا ، بل أكثر ظلما ؛ إذ يضطهد من يطالب بحقه .

* * *

ومن أعظم أسباب الظلم والطغيان ، التهاون فى الكرامات المقدسة والحقوق العامة بحجة المجاملة والتسامح .

وينبغى لتلافى آثار هذا ، ألا تتنازل الجماعة عن حقها فى القصاص، حتى لو تنازل عنه المجنى عليه ؛ لأن بعض النفوس يطغيها ويغريها بالشر ذلك التهاون ؛ ولأن بعضها ناقص الإدراك وسيىء التقدير لما عند المتهاونين والمجاملين من تسامح وسعة حلم ، فيفهم ذلك على أنه ضعف وعجز .

فعلى كل شخص ألا يتهاون فى الحق والكرامة العامة ، وأن يدافع عنهما حتى يشترك فى مقاومة مايولد عوامل الطغيان .

* * *

ولو أن الأبقار والأغنام وما إليها من الأنعام عرفت القوة العظيمة التى فى قرونها واستعملتها ، إذاً لساقت أمامها الذئاب والجزارين . . ولكنها فقدت موضع الشجاعة والتدبير فى نفسها فاستسلمت وخافت .

وكذلك من لايفكر فى حقه وقوته الكامنة التى يستطيع أن يقاوم بها الطغاة ويحملهم على احترام حقه والحق العام . . يكون قد فقد موضع الشجاعة ، وصارت له طبيعة البقر والغنم ، تساق المذابح من قرونها وأعناقها وهى أعظم موضع لقوتها وبأسها !

وكذلك تقاد الشعوب الضعيفة رغم أنفها من أعظم مواضع قوتها وبأسها ، وهى قلوبها وأرواحها التى لم يجعل الله لأحد عليها سلطانا مهما بلغت قوته .

* * *

«وبعد» فلا بد من التنبيه إلى أمر ذى خطر : وهو افتتان الضعفاء

بالأقوياء افتتانا يحملهم على الاستسلام لهم ونسيان حقوقهم وكرامتهم وخصوصياتهم التى أرادها الله لهم ، فيكون الأقوياء والمستضعفون كالغوانى المتاجرات وعشاقهن ...

فالغوانى يفتنّ الرجال بظرفهن ورقتهن وجمالهن ، ويخدعنهم عن الحقوق والواجبات ، ويحطمن رجولتهم ، ويجعلنهم ينزلون عن كثير من كرامات الرجال فى سبيل هذا العشق المجنون الآثم !

إن « الرجل الأبيض» جميل ذكى ظريف عالم منظم يعشق ! يعشقه الرجل الملوّن المتخلف المستضعف الذى لم ينل حظه من العلم والسمت والظرف ... ولذلك نجد من يخالط الأوروبيين من الضعفاء يفتَنُ بهم ، وقد ينكر دينه الحق ووطنه ومواطنيه فى سبيل إرضائهم والتقرب إليهم ... فكثير من مهراجات الهند ، مثلا ، وسادة الأمم المحكومة ، لا يستطيعون أن يتركوا عِشرة هؤلاء الحاكمين وأنسهم وكياستهم وتفتيحهم لحياة المتاع والفخفخة والتجميل ، لإرضاء مواطنيهم من القرود والجاهلين والمنبوذين !

ودواء ذلك أن يسرع العقل المتخلف فى الأمم المستضعفة بقدر طاقته ، إلى الأخذ بأسباب العلم والنظام والتدبير والفن وعلوم الجمال ، لسد النقص الذى يستطاع سده . .

فإذا لم يسرعوا إلى ذلك سوف يظلون على إنكار بعضهم بعضا ، ولعن بعضهم بعضا .

فالأوطان هى أشخاص المواطنين قبل أن تكون هى السقوف والجدران والمرابع . . .

هذه الحرب وعبرتها[1]

الطفرة تنتج النكسة — الديمقراطية هى مجرى التاريخ المختار — أول خطوة هى تغيير النظم الاقتصادية الجائرة — حرب ليست للاصلاح — لو فعلها هتلر ! — لو أدرك الانجليز والفرنسيون والأمريكان ! — التقليد اليابانى الأعمى — الحرب هى الرد الوحيد على الجاهلية — إحراق الغابة بثعالبها وذئابها — هل اعتبرت أوروبا ؟

سيكون فشل النازية وانهيارها كنزعة متطرفة ، درسا بليغ الأثر يأخذ العالم إلى أعظم دليل جديد على أن تحكم الفرد فى أمته ، أو تحكم الأمة فى الأمم ، ومحاولة تغيير مجرى التاريخ فجأة ، لن ينتج إلا الارتداد والحبوط والانهيار مهما بذل فى إحكام الخطة من الذكاء والقدرة .

أجل ، سيعرف العالم من انهيار ألمانيا بآمالها فى سيادة أوروبا أن مجرى التاريخ كمجرى النهر المستبحر العظيم ، لا يمكن تحويله بدون عمل عظيم بطىء يشترك فيه الناس جميعاً لا أمه واحدة ، ويقوم قبله عمل وإرهاص وتمهيد .

والديمقراطية فى الشعب الواحد ، وبين الشعوب المختلفة ، هى مجرى التاريخ المختار ! نعم فيه أقذاء وغثاء وقش منحدرة من قمم الماضى وأغواره ، ولكن هذا هو سير الحياة وسنّة التطور التى شاء الله أن يسير تاريخ البشرية عليها .

(١) كتب هذا الفصل فى سنة ١٩٤١ .. ولم أتصرف فيه الآن إلا تصرفا يسيرا

والذين يريدون أن يُفقدوا البشر فجأة جميع المعانى التى عاشوا بها زمنا هائلا ، وتكونت عليها قلوبهم وتطبعت أعصابهم ، بحجة اكتشاف نظرية علمية أو فرضية اجتماعية ، هم فى الواقع غافلون عن آثار آلاف السنين التى تركت فى أعصاب البشر وقلوبهم خمائر ورواسب .

ان هذه المعانى التى يراد من البشر التضحية بها وتقليب القلوب عنها فجأة ، هى التى رأينا على ضوئها طريقنا الحالى وأفرغنا فى قوالبها ، وقام على أسسها بناؤنا المشترك فى جميع البقاع .

وأنا أدعو دائما إلى التحرر من مواريث التاريخ السيئة ، ولكن طريق ذلك التحرر لايكون بغير التدرج الطبيعى المدفوع بعوامل التربية والسرعة العصرية ، ولا يمكن أن يكون طفرة . فذلك شرود عن سنن الطبيعة . ويجب لذلك أن نأخذ من البشر جميعاً للبشر جميعا شريعة وحقوقا وطرقا عقلية متقاربة ترضيهم ويستطيعون أن يلتقوا عليها .

وإن هذا هو زمن إخراج هذا الشىء الواحد ، أو هو تمهيد لزمانه فتجب المحاولة لوضع أسس لإخلاص البشرية لنفسها ، وإدراكها وضعها .

ويجب مطاردة الفساد أن يسكن جسم العالم الجديد بمطاردة خمائر السوء فى النظم الاقتصادية الجائرة قبل كل شىء .

ولو أن (هتلر) وضع قوته الحربية العجيبة فى موازين السلام والإصلاح العالمى ، وعرض فكرة هذا الإصلاح بطريق التفاهم ، ودعا إلى ذلك أمم الأرض فى مؤتمر ، وأنذر الإنجليز والفرنسيين بعد أجل مضروب

أنهم إن لم يقبلوا شروطه المعقولة التى يوافق عليها ذلك المؤتمر المفروض ، فهو فى حل من اللجوء إلى الحرب ، وأفهم الجميع أنه يطلب إصلاح العالم « كرسول» ولا يطلب سيادة (جرمانيا) وحدها كزعيم قومى ، وأخرجها فكرة عالمية لا فكرة جرمانية قومية تؤمن بحق ألمانيا وتكفر بحق غيرها .

ولو أن الإنجليز والفرنسيين كذلك آثروا الاستجابة لنداء الحياة ولحركات الانتقال السريع فى نفوس الأمم الصغرى والمحكومة بهم والتابعة لهم ، وأسرعوا وسبقوا المظلومين والمحكومين إلى الترجمة عن ظلاماتهم، وغيروا حظ كل هؤلاء ، وضمنوا لأنفسهم المكانة الكريمة بين أمم كريمة ...

ولو أن أمريكا شعرت بمسئوليتها تجاه « أمها » أوروبا والعالم أجمع، وتدخلت فى تعديل حياة السلام على أسس الحق ، كما تدخلت الآن فى تعديل حياة الحرب لضمان مثلها العليا التى تعيش بها ؛ وكما نهضت للدفاع عنها بقوتها الهائلة و إيمانها الصادق وكفايتها الممتازة ...

ولو أن اليابان اتخذت طريقا لاتساع نفوذها وسلطانها غير طريق الاستعمار الغربى المبنى على القوة ، وأفهمت الصينيين حسن نيتها وأشعرتهم أنها حريصة على مصالحهم وجنسيتهم القريبة من جنسيتها ، واجتهدت أن تضمهم إليها عن طريق الحب والثقة لا طريق العداء والقوة ، واجتهدت أن تأتى للحياة السياسية بأسلوب جديد للفتح العقلى والنفسى غير أسلوب الاستعمار الغربى .

لو أن ، ولو ، ولو ... إذاً لانتقل الناس إلى حياة أسعد بدون حاجة

إلى هذه « الجراحة » الفظيعة التى يجريها زعماء هذه المعسكرات لإصلاح جسم العالم وتطبيب علله كما يزعم كل منهم ...

إن كل زعيم يقف داعيا إلى العدالة والسلام وقفة المسيح بن مريم بعد أن ذاقوا ويلات الحرب . وما كان أحوج العالم إلى أمثال هذه الدعوات فى زمن هدوء الدم وتربّع السلام على عرشه فى دولة الفكر والوجدان . . إذا لكان هذا أوفر المال والشباب والجهود والطفولة والشيخوخة والمساكن المترفة والآثار العزيزة النفيسة التى أصابها الدمار ، ولكان هذا أدعى إلى موت الأحقاد التى ربما تكون قد زادت بهذه الحرب وما يعقبها من نزعات الانتقام وتأريث العداوة .

وانى أرى الملام الأكبر على أمريكا ! لأنها كانت تستطيع أن تكون فيصلا وقوة عظيمة تثقل كفة الدعوة إلى الخير والحق ، وتجمع حولها أمم الأرض المظلومة المحتاجة إلى وصىّ قوى ومحام بارع مؤمن يدفع عنها اعتداء الأقوياء على حقوقها الطبيعية ، ويفهم الجميع أن ميزان الحياة لا يعتدل إلا بترك كل أمة وشأنها من غير تدخل إلا فيما يمس النظام العالمى . إذاً لكان هذا المال والثروات المصروفة هدرا فى إطعام جوف الشيطان بالحديد والنار والدماء ولحوم بنى الانسان ، أسرع أداة فى إرضاء الأمم الفقيرة وإقامة حياة رحبة هانئة للجميع .

ولكن يبدو أنه ليس من الممكن أن تتنازل الأمم والجماعات — مادامت بعقائدها الحالية — عن تقاليدها البالية ، ومواضعات حياتها الجاهلية بدون أن تصاب بمصائب الحرب التى تحطم كثيرا من أوكار الجهالة والجمود والجشع

والأنانية ، حتى يمكن لمن يخلفهم أن يتنازل عن كثير من أنانيته و وحشيته فى سبيل حياة المدنية والاستئناس وضمان المصالح العامة للمجموع .

فهذا التنازل يكاد يكون مستحيلا لولا الحرب ، فإن مصائبها هى التى تهوّن على الذين فيهم كثير من آثار الفردية ولم ترتفع نفوسهم وعقولهم إلى مستوى العلم والخلق الكريم الذى يفهم أن الإنسانية واحدة ، فيجب أن تكون مصالحها مشتركة غير متضاربة .

ونظرة صادقة إلى كل ما أعقبته الحروب العظيمة بين الأمم أو الحروب الصغيرة فى الأمة الواحدة كافية لإدراكنا أن أغلب النظم الصالحة كان يصيبها الاتساع والشمول والنظرة الرحبة عقب كل حرب .

ويصح أن نقول إن النتائج السياسية الواسعة كانت دائما تظهر فى المعاهدات التى كانت تعقب الحروب العظيمة .

فالحرب دائما كانت وسيلة لتقليم الغابة البشرية من كثير من الأشواك والشجيرات الميتة والطفيليات والثعالب والذئاب التى لا وسيلة للتخلص منها فى بعض الأحيان إلا بإشعال الحريق فى الغابة كلها . .

ولولا هؤلاء الساسة والماليون الذين لا ضمير ولا فكر لديهم فى وضع الإنسانية ومستقبلها وغايتها ، وهم المسيطرون الحقيقيون على الاجتماع ، لكان من الممكن الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أفضل عن طريق الإقناع و «معارك السلام» .

ولكن أنانية هؤلاء وضيق آفاقهم وانتقال أساليب الجاهلية عن طريقهم إلى الحياة ، هى التى تعوق هذا الانتقال الهين ، وتحتم الانتقال

عن طريق العنف والتحطيم .

وأحسب أن نفوس الأوروبيين الذين دمرت حياتهم بهذه الحرب والتى قبلها بربع قرن ، سوف لايجدون فى أنفسهم، لو اتعظوا، غضاضة من أن يتنازلوا عن شىء من حقوق قومياتهم الضيقة ، ونعرات أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم ، وسوف يسيرون نحو تقارب يكفل عدم التصادم ، وتوزيع المنافع والأقوات والمصالح .

وما كان لقوة إقناعية أخرى غير الحرب أن تحملهم على ذلك، بعد أن شملتهم فى السنوات العشر الأخيرة موجة من النعرات القومية والخيلاء العسكرية والمنافرات الجنسية ، وسرت منهم إلى الأمم التى تتصل بهم ، حتى الأمم المستضعفة الجاهلة قد أصابها ذلك الادعاء والهُتار .

فهذه الحرب كانت ردا سريعا من الأقدار ومن طبيعة الحياة الاجتماعية الحالية التى لم تعد تحتمل الطيش القديم . وإن عدنا عادت بأسلوب جديد . وما أدراك ما أهوال الحرب بأسلوب جديد !

٤

نحو أساس روحي للحضارة المادية

obeikandl.com

بين الوَعْى والذُّهول

رحلة فى حيوات الناس — صيحة فى أذن الإنسان — لو، ولعل، وربما — لا ملام على الأقدار — لم تفت الغاية — نقطة البدء فى الحياة الفكرية — الجناية الأولى — حادث عظيم — آثار من الوثنية — الوضع الأصيل للدين — ديانة الحياة

حينما أَغُسُّ وأَندَسُّ إلى مجلس فى حانٍ صغير أو مقهى حقير، أرقب الحياة الإنسانية فى بعض جوانبها، وأتفرّس فى وجوه القوم ونواصيهم، وأتسمع إلى أحاديث دنياهم وآمالهم وأعمالهم، وأتتبع نظراتهم للحياة فأجدها لا ترتفع إلى شيء سامٍ، ولا تدور حول قضية من القضايا العليا للحياة، ولا تفكر فى مبدأ أو مصير، ولا تتساءل عن صلاح أو فساد.

وحينما أقذف بجسمى فى زحمة سوق من الأسواق بين ضجيج الحركات والأصوات والأبواق، وصفقات الأيدى الخاتلة على الأيدى المختولة فى العقود والمبايعات، وسائر الارتفاقات والمشاحنات..

وحينما أرصد حياة الأفراد اليومية، فأجدها سلسلة من الغفلات والأكلات واللذات والأعمال الآلية التى لا استحضار فيها لمعان كريمة، ولا يقظة فيها إلى أسرارها ومآل الإنسانية بها، وإنما هى دورات رَحَوِيّة وسير أعمى وراء دولاب الحياة من غير سؤال: إلى أين المسير؟

حين هذا كله، أجد فى نفسى كأن الإنسانية عريقة فى غفلتها وذهولها، وكأنها خلقت لهذه الغفلات، ولن تكون لغيرها، وان تكون

لحياة أخرى وراء هذه الحياة ، وكأنها منفصلة عن حياة الطبيعة الجادّة الواعية العادلة الموزونة انفصالا يكاد يجعلها عالماً مستقلا ...

ذلك وحى رؤيتى لغفلات الناس وانقطاعهم عما يدور فى الأكوان ، وإهمالهم التفكير فى مبدأ الحياة ومنتهاها ، وفى خفايا الطبيعة وأسرارها .

وحين أجلس مجلساً تُثار فيه الأفكار عن الكون والفساد ، والحقائق والأباطيل ، وتصول فيه العقول ، وينبرى بعضها لبعض بالاعتراض والرد والتعليق والتشقيق والبيان الساحر والحجج اللاقفة ...

أو حين أقرأ كتاباً يعرض فكرة من أمهات الأفكار ، ويسيل به سيلُها فيفيض على الفكر والفؤاد ..

أو حين أرى آلة معقدة التركيب تطير أو تسير أو تَخفق بالأصوات والبرقيات ، مما أخرجه عقل مهندس ذى قدرة على الاستيعاب والتقليد والابتكار ...

أو حين أرى شيخوخة جليلة واقفة فى محراب تتلو صلوات أو ترتّل آيات فى إطراق وخشية واستحضار لعظمة الكون وجلال بارئه ...

أو حين أسمع نشيداً من شاعر ذى قلب اتسع وتيقظ للأحاديث الصامتة والناطقة فى الطبيعة ، واسترَقَ السمع للنغم الذائب فى الكون والموسيقى الأبدية فى حركات نجوم السماء ونجوم الأرض ...

حين هذا وذاك وذلك أقول : هنا موضع تكريم هذا الجنس ومؤهلات خلافته !

هنا الإنسانية التى تقنع العقل الحائر بقيمته وقيمة الطبيعة وقيمة الخير والحق والجمال !

هنا وضوح وانكشاف لمعنى سيادته ، ومَلَكُوت واسع يصح أن نستند إليه فى تخيّل مستقبله ، وفى تبيّن موضعه وسط ما يعمُر الكون من المخلوقات . .

ثم أهتفُ : أيها الإنسان ! تيقظ لنفسك لتفرح بها . . . تيقظ أنك حى تسعى وترى وتفكر وتتجه أى اتجاه تريد وسط الظلام والجمود والنور والصمت والبكم والصمم والعمى . .

أنت الذى تفقه وتدرك تلك الحياة التى لاتجد غير عينك وأذنك وسائر حواسك . .

تذكر أنك المقصود بكل هذا الذى يحيط بك ، وأنك خليفة على مُقدّرات الأرض ، وأن فى يدك قوة من قوى التعمير والإنشاء والتوجيه والتغيير والتنويع والتفريع ، وذلك شرف عظيم !

تيقظ واهتف فى سمع الزمان والمكان : أنا أنمو وأترقى وأتكلم وأفكر ، وليس أمامى حدود وسدود أيتها الخلائق الواقفة المحدودة . . .

واجلس بجانب الجماد والنبات والحيوان فترات ، لترى الفوارق بينك وبينها . . . ولن يغفر خالق الإنسان لامرئ جاء إلى الحياة ولم يجلس مجلساً بين هذه الكائنات يوازن بينها وبين نفسه ، ويحدد موضعه منها ، ثم يرفع عينه إلى السماء ، ويخفضها إلى القبر ، حتى يرى الطريق بينهما . .

تيقظ إلى الذى مَسَّنا بالحياة ونحن نجهلها ونجهله ، وأخرجنا ذاهلين إلى ضحى النهار وسواد الليل ، وأرانا مشاهد ثابتة صارمة فى السماء ، ومشاهد مَرنة متغيرة فى الأرض ، وبدأ حياتنا من نطفة ، ومَطَّ أجسامنا

من مُضغة لحم ملقاة فى ظلمات الأرحام ، إلى أَجِنَّةٍ مكتملة التخليق ، إلى أطفال دارجين ، إلى غلمان يافِعين ، إلى مراهقين متفتحين ، إلى شبان مشبوبين ، إلى كهول وشيوخ منتظرين لايعلمون وراء أيامهم أياماً . . !

إلى الذى أدار الشمس أمام عيوننا دوراناً يبلى فى أجسامنا نسيجاً وينسج آخر ، ويزيد فى أفكارنا صوراً وينقص أخرى ، ويطوى الأيام تحت أقدامنا سفَراً فى الزمن ، ثم يطوينا بالأيام عضواً عضواً وذكرى وراء ذكرى !

إلى الذى فتح فى نفوسنا نَهَماً لا يشبع من أطايب الوجود وحقائق الوجود ، ثم سجننا فى سجون القبور إلى يوم النشور .

لقد أدخلنا إلى هذا الدار لنبحث عنه فى عالم الفكر ، ونتَنَظّره وراء الأستار ، ونقرع باب الزمان والمكان فى غُرّة كل يوم وقفا كل مساء ، نسائل عنه ، ومعنا عيون تقود ، وأقدام تسير ، وقلوب تتلفّت وراء كل ورقة فى كل شجرة ، وكل ذرّة فى كل مَدَرَة ، وتنظر فى الوجوه والعيون والألسنة ، وما يزحف ، وما يمشى ، وما يطير ، وما تحمله الريح ، وما يحمله الماء والأثير ، وما تحمله قوة القُوَى : الفكر !

وَىْ ! ! أية غفلة هذه التى تَغْشَى الناس وتتركهم عمياً ذاهلين عن مجىء الحياة بهم من غير اختيار إلى دار العجائب ، وعن سيرها بهم إلى دار المجهول ، وعن سير الشمس والقمر ، وتوارد الأيام ، وسقوط الأمطار ، وأسفار الرياح إلى مختلف النواحى !

ثم أية غفلة هذه التى تغشى عقولهم وتصرفها عن الفكر فيمن جاء

بهم وسيذهب بها . ذلك الذى استتر وأصرّ على تكبره واختفائه !

ولو دخل الإنسان الدنيا بكامل نفسه وفكره حين يولد ، ولم يدخلها فى غيبوبة الطفولة وذهولها وتدرّجها به من البسائط إلى المركّبات إلى المعقّدات ، وهو فى شغل عن الأسباب والمسبّبات ، إذاً لربما خرج منها مجنونا بمجرد دخوله إليها ، من شدة الفجأة ودهشة العجب !

ولعل الحياة توطّد نفسها فى نفس الإنسان فى زمن ذهول الطفولة ليطيق احتمال أمانة الفكر ، وليعيش بعد ذلك فى نصف شعور ، وليحتمل ما عساه يلاقيه من الدهشة والتناقض .

والإنسان هو نتيجة انطباعات تهوى الكون فى ورقة حساسة هى المخ . . فلا بد من مرور زمان قبل الإدراك الكلى وبلوغ الأَشُدّ حتى يتأتى للدنيا أن تدخل إلى ذلك المخ العجيب . وبعد بلوغ الأَشُدّ يبدأ الإدبار والانحدار ، وحينئذ يجب الحذر والبِدار قبل النهاية الآتية .

ولعل الله الخالق المبدع شغل أكثر الناس بصغائر الحياة والنزاع عليها وجعلهم كالقطيع الغافل المرتاح السادِر فى غفلته وعماه عن المعلوم والمجهول من أمور الحياة ، وأخرجهم فى خطوط مرسومة وحلقات مفرغة ليعملوا فى الأرض كما تعمل الثيران فى الطواحين . . تدور وهى لا تعلم أنها تدور ولماذا تدور . . وضربهم بفتنة الدنيا ، فزاغت منهم الأبصار عن الحقائق إلا فى فترات الدين والصلوات . . وحتى هذه أدركوها وهم فى خُمَار المادة وسُعار الشهوات ، إلا قليلا منهم ، وهم العارفون المدركون لأرصاد الطبيعة وشىء من تدبير الله فيها لعله فعل هذا ليخفف عنهم دهشة الفكر فى

أعاجيب صنعه التى كلما زاد فيها الإنسان تفكيراً زاد حيرة ! فهم لا يحتملون هذه الدهشة ويصبرون عليها كما يصبر العارفون . .

وهؤلاء العارفون لو اطلعوا على الغيب لاختاروا الواقع وانصاعوا تحت حكم الأقدار ، ولو فى مُقَارَنة الأضرار والأَوْصاب ؛ إذ قد عرفوا أنهم لابد أن يخضعوا ليشتركوا فى حبك الوسيلة التى أرادها الخالق المبدع لأطفال الحياة الذين هم جمهور الإنسانية العاملة التى عليها عمار الأرض بالأسلوب المادى المعروف .

وربما كانت غرائز التطبيع العنيفة هى التى تنمّى حركة الحياة الدنيا وتوسع آفاقها ، كما ينمى عنف غرائز الطفل مستقبله ويوسع من آفاق حياته .

إذاً ، فلا ملام على الأقدار التى تدبر كل شىء وتضعه بميزان ، ولا يجوز مطلقاً أن نتوهم أن حياة الإنسان بما فيها من أزمات ومآثم ، قد خرجت على الأقدار ، وأنه قد فاتت على الله الغاية من خلق هذا النوع — كما توهم بعض من أشرت إليهم سابقا[1] — فإن الإنسانية لا تزال فى دور تفتح المدارك وعَقَابِيل الشباب ، والشباب فيه لَوْثات كثيرة ، ولابد أن تتدرج إلى أدوار الرشد الخالص فى كهولتها وشيخوختها ، وأن تحقق الغاية الكاملة من خلقها كما أرادها ربها .

وكل مآثم الحياة الإنسانية وأزماتها قد تغتفر ويجد الفكر لها تعليلاً إلا جحود خالق العالم أو الإشراك به !

وكذب من يريد خديعة نفسه ، وخديعة الطبيعة ، وخديعة رب الطبيعة . !

---

(١) انظر صفحتى ٤٩ ، ٥٠ .

ذلك الذى يريد أن يفرض للحياة الفكرية الإنسانية مبدأ غير « نقطة البدء » التى يراها الفكر أول حياته ومفتاح عالمه .

كذب وضل ضلالاً بعيداً ، وخسر خسراناً مبينا ، وقلب الحياة على أمّ رأسها وأمّ رأسه !

إن نقطة البدء فى الحياة الفكرية ، هى الفكر فى بارىء هذا الكون الكبير الهائل الذى خلقنا الله منه وأسكننا فيه من غير اختيار منا ... الفكر فيه حتى نعرفه ونؤمن به وندرك طرق تسييره للحياة والطبيعة ، فنسير على خطواته وسننه .

إنه مجهول للحواس ولكنه معلوم للفكر . وقد رأينا ظِلّ يدهِ يقع على كل شىء ، ويضع كل شىء فى موضعه .

ومن أضلّ ممن يأخذ أطفال الحياة أول نشوئهم ، ويباعدهم عن نقطة البدء هذه ، ويضعهم فى مكان سحيق ، يستمر أول الطريق عندهم مجهولاً ، وآخره مجهولاً ، ووسطه مختلطاً مشوّشاً !

الجناية الأولى هى إهمال الفكرة الأولى : وهى السؤال عمن جاء بنا إلى هنا ، ويمضى بنا كعابرى سبيل .

ومن وراء الجناية الأولى تتلاحق أخواتها التى تجعل الحياة أغلاطاً مسلسلة .

* * *

إن انفصال جنين إنسانى من رَحِم أمّه حادث عظيم ينبغى للإنسانية أن تتلفت إليه وتوليه أجلّ عناية ؛ فلعل فى الوليد حلقة جديدة فائقة تحمل سراً جديداً من أسرار تكوين هذا النوع .

ولكن الإنسانية أو الدولة تجنى على نفسها ، إذ تهمل وصل عقل كل ناشىء بمفتاح الحياة ، ومفيض فيضها ، ومرسل رحماتها .

وكأن الوثنية لم ترتفع بعض آثارها من الأرض للآن ... لأن من ألوانها انصراف العقل الإنسانى عن الفكر فى رب العالم وما يليق له من الكمالات ، وعن شكره الدائم مادامت آلاؤه وفيوضه تملأ النفس بالحياة وتتواتر على الجسم . . ثم الركون إلى حجر أو بشر أو شىء من الأشياء ينسى الإنسان معه رب الحياة ، ويستغرق فى ذلك النسيان ، حتى يتعبد ويَلُوذ بما ركن إليه .

وهانحن أولاء نرى فى هذا العصر آلهة منصوبة من المتاع والشهوات والآلات والأعمال والصناعات ، يستغرق عقل الإنسان فيها حتى ينسى واهب الحياة ...

قد يظن ظانٌّ أنى مُغالٍ فى الروحية حين أدعو إلى أن يكون عقل الإنسان دائماً مرآة لشعاع ساقط من سماء الله . . .

ولكن هذا هو الوضع الأصيل الحقيقى للدين على ماأفهمه ، وعلى ما فسرته به فى مجال آخر ، من أنه الإحساس الدائم بالحياة ، والفكر فى مبدعها ؛ لتكون لذَّاتُها وآلامها وأَطْرابها وأوصابها صوراً وألواناً من العبادة .

والإسلام الذى هو دين الطبيعة ودين الحياة ، رسم لنا هذا حين سنَّ رسوله أن يُذكَر اسم رب الحياة عند الأكل والشرب والجماع وسائر

الأعمال واللذات والآلام ، حتى عند مايريد الإنسان أن يدخل المكان الذى يخرج فيه مافى جوفه من الأذى ... !

ولن يكون الدين غير هذا التذكر الدائم . . فليحمله فى نفسه من شاء وليتركه من شاء .

* * *

ألا إنها « ديانة الحياة » التى تستحق وحدها أن يحيا الإنسان بها، ويسعى جاهداً فى سبيلها لتحقيق غاياتها .

وغاياتها : العقيدة الثابتة التى لا تتزعزع بخالق الحياة الواحد .

وحفظ الحياة نقية قوية متجددة كما هى فى الطبيعة .

ورَصْد قوانين الطبيعة التى تسيّر الحياة بنظام دقيق فى الجليل والحقير . واستخدام تلك القوانين لصنع موجودات جديدة على النماذج والأساليب التى فى الطبيعة .

وعدم الغفلة والذهول حتى لا نرى اليوم كأَمْس ؛ فلا يكون الزمان عندنا يوماً مكرراً مملولاً ، ولا يكون إحساسنا بالحياة واحداً فى مراحل عمر الفرد وعمر الجماعة ، فإن ذلك إحساس جسدى فقط بالحياة ، ووراءه إحساس فكرى روحى عند من لهم إخلاص الفكر فى الكون .

أولئك الذين يرون أن كل يوم جديد . . ثم يسبقون الحياة والزمن . . ثم يموتون ليولدوا مرة ثانية من بطن الدنيا ليروا مشاهد أخرى جديدة . . فإن العالم لاينتهى أمَده عند رؤية النفس والأرض والنجوم .

وإن الذى صنع هذا العجب الذى نراه ، لابد قد صنع غيره لانراه ...

صوفيّة ماديّة !

تمجيد واصل إلى من له المجد ! — دنيا المهندسين — موقف لصلاة جامعة — إلى المعتمدين على المباحث الروحية — نتائج لقانون التسلسل والترقي — فرضية لابد منها — إشارة قرآنية عجيبة — ضروب من العقول — أدوار المعرفة وأدوار العلم — إنسانية الشرق المضيعة — العلم دين — أين العصا السحرية ؟

ينبغي أن أقول لمن عساهم يخشون من مغالاتي في تقدير قيمة الإنسان وماصنعه من الآلات التي فاقت بآلاف الأضعاف قدرة الحيوان وقدرته هو على العمل والاحتمال والانبعاث والسرعة والدقة في الحساب والرصد وقياس الدقائق وإبراز الخفايا وجلب المنافع والأضرار : — إنني لا أبغي من وراء ذلك إلا لفت أنظار الغافلين إلى قدرة الفكر البشري وإلى وجوب تمجيده عن السَّفْساف الحقير من التصرف ، وإطلاقه يَرُود وينظر ويعمل في ملكوت الطبيعة ...

ولا أقصد بتمجيد الفكر الإنساني إلا تمجيد بارئه وواضع أسراره في هذا الجسم المحدود الضئيل ... فلا يتوهمن متوهم أنني سأخرج بغلوي في تمجيد الإنسان إلى شيء أشبه بإشراكه في الخلق والإيجاد ، فإنني قد حددت هذا النوع في فصل سابق، بأنه آلة في يد البارئ يتم بها التنويع والتفريع في خلق المادة وتصويرها .

ولا يسعني غير هذا ، بعد أن رأيت وفكرت في أعمال تلك الطائفة المجيدة التي لم يُلتفَت إلى وضعها في الحياة بعد ، ولم يعرف لها خطرها في

تحقيق الغرض من خلق النوع ، ولم ينظر إليها ولم تنظر لنفسها نظراً روحياً ... وأعنى بها طائفة المهندسين ... أولئك الشعراء الصامتون الذين يرسلون قصائد مجسمة ، ويفعلون الأعاجيب من المواد المبعثرة المشوّشة المختلطة الملقاة بدون نظام وتنسيق ، ويقيمون منها هذه الأشكال الموزونة المصقولة المنوعة ، التى عملت فيها آلاف العقول والأيدى بالتلوين والتزيين والإخراج الفَنّى الغنى باللفتات الذهنية ، واليقظة لألوان الشفق وأفواف الزهر ، ومزج الأضواء والظلال ...

أو يقيمون أجساماً آليـة تنبض بالنار والبخار ، وتسعى بهما أو بالـكهرباء ، وتضيف إلى عالم الحركة فى الأرض قوى أخرى تملأ سمع الزمان مع كل مايدور فوق وتحت ...

أولئك الذين تسير أعينهم على مواقع يدالله ، يلقطون أسرارها من غُمار الحياة الزاخرة ، وعُبَاب المائع و « المتبلور » والجامد ، ثم ينظمون كل هذه الأفانين ويتخذونها أساساً لقوة التقليد وقدرة الابتكار التى فى أفـكارهم وأيديهم .

أولئك الذين يسيرون على أسلوب الله من العمل ، ويتلقون فيوض المواد والقوى الطبيعية من يده الـكريمة ، فيقسّمونها ويوزّعونها ويتممون ما أراده فيها ، ويجلّون ما أخفاه فى أطوائها وثناياها ، ثم يضعونها فى الأرض مجلّة منسقة ، متاعاً للعيون ، ومثابة للأجسام ، ومظهراً وتأويلاً لأحلام الروح فى عالم الجمال .

ولن ينتهى العمل الهندسى للإنسان فى الأرض إلا بعد أن يملأ

شعابها وهضابها وهواءها وماءها وسهولها وأوعارها بآثار يده وفكره ؛ فإنه مخلوق برهن على أنه يصلح للعيش فى اليابس والماء والهواء ، وأنه لا شىء إلا وهو واجد فيه حقلاً ليده يعمل فيه ويأخذ منه .

وإننى ما أسمع صوت قارىء يتلو كلام الله فى تمجيد ذاته العليا فى محطة الإذاعة ، فتردد صوته جميع آلات الالتقاط فى جميع الأنحاء وتبث ذلك التمجيد إلى زوايا الدنيا وأركانها وطبقات الجو ، إلا أحسّ أن الإنسان ابتدأ يهز الأرض برسالته وعبادته ، وينطق بها الجماد ، ويُسمع بها على رغم الأبعاد ...

* * *

تلك روحية مادية حديثة ، ينبغى أن تكون من مظاهر التدين فى هذه العصور التى تسير فيها المدنية المادية بحياة الإنسان فى ساعة واحدة أضعاف ما كانت تسير به مدنيات العصور السالفة فى عشرات السنين .

نعم إن أصول الدين الحق واحدة ثابتة لا تتغير ، ولكن ينبغى ألا نكون جامدين متحجرين فى طرق العبادات ، فنفهم أن عباداتنا قاصرة على الأشكال الموروثة ، بل يجب أن تكون انتقالات العلوم بنا سبباً فى أن نعبد الله بها ، وأن يزيد فكرنا فيه من أجلها . وتلك عبادة مطلقة من قيود الطقوس والرسوم والأشكال . . عبادة يستطيع أن يقوم بها من يسير بسرعة ألف ومائتى ميل فى الساعة ، ويرتفع إلى طبقات الجو العليا ، وينخفض إلى أعماق البحار السفلى ، ويتنفس فى أقصى الشرق فتسمع

أنفاسه فى أقصى الغرب.. ذلك الذى يستطيع أن يترك فى كل مكان كلمة تشهد بالله وينطق بها الأحجار والأشجار والماء والهواء ...

فهنالك ، بين العلم المادى والاستغراق الروحى ، يجب أن يقف الإنسان الحديث ، يناجى الله وفى قبضة يده مفاتيح أسرار المادة ونواميسها ، وفى قلبه صلاة دائمة جامعة . . . !

* * *

وهذه الروحية المادية تمجد العلم المادى والعمل به ، وتخضع لدولة الأجسام ولا تثور عليها ، ولا تعطل قواها بل تنميها ، لأنها تعرف أننا ما خلقنا فى عالم الأجسام إلا لنعلم قوانينها ونؤمن بها .

وينبغى أن نقول هنا للتاركين للعالم المادى الظاهر ، المنصرفين عنه إلى مباحث الروح ، الذين يفرحون إذا عثروا على حادثة غريبة لا يستطيعون تفسيرها تفسيراً مادياً ، ليتخذوها حجة على وجود قصد وعالم آخر وراء هذا العالم المادى : إن ما تغرمون به و تنفقون حياتكم من أجله ، لا يصح أن تنصرفوا إليه وحده فى الاستدلال ؛ لأنه لا يبلغ الآن إلى عشر معشار الحجج التى تستطيعون أن تأخذوها من ذلك العالم الظاهر الملىء بالعجائب والمعجزات التى لا تحتاج العقول معها إلا إلى حركة ارتداد إلى مبادىء الأشياء ، و إلا إلى اليقظة الدائمة لمراقبة كل شىء والدوران حوله ، ولأن ما بين أيدينا وما خلفنا ملىء بالعجائب التى يراها كل فرد ويخضع المنطق المستمد منها كل سليم الطبيعة غير شاذ ولا شارد . « وكأيّ من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

فنحن نستطيع بجهد فكرى قليل أن نأخذ من هذا العالم المادى الظاهر، أدلة كثيرة على أن وراءه عالماً آخر، بل عوالم أخرى مجردة من قيود حياتنا هذه، ولو لم نر من ذلك شيئاً . . . فإن الرؤية ليست هى الطريق الوحيد إلى التصور والحكم .

والنظرة العلمية المبنية على إدراك قانون الترقى وقوة التطور، تبين لنا أنه ما دام قد وقف الإدراك بواسطة جسم من الأجسام عند حد الإنسان بعد أن تدرج إليه فى سائر أنواع الحيوان، فلابد أن يكون وراء الإنسان أفق حياة عاقلة أخرى، هى بطبيعة سلّم الترقى مجردة من الأجسام . وكما أن هذه الآثار والمشاهد البارعة التى نراها فى العالم المادى نتيجة لعوامل خفية نوعتها وشكلتها، فلا بد أن يكون فى غير الأرض آثار ومشاهد أخرى هى نتيجة لعوامل وتواميس أخرى غير التى كان من نتائجها ظهور عالمنا الذى ندركه بحواسنا . وهذا هو اللائق باتساع الكون الذى أرضنا فيه كذرة رمل فى صحراء ، فلا يصح أن نتخذ أساساً واحداً للحكم على جميع ما فيه .

وهذا حكم نحكمه خضوعاً للفرضية الآتية التى تحل لنا هذا الإشكال وإن أوقعتنا فى غيره . . :

تخيّلْ إنساناً خرج إلى الحياة أعمى أصم أبكم معدوم اللمس والشم ؛ فهل مثل هذا يكون لعالمنا وجود عنده ؟ بالطبع ، لا . ولكننا مضطرون إلى أن نحكم أن عالمنا هذا موجود ، ولو لم يوجد فى حواس هذا المسوخ . . وكذلك نحن مضطرون إلى أن نحكم أن وراء عالمنا هذا عوالم أخرى

ولو لم توجد لنا حواس تدركها ؛ لأن هذا هو الذى يتلاءم مع اتساع الكون ، واتساع قدرة المسيطر عليه ، واتساع عالم الفروض والصور فى بعض العقول .

وقد أشار القرآن إلى معنى عجيب يتفتح معه خيالنا ويأخذنا فى عالم لا نهاية له من الفروض ، وإن كان لا طاقة لنا بإدراك ما فيه من الصور . قال : « أفرأيتم ما تُمْنُون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدَّرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين على أن نبدِّل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون »

وما تحته خط هو موضع النظر الطويل ، وباب للخيال المجنّح ... ولكنه خيال مطموس الصور ، لأنه لم يجد أصباغاً وألواناً ينتزع منها ما يريد أن يؤلفه ويركبه ويَفْتَنَّ فى تهاويله .

وكيف ذلك وقد قالت الآية : « فيما لا تعلمون . . . ! »

* * *

لا يصح لمن لم يدرك أن يُنكر على من أدرك ؛ فان جوانب الكون واسعة ، ورسالات علم الله إلى العقول كثيرة ، وليست كل العقول قادرة على الغَوْص فى أعماق الكون ، كما أنه ليست كل الأجسام قادرة على الغوص فى أعماق الماء . فمن لم يستطع السباحة والغوص فى اللجج والرجوع إلى الشاطىء ، فليلزم وليحذر ، حتى لا يغرق ويذهب فى أهوال المعانى .

وما فى العالم « المتبلور » شىء تافه بالنسبة للعالم الذى تلتقى فيه أمواج المعانى ، ويعُبُّ عُبَّاب الفروض والغيوب والرموز ، ولكن ما فيه لا يكون أساساً لأحكام الحياة الدنيا .

وعقل الإنسان كطفل الأم : ينبغى ألا تطلقه فى المخاطر والمزالق إلا إذا شبّ وكانت له قوة واقتدار .

ومن العقول نوع لايعيش إلا فى أعماق الكون ، فإذا طفا على السطح وأخذ بظاهر الحياة ، اختنق وقلّت فيه الحياة ، كالسمك الكبير . . .

ومن العقول ما هو مساير لظاهر الحياة ، لا يتخلف عنها ولا يتقدم .

ومن العقول ما هو واقف متخلف انقطعت به الطريق ، فلم يصل إلى العالم الفكرى الموجود الآن فى أذهان الأمم المتحضرة ، وهذا عقل محروم فاته كثير من رسائل الله إلى الفكر الإنسانى .

ومن العقول ما هو أسرع من الحياة ، بحيث يرى مشاهد آخر ساعة فيها كصور مكررة قديمة لا تثير فى نفسه تطلعاً ، فلو خرج من الحياة لم يخسر شيئاً ولم يفُته شىء ، وهذا هو العقل الفائق السابق .

والنفس إذا عرفت قرار الحياة وأصولها ، لم تبالِ بما يحدث فى فروعها من تلون وتبدل . وما عند هذا الصنف من صور كمال الحياة ، أرحب من الموجود وأكمل ؛ فهو يسير فى مستحدثات الأيام كما يسير المرء فى طريق معروفة له تردد عليها مراراً ، من كثرة تفكره فى الموجود والمعدوم وما يصح أن يوجد .

وهذا قد يعمل فى الحياة بجد وصبر ، ويسير كما يسير الغافلون بدفعة دولاب الحياة ، وطواعيةً لحركات سيرها بالناس ، وخضوعاً لقانونين عظيمين من قوانينها : وهما الأمل والعمل . . .

وهكذا الطبيعة ، رسالات من علم الله إلى الفكر الإنسانى العام ،

يتلقاها كل عقل حسب طاقته واتساع حوزته ، ويأخذ منها ما قدر و يُسِّر له .

فينبغى لمن لم يدرك ألا ينكر على من أدرك ... ينبغى لرجل الشارع ألا يجادل فى عالم « أينشتين » أو « أديسون » أو « الغزالى » ومن إليهم من العقول الفائقة التى أطلت على الأرض ، وكانت فيها كالثمرات التى تلقط أسرار نوعها وتحفظ بذوره وترقيها .

* * *

وبين الإله البارىء الكبير وما عنده من عوالم المعانى والقوى المجردة والكمالات التى لا تتناهى ، وبين عالم المواد والكثافات ، وقف الإنسان التائه المتأمل الساعى وراء المعرفة حيناً من الدهر ، لم يتقدم فيه خطوات كثيرة ، ثم انقسم فريقين : فريقاً استمر فى التفكير المجرد فى الطبيعة وما وراءها ، وأدرك بعض اتجاهات الكون باللمحات والنظرات الشعرية الخاطفة ، وقنع بذلك حتى خرج من الحياة « عارفاً » غير « عالم » ولا « عامل » ...

وفريقاً أعياه التفكير المجرد ، ولم يجد له محصولاً يملأ يديه ، و يشهد له الناس بأنه أدركه وقنصه ، فانصرف إلى أنواع الحياة فى الأرض وأشكال المادة ، يعبث فيها ويدور حولها ويخرج أسرارها حتى « علم » ثم أخذ يقلد ويبتكر .

وكما أن الأقدمين كانوا ينظرون إلى أعمال الطفولة وحب استطلاعها الأشياء ، على أنها عبث ولعب لا طائل تحته .. كذلك نظر أكثر الكهنة

إلى أعمال الرجال فى المادة وتنويعها وملء الحياة بضجّاتها وأصواتها ، على أنها عبث ولعب لايليق بمن يسير إلى الموت والفناء . وكان المثل الأعلى للحياة الصالحة عندهم أن يطلّق الناس أعمال الدنيا ، ويذهبوا إلى المعابد والمعاهد ، يتلون « الأوراد » ويُفَلْسِفُون وينظمون الأشعار المتشائمة ، ولا يرفعون فى الأرض حجراً على حجر ، فيكونون عنصراً مستهلكا غير منتج ، يأخذون من الحياة أغذية وأعمالاً ، ولا يعطونها إلا أقوالاً وأشعاراً ، ويقفون فى طريق تحقيق بعض الغايات الكبرى من خلق الإنسان .

هؤلاء لاتزال منهم بقايا كثيرة فى الشرق ، وهم الذين جعلوا إنسان الشرق لايزال أكثره كأكْداس الحصيد وأهْرَاء الغلال التى تترك فى أماكنها حتى تقتلها الآفات وينخر فيها السوس . . وهم بذلك يضيّعون على الإنسانية ثروات تحصل عليها من تشغيل أفكار هؤلاء الملايين وأيديهم . وهم بذلك يتركون الناس من غير تنسيق وتنظيم فى الحشد والتعبئة للمعابد والمعاهد والمعامل والحقول والجيوش .

هؤلاء ينبغى أن يزيلوا عن عيونهم غشاوات القرون الأولى ، ويعدّلوا أفكارهم على مقتضى ماتوحيه سنن الله الدقيقة التى تجعل من تصرفات جميع قوانين الطبيعة فى وقت واحد لحناً موسيقياً مُتَّسِقاً يشترك فى توقيعه كل شىء ، ويعلموا أن الكفر بعلوم الطبيعة والفسق عن نظمها ، كالكفر بالعقائد الصحيحة والفسق عن نظم الأخلاق .

إن الإيمان بالعلم وتنظيم الحياة الإنسانية بطرقه ، وإطلاق الأفكار فيه ، هو الأمر الواحد الذى ينتظم الإنسانية جميعها ، وتلتقى عليه

بأفـكارها وأيديها ، وقد جعلها تلمس عرشها المَرْمُوق ، وتعرف دولتها المأمولة فى مستقبل الحياة .

ولـكن أين « العصا السحرية » التى ستفعل فى تعديل شهوات الأمم وغرائزها وتعصباتها الذميمة ، بحيث تجتمع على خدمة العلم والحياة بأفـكارها وأيديها ؟

ذلك مايسأل عنه رجال التربية ، والمفـكرون فى الدين والاجتماع .

رجال التربية « فلاّحو » حقول الطفولة : منطقة النمو الدائم و « عُلَب » أسرار المستقبل .

ورجال الفـكر رسامو المثل العليا ، القادرون على استدراج الناس إليها وسجنهم فيها ذلك السجن المحبوب . .

ولـكن هؤلاء وأولئك لايزالون بعيدين عن مقاليد الحـكم وتسلّم مَقاوِد القطيع ، بينما مكانهم هناك لو صحت الأوضاع . ولا يزال محترفو السياسة والدجاجلة بها ، المتخلفون عن بلوغ القمة فى الفـكر والخلق ، هم الغالبين المتسلطين كما بينا سابقا .

وهؤلاء هم سر البلاء النازل الآن بالناس ، كما كانوا فى القديم .

الباقى
من صانع الحضارات الفانى !

اختزان المعانى الكبيرة — «العدسة» الخفية — التعجب مدخل التعبد — التعبد هو الغاية

ماالذى يبقى من الإنسان ابن الفناء صانع الحضارات ؟

أهو أن يصنع صورا فكرية وحضارية ناتجة من مزاوجة فكره بالمادة ، ثم لاشىء وراء ذلك ؟

وأين محصول النفس من المعانى التى يدركها فتكون ذخيرته فى نعيم الحياة أو جَرِيرَتَه فى شقائها ؟

أين المعانى الكبيرة التى يأنس بها الناس فى الحياة ثم يختزنونها فى ألفاظ تُتْلَى وتنشد ويصلّى بها : كالإيمان . الحرية . المجد . النجاح . السيادة . النبل . المروءة . الحق . العدالة . الإخاء ، وهلم جرا ؟

وأين أضداد هذه المعانى الكبيرة من المعانى الحقيرة التى تلهب القلب والضمير بسياطها الجارحة ، وتحملهما على الإدراك والعشق للحق والخير والجمال ، والفرار من الباطل والشر والقبح ؟ فهى أيضا عنصر يمد الحياة بالفهم والإدراك لأسباب الفرار إلى عالم الحق والجمال .

إن المواد والمخلفات الحضارية المادية لا بقاء لها ولا معنى ولا ذوق إلا فى نفوس الخلف بعد السلف ، وهكذا ...

وحضارة أمة تزهر ثم تذوى فى يدها فتنتقل شعلتها إلى يد أمة غيرها ثم تذوى وهكذا .

فأين المعانى العظيمة من هذه الحضارات العظيمة المتعاقبة ؟ هل فنيت مع أهلها وانتهت ؟

وحضارة الحاضر التى بنيت على العلم الطبيعى الذى يستمد ثباته ودوامه من ثبات الطبيعة ، ما بالها ؟ إنها قد أيقظت الإنسان للتاريخ يصنعه ويحوطه ولا يتركه يضيع ، وأشعرته بمعان عميقة للخلود الذى يصبو إليه ويتعلق بأسبابه ، وجعلته يفر من عوامل الفناء وأسباب الدثور ، ويرى أنها لاتليق بهذا الجهد العظيم الرحب الذى يبذله .

وقد رأينا إمبراطورية كالبريطانية صاحية يقظة حريصة على خلودها ، مباعدة بينها وبين عوامل الفناء ، جالبة عوامل البقاء والنماء ، قد طال عمرها حتى ضرب رقما قياسيا فى التاريخ .

فهل يجوز أن يكون ذلك الأثر المادى الحضارى هو كل ما يبقى من الإنسان ؟ إن هذا الأثر فى عميق التفكر وحقيقة الأمر ، ما هو إلا فقّاعات على سطح محيط كبير ، حياتها وبريقها وانتفاخها وحجومها وألوانها ماهى إلا صور من ضوء يشع برهة ثم يفنى فى بحر الظلام الأبدى . !

إذاً فما هذه الخديعة الكبرى التى تغشى على عين الإنسان وتجعله يخال نفسه صورة من الكرة العالمية ، بل يخال الكرة العالمية صورة من نفسه ؟ !

إنها فى تلك « العدسة » الخفية التى فى قلبه ، يَرْوِى بها الله العالَم فى ناظريه ، ويطويه بين حاجبيه !

والتفكير فى هذا الشأن من حياة الإنسان يحملنا على أن نقول :

إننا نصنع هذا المتاع المادى الدقيق ، وهذا الجمال المؤقت الذى تحلم به أرواحنا وتحققه فى المغانى والمَرابع والأغانى وسائر المرتفقات واللذات ، لـكى نراه يفنى على رَغْمِنا ، فيحملنا ذلك على التعلق بما يستطيع الله مالك هذا الوجود أن يفعله من الجمال الدائم السرمدى الذى نشعر شعورا خفيا عميقا أننا خلقنا له ، ونسير فى طريقه جماعة بعد جماعة . .

وما دام الإنسان استطاع أن يقيم لنفسه عوالم رائعة من الجمال المؤقت فلا شك أن بارئه وبارىء الطبيعة يستطيع أن يبنى عوالم من الخلود والجمال الدائم الذى يغازل أحلام الإنسان . . فإن جمجمة صغيرة ضئيلة كالتى له ، استطاعت أن تصنع من المتاع والجمال ما يَرُوعُها ويحبب إليها الاستمساك بهذه الحياة . . فكيف بالعقل المحيط ذى العلم الأوسع ، والقدرة الفائقة ، والروح الأكبر ؟ !

* * *

حينئذ يسلمنا هذا الأمر إلى أن نقول : إن الجزء المعقول بقاؤه من حياة هذا الإنسان الفانى مع مايصنعه ، هو هذا الجانب الذى يختزن المعانى العظيمة التى يتغنى بها ويعشقها فى حياته الدنيا — وقد يتعجل الرحيل عن هذه الدار من أجلها ، ومن أجل شفاء نفسه من أضدادها ! — ثم يتعجب منها ويشعر بها بعمق ولذة كريمة وأنس وإجلال . هو جانب التعبد . وهو مفتاح الشعور بالدخول إلى رحاب الخلود فى هذا العالم الأكبر الخالد ... وماعدا هذا الجانب فمحضَّر له ومهيَّأ ؛ فإننا نفكر لكى نتعجَّب ... ونعيش بالحس لكى نتعجب ... ونعمل فنمشى ونطير ونزحف ونصنع ، لكى نتعجَّب . .

نتعجب من الأسرار المودَعة فينا وفى الـكون الذى نعلم أننا غرباء عنه راحلون منه بأجسامنا .. ونتعجب لـكى نرسل كلمات الاستحسان والمسرّة والشكر لمن أدخلنا إلى هذا العالم العجيب . . فنقول لبارئه وبارىء نفوسنا : ها نحن أولاء عبيدك الشاكرون المتعجبون من قدرتك وعلمك اللذين جعلانا فاهمين قادرين عالمين !

وتلك هى صفوة العبادة .

وليس مايصنعه الله مباشرة فى الطبيعة وفى النفس هو وحده الذى يوجب التعجب والإيمان . . بل معه ما يصنعه الإنسان نفسه يضاف إلى موجبات الإيمان .

وفناء مانصنعه بين أيدينا على رغمنا ، باب عظيم من أبواب الإيمان ؛ فإن قدرة وعلما كاللذين لنا لايصح أن يفنى صاحبهما فناء إلى غير رجعة ومصير أعظم .. كلا لايجوز !

والدليل على ذلك هو استفتاء الشعور المرهف بالحياة والتعلق المشبوب بها . ودَعْ عنك البراهين الأخرى ...

فالتعبد هو ثمرة حياة الإنسان صانع الحضارات الفانى . . الخالد !

إلى العقل الغربى

من الروح الشرقى

إنسان غير مفهوم — أوروبا المعمرة المدمرة — نكسة — خديعة ذهبت إلى جهنم — نغمات وترتيلات جديدة — فى الغربى سيماء غنى عن الله — العقل الغربى المغرور — تناقض بين حياة الأرواح وحياة الأجسام — من الطبيب ؟ — قانون طبيعى ينتقم لنفسه — عبقرية المادة وعبقرية الروح — الذكاء البطر الجموح — إلى أحضان الأم الكبرى !

الغربى إنسان غيرمفهوم ! فقد كفر الأوروبيون بالحياة فى هذه الحرب بعد أن جُنُّوا بها جنوناً فى وقت السلم ، وهم لم يذكروا السلم فى زمن الحرب ، كما أنهم لم يذكروا الحرب فى فترة السلم .

لم يتخذوا من قانونى الحياة والموت حداً وسطاً يقيمون عليه حياتهم وما استُخلِفوا عليه من حياة الآخرين ، فيعيشوا على كفتى ميزان متعادلتين آخذين حظاً صالحاً يعدِّل السلام ويعدِّل الحرب .

هم فجروا فى فترة السلم : فتشهَّوْا ، وكفروا ، وعبدوا الهوى ، واحتقروا الضعيف ، وشرِهوُا المال ، وغصبوه من أفواه الآخرين بالحديد والنار ، وخانوا أمانة الاستخلاف على الأرض ، وتنازعوا على الطعام الكثير كما يتنازع الأطفال غير المهذبين !

وهم فجروا فى هذه الحرب ، فلم يرعوا حرمات الحياة الإنسانية التى

قدستها الأجيال : فصبُّوا العذاب على الأطفال والنساء والمستضعفين والمرضى وسكان المعاهد والمعابد المسالمين ، وحرقوا الأقوات والأرزاق والمأوى ... فحياتهم لا تحتمل ولا تستحق العمل بعد هـذه الحرب إذا أصروا على أن يلجأوا لحرب أخرى بهذه الـكيفية النكراء التى تدمر ما عمَروُا وعمَر الناس . . .

من يصدّق أن أوروبا البانية العالمة المعمِّرة المخترعة العابدة للحياة ، الساعية الجاهدة فى سبيل الـكشف والمال والاختراع ، الباحثة المنقبة عن خبايا الأرض ورِكازها ، ، الرائدة الـكاشفة عن مجاهلها ، المبشِّرة بالمثل العليا بين الأقوام المتخلفة ، القاضية على تجارة الرقيق ، الحاملة للتجارات والمعلومات ، الواصلة بين أقطاب الأرض صلة اللاسلـكى والراديو والتلفزيون ، المرسلة « المرسلين » لهداية الوثنيين ، الدارسة للأنواع والأجناس . . . هى هـذه المخرِّبة المدمِّرة الباطشة بطش النمور والأسود ، القاسية على النساء والأطفال والضعفاء ، المفتنّة فى وسائل الآلام ، الهدامة للدور ، المحيلة عمار المدن إلى خراب القبور ؟ !

* * *

الأجسام العاجيَّة الجميلة تذوب وتصهر وتسحق عظامها وجماجمها تحت أثقال الحديد والجلاميد . . . !

الوجوه المشرقة البيضاء ، ذات العيون الزرقاء والشعور الذهبية ، ذهبت قرابين تأكلها النار باختيارها !

مسكينة ! طافت فى جميع بقاع الأرض تجمع الذهب الأصفر « والذهب

الأسود » والحديد ، ثم أو قدت على الجميع فى النار واحترقت معه !

جمعته فى أنانية وجشع واعتزاز واعتزام ... لا لتملأ البطون الفارغة وتكسو الأجسام العارية ، وتعين أبناء الحياة على نوائب الحياة ، ولكن لتملأ أفواه المدافع وبطون المقابر ... !

خلاصة الإنسانية العاملة المجاهدة المتاجرة المحاربة العالمة ، تحترق الآن على مشهد من الزنوج والإسكيمو !

الحياة تتحطم بأيدى بنّائيها ومقيمى صروحها العالية ، وجامعى مواد بنائها من لحومهم وعظامهم ودمائهم وذهبهم وحديدهم ونور عيونهم فى المعامل والمعاهد !

الغادة اللعوب الفاتنة ، ذات المساحيق والأصباغ والعطور والأزهار واللؤلؤ والديباج « والمانوكير » ، تتكشف عن العجوز الشوهاء الدَّرْدَاء المريضة الرَّسْحاء ، ساكنة الكهوف والمغارات ، الضاربة على الدفّ لشنّ الغارات !

الأُمّ العاقلة العالمة ، تصيبها جِنّة وجهالة فتأكل بنائها وبنيها !

لندن و برلين يُصَبُّ عليهما الخراب والدمار صبّاً فيُباد ما فيهما من مراكز نمو الحياة و « عُلَب » أسرارها « وقماقم » أجِنّتها وولائدها ! ...

والإنسانية الجاهلة الغافلة المقيمة بالأكواخ فى القارة السوداء وأواسط التُّبَّت ترى هذه الإنسانية العالمة المدبرة الجميلة تشن الغارة على الحياة بالزلازل والبراكين والصواعق الصناعية ... فتحمد الله على الحياة فى الغابات مع الأسود والقرود التى لا تلتقم منها إلا أفراداً !

الحياة تصاب بنكسة حادّة يا أطباء الحياة ... فهل من دواء لها فيما صنعتم من العقاقير والأَقْرِباذِين ؟ !

* * *

كنا أوشكنا أن نعبد الدنيا ممثلة فى لندن وباريس وبرلين ، وننسى نهاية رحلتنا فيها غرباء عابرى سبيل ، لانملك المكث ولا البقاء ، ونخضع لقوانين الزوال والفناء ، ويدور الفلك بنا دورات حتمية تُشِبُّ الطفل وتشيب الصغير وتفنى الكبير وتلقى بنا إلى المجهول ..

وكنا أوشكنا أن نظن تلك الأجسام الأوروبية القوية الجميلة الرقيقة الرشيقة الذكية هى الإنسان المقصود بالحياة .. وأما من عداها « فحيوانات بشرية ! » — كما تعبر الهتلرية — ومخلوقات تكميلية خادمة لها ، تعيش على هامشها ، وتسير فى خدمتها ، وقَبُح اعتقادنا فى أنفسنا تبعاً لذلك ، حتى تركنا لها الأرض طوعاً وكرها ، وخلَّينا لها مكاننا من الدنيا ...

وكنا اعتقدنا أن «عناوين» النظم الأوربية ثابتة لا تتزلزل ، ونظمها البارعة عزيزة على أصحابها ، وأن الإنسان الأوروبى مقدس لدى نفسه وأممه ، فلا تحطيم لدنياه ، ولا نسف لنظم حياته ، ولا تمثيل به ، ولا سحق ولا نثر لأشلائه . . .

وكنا أوشكنا أن نرى العالم المادى الدقيق ، الذى صار التنويع فيه والتشكيل والتلوين والدقة والتركيب كأنه دنيا أخرى من مخلوقات الحديد والصلب والخشب وسائر المواد الجامدة ، منفصلة عن روح الحياة فى الإنسان، فأخذنا نعيش بها عيشة آلية صخّابة بدون وَعْى ووداعة وإحساس

من الروح ويقظة للمصير المحتوم !

ولكن هذه الحرب أخلفت تلك الظنون الواهمة ، وصححت أفهامنا الفاسدة ، وكشفت عن أبصارنا غطاء التمويه وسحر التخييل ، فإذا بنا نعود ، وإذا بالأوربيين أنفسهم يعودون معنا إلى المعانى الأزلية الخالدة التى بزغت من قلوب أنبيائنا ، واستنزلوها من السماء بالإخلاص والبكاء لرب الحياة الذى وضع الإنسان فيها موضعه بين الأهوال والألغاز والأسرار ...

وإذا المثل العليا يعود ذكرها إلى الألسنة والأقلام ، يرددها الساسة وسماسرة المال ! ويخطبون فيها خطابة الأنبياء والمرسلين بين عبّاد الأوثان بالبيان الساحر والحجج الأخّاذة ، والإذاعة العريضة الواسعة .

وإذا الترتيلات بالحق والسلام والعدالة ، تنبعث من جميع بقاع الأرض وتنطلق بها حناجر الناس جميعاً ، وتزيد كل أمة فى طنبورها نغمة ...

وإذا النظم الأوروبية الظالمة الجائرة المتحجرة تذوب تحت حرارة أنفاس الدعاة إلى السلام والحق والعدالة ، وتحت نيران هذه الحرب التى انتقمت شر نقمة من طغيان السياسة والرأسمالية والدعوات الهدامة .

وإذا بالروح الإنسانية الوديعة الرحيمة المؤمنة بالله وبالإنسانية تعود فى جو مخضّب بالدماء ، مُنَدًّى بالدموع ، مطرّز بالآلام ، إلى القلوب المهجورة القاسية الكافرة ، كما يعود طير شارد تائه إلى عشه المهجور ، ومكان حنينه وأشواقه ، فيراه خرباً منثور الأعواد ، عبثت به الرياح ، وعششت فيه العناكب ... فما يزال يضم عوداً إلى عود وورقة إلى ورقة

ويرفرف عليه بجناحيه ، حتى يطرد عنه أنفاس السوء وأوساخ الحشرات ، ثم يعمره بالرحمة والحب والحنين ...

* * *

وفى هيئة أكثر الإنسان الأوروبى الحالى وسلوكه سِماتُ غِنىً عن الله ، وقسوة على عياله الضعفاء ، وتكبُّر على الفكر فيه ، ونسيان ذكره وقت الأعمال والاحتياجات ، وجحود لتدخله فى الأمور . كأن هذا الإنسان مخلوق هكذا بدون خالق ، أو كأنه خلق نفسه ، وكأن هذه الدنيا ذات الرحاب الواسعة ، والقوى الجبارة التى ليس للإنسان فيها من شىء ، خلقت بيده ، فهى مملوكة له ، لاتثير فى نفسه تطلعا وخوفا من القوة المسيطرة عليها !

وقد غرهم أن ذكاءهم ضمن لهم تحقيق بعض الآمال والمطالب فى بيئتهم المحدودة : الأرض ، تلك الذرّة الصغيرة فى الكون الواسع . .

ومن العجيب أن كثيراً منهم وهم فى نيران هذه الحرب وأهوالها ، لايذكرون الله كثيرا ، ولا يتطلعون إليه وفى أعينهم دموع ، وفى قلوبهم قذائف ونِصَال !

إن كثيرين منهم جحدوا الله ونسوه ، ونسوا أننا لم نخلق إلا لنعرفه ونعرف شئونه الكبرى العظيمة فى الطبيعة ، فشغلنا عنه بأنفسنا وشئوننا التافهة .

وإنك لتعجب كيف يأتى الغرور إلى عقول بعض العلماء من الغربيين حين يخيل إليهم أن علمهم ميزان يزنون به علم الله . . مع أن علمهم قد أخذوه من

بعض صنع الله . . !

ولكن ذوى الروح الدينية الشرقية أيقنوا مبدئيا أن ذات الله أعظم وأوسع مما توحيه الطبيعة وعلومها . . ثم قالوا إن الطبيعة فيض من الله ، وإنها قاصرة عما عنده تعالى من الكمالات والعلوم ، وإنه إن شاء خلق غيرها أعجب منها .

فإدراك الله يعتمد على قوة الحكم والإدراك النفسى ، ولذلك لا يكون خاضعا للعلم المادى وحده فى صلب القضية ؛ وإنما فى حواشيها : أى من ناحية زيادة الاطلاع على دقائق فعله فى الطبيعة ، فيزيد إعجابنا بصفات علمه وقدرته .

فلنذكر دائما حينما نكون أمام منظر ما ، أو مع إحساس نفسى من عَلَوات الدنيا وسفالاتها ، أن عين الله وفكره معنا ، وأنه يرى ويسمع مانرى ومانسمع ، وأن علمه وقدرته بمانعلم وما نقدر على أن نعلمه ، سابقان على علمنا وقدرتنا .

* * *

لقد بنى الغربيون حياتهم على مناعة الأجسام وحدها من أمراضها ، ولم يبحثوا عن وسائل مناعة الأرواح من آفاتها ، فأخذوا الحياة من جانبها الضعيف ، وتركوا الجانب الآخر . وقوانين الطبيعة لا ترحم من يخالفها ولا تحابيه ، بل تدافع عن وجودها وتهدم من يحاول هدمها .

فمن يدع ثغرة فى بناء الحياة من غير سدها ، أوشك أن يدخل منها

إلى البناء مايأتى عليه من القواعد ، ويجعله خاوياً على عروشه .

وكان جديراً بالإنسان الأوربى الذى يعرف حجم الميكروب الصغير وخطورة آثاره ، فيحترس منه ويقيم الأرصاد والجواسيس خشية اقتحامه عليه ثغرة من ثغرات جسمه ، أن يعرف أن للحياة الروحية جراثيمها الفتاكة ، فيجاهد لكفاحها وقتلها كما يفعل بأخواتها جراثيم الأجسام ، حتى تسلم جميع قواعد بناء الحياة من أسباب الانهيار .

ولكنه لم يعرف بعدُ الجراثيم الروحية ، ولا يزال روحه يعيش فى عصر التطبيب بالخرافات ، كما كان يعيش فى عصر الخرافات فى طب الأجسام ...

ولا يزال يسخر من أطباء الأرواح وعلاجاتهم ، كما كان يسخر من أطباء الأجسام حين يفاجئونه بكشف جديد لمرض قديم .

فإلى أن يؤمن بما يصنع له طب الأرواح ويعمل به ، سيظل شقياً بتلك الأمراض التى هى أشد فتكا من الطاعون والسل والجدرى وغيرها من الأمراض التى تهدم الإنسان وحده ، ولا تهدم معه تاريخه ومبادئه ومبانيه وأمواله .

فمن أعراض أمراض الروح ، تلك القنابل والصواعق والحرائق التى تترك المدن التى صبّت فيها جداول المدنية والعلوم ، والتقت فيها الحضارات وثمار الجهود المشتركة ، خراباً ودماراً كأن لم تَغْنَ بالأمس .

ولكن ينبغى له قبل ذلك أن يخرج من بين أطباء الأرواح أولئك الدجالين المشعوذين ، والأغبياء المحدودين الذين قد يقتلون النفوس بالعلاج

الخاطىء ، أو يغلقونها دون رحمة الله ، أو يصيبونها بعاهات ، أو يعالجونها بالخرافات والشعوذة وأسباب الضلال ، كما فعل بأشياعهم الذين كانوا يندسّون بين أطباء الأجسام من قبل ، حتى يستقيم علاجه على أيدى الإخصائيين الذين خلقهم الله لقيادة النفوس بالسلوك والمعاملة والبيان الواضح والفكر المضىء المنير .

أولئك الأوصياء لايلزم أن تكون منهم فى الأمم كثرة ، بل ينبغى أن يكونوا قِلّة ؛ حتى لاتصيبهم مصائب الزحام على الأرزاق والوظائف .

ويجب ألا يرتفعوا إلى المناصب بالوساطات والشفاعات و«الشهادات» بل بأنفسهم وما فيهم من خلق الوصاية الرشيدة والسياسة الحكيمة ، والقدرة على إدراك الداء فى كل نفس ، ووصف العلاج .

إن رجل الروح والاجتماع وحده هو الذى يوجه المجتمع ، فواجبه أن يأخذ بمقاليد العلوم وفنون الحياة جميعها ، ليدخل على الناس بالعظة والتذكير من آفاق كل نفس ، علماً منه أن كل نفس تأخذ منطقها وأحكامها من الأفق الذى نشأت فيه وارتضته لحياتها .

ولذلك كانت مهمة رجال الروح والاجتماع أعظم من مهامّ غيرهم ، ولا عجب ؛ فهم الأوصياء على القطيع لو عرف مكانهم ... ولذلك أتمنى أن يكونوا دائما أذكى الناس وأرحبهم قدرة واطلاعا .

وينبغى أن يدقق فى اختيارهم غاية التدقيق ، وأن تكون وسائل العلاج هى ماصلح من مواريث القديم ، وأصلح الآراء فى علم النفس الحديث . أى أن يكون علم النفس هو وسيلة التربية الروحية والدعوة إليها ، كما صار علم وظائف الأعضاء وعلم الأغذية أساس الطب الجسدى

الحديث . وعلم النفس أوشك أن يكون من الدقة والصحة بحيث يستطيع أن يضع الإنسان فى المخابير والمسابير ، ويقيس مافيه بأرقام !

إن قوانين الروح قد غضبت وانتقمت لنفسها شر نقمة من الإنسان الذى لم يقم لها بعدُ وزنا . وإنه لجهل وسفه ألا يفطن الإنسان الأوربى بعد إلى أن يحمى نفسه من غضبها ونقمتها كما يحتمى من غضب قوانين صحة الأجسام .

إنه يخشى أن يمد يده فى النار لئلا تحرق ، أو يلقى نفسه فى الماء لئلا يغرق ، أو يقف فى طريق قاطرة لئلا يسحق ... ولكنه يرضى لنفسه أن يبخل فيُسرَق ، وأن يَشْرَهَ فيُكرَه ، وأن يستبد فيُحارَب ؛ وأن يُخِلّ موازين العدل فتفسد حياته بفساد حياة الآخرين ، وأن يترك الناس إخوانه جاهلين مرضى الأجسام والنفوس فيمرضوه ويُشْقُوا حياته بشقائهم..

كلمةٌ يجب أن تعلم وتكرر دائماً أمام الدولة وأمام الفرد ، وهى :

إن الدولة كائن عضوى واحد كالجسم الواحد ذى الروح الواحد . . فإذا سمح لشىء منه ، ولو كان ظفراً ، أو منبت شعرة ، أو خطرة نفس ، أن يدخله الفساد ، فسيلحق الجسم كله — وأنت خلية فيه — آثار ذلك الفساد وآلامه .

فاحذر أن يمرض أخوك أو خادمك ، حتى لاتنتقل عدواه إليك ، واشترك فى إطفاء الحريق فى بيت جارك ، قبل أن تمتد النار إلى دارك !

* * *

الغربيون قدموا لنا عبقرية المادة ونود أن نقدم لهم عبقرية الروح ، وأن نريح أرواحهم كما أراحوا أجسامنا .

إنهم استغنوا بذكائهم عما وراء الطبيعة ، وقد كفاهم ذكاؤهم تدبير أمورهم كلها ، فيما يخيل إليهم ، مع أن الواقع أنهم فى شَبَكَة الأقدار العليا والتدبير الشامل لحياة الأرض والكون . والرجل الذكى غنىّ بالحِيَل وتجدد الأفكار . والغنى يبعث دائماً على الطغيان . ومن هنا أُتِىَ الغربيون ودخلت عليهم نكبات الحياة لأنهم اعتمدوا على غنى ذكائهم وحده .

وحين يستغنى الطفل بذكائه وقدرته عن ندى أمه ورعايتها ، ويعلو مستواه البدنى والعقلى عن مستواها ، فذلك عهد ابتداء عقوقه إياها إذا لم يكن ذا ذخيرة موفورة من الإدراك والحب والرحمة والأدب النفسىّ ، وإذا كان ينسى أنه قطعة قُدَّت من جسمها وقلبها ، وأنها الوَشِيجة الوثيقة بينه وبين أُرُومة الحياة والطبيعة .

وكذلك ينسى الإنسان الذكى عجزه أمام قهر رب الطبيعة ، ويستغنى بذكائه عن الاستمداد منه والاستيحاء منها ، فيصير مخلوقاً يكاد يكون لاصلة بينه وبين مافى الطبيعة من موجودات تسير طائعة بالإلهام والتوجيه .

فهل نترك الغربيين يذهبون بأرواحنا وأرواحهم فى أودية بعيدة عن الرحمة والعدالة والأشواق إلى المجهول والبحث عن الله ذى الجلال ؟ !

أنتركها ونتركهم للحديد البليد القاسى يطبعها بطابعه ، ويوحى إليها ببأسه سياسة البطش والطغيان ، ويشغلها بضجته المنكرة عن همسات القلوب وأصوات الضمائر ؟

إننا إن تركناهم وتبعناهم على الخير والشر ، فسوف نكون فرائسهم

وجَزَرَ سيوفهم ، وطَحين طواحيهم الحديدية الحمراء !

فلنذكّرهم بمبادىء الطبيعة أمّنا وأمّهم ! تلك المبادىء التى فيها من منطق الوجدان أكثر مما فيها من الذكاء الجامح وقوة الاختيار من غير ضابط من هدى الروح .

وإن الطبيعة لتذكّر أبناءها دائماً بوصايا الحق والعدل ، كما تذكّر الأم البسيطة أبناءها الأذكياء بوصاياها وعواطفها التى بَنَتْ عليها عُشّها . فمهما اختلفت أفكار الناس وأخلاقهم فإنهم يتوحدون حين يقفون بين يدى الطبيعة ، ويشعرون بشعور واحد فيه صدق الفطرة واعتدالها .

ومبادىء الأمومة ، وجوُّها ، وبساطتها ، وعدم تكلفها ، والحنينُ إليها ، والشوق إلى مهدها ، يجب ألا تنسى ؛ لكى يعيش الإنسان باراً رقيقاً عامر القلب بالعواطف الشريفة ذات التأثير الكريم فى خدمة الحياة .

وكما يوصف الرجل الذى يهجر أمه بالعقوق واللؤم والنذالة مهما كانت هى بسيطة جاهلة ، ومهما كان هو فائق العقل واسع العلم عريض الجاه ، كذلك يوصف الرجل بالعقوق حين يهجر أحضان الطبيعة : تلك الأمّ الكبرى ، أو حين يؤذى أو يهمل إخوته منها !

أمّا بعـــــد...

obeikandl.com

متى النُّور يا ظُلُمات !

مع النور الصادق — الظلام الغاسق من النور الكاذب — الفتنة بمبقريات الظلام — تفاؤل وأسبابه — ابتداء دورة زمنية — تأويلات — الكلمات الحمراء تهيج القطيع الوديع — مات الميت فليحى الحى ! — تدريب عنيف المستقبل مجهول — الحياة تنقل أقدامها إلى المجاهل — لندن هدمها الإنجليز لا الألمان ! — هل وعى الإنجليز الدرس ؟ — هل ينسى الأمريكان كما نسوا من قبل ؟ — رسالة الأمم الناطقة بالإنجليزية — رسالة مدخرة للعرب أمة المستقبل

«أما بعد» فقد أطبق الظلام فى هذا الحرب على جميع آفاق الأرض ... واختفى النور الصناعى الذى كانت الإنسانية تتسلّق عليه إلى سُبُحات الجمال الموقوت والفن الفانى والطمأنينة الكاذبة ... وارتدّت الأحلام السعيدة إلى واقع الشجن والألم والانتكاس ، فعانقت أشباح الكهوف والمغارات ، وصارت قلوب بنى آدم أوكاراً لمخلوقات شنيعة شوهاء ، هُنَّ بنات الظلام والغدر والخيانة والجريمة والخديعة !

ولم يبق للإنسانية غير ينابيع نور الطبيعة تَسْتَصْبِحُ به ... لم يبق لعيونها غير الشمس والقمر والنجوم ... ولم يبق لقلوبها غير نور «النور» قبل الأزمنة والدهور ... ولم يبق لأفكارها غير مبادىء الحق الواضح فى الطبيعة .

أما الفلسفات والآراء والنظريات البرّاقة التى رددتها منابر المعاهد

والمجامع ومجالس الترف العقلى ، فقد اختفت مع اختفاء الأنوار الصناعية التى أوقدتها الأيدى المظلمة النجسة التى لم تتطهر بنور الله ، وقد طارت بكتبها وسجلاتها قذائف الحديد والنار ....

تُرى : هل تكون أمواج هذا الظلام الوفاقاً يغسل الأرض من ذلك النور الصناعى المدنّس المدخول الذى لم يجر من منابع الحب ويد الله ؟ وإنما من يد الشيطان الذى طمس وجه الحياة ، وجعلها فى نظر الأحياء ليست أكثر من اقتناء الفحم الأسود و« الفحم الأبيض » والذهب الأصفر و « الذهب الأسود »؛ ثم أغراهم بذلك وجعلهم وراءه يتراكضون تراكض الذئاب بالأظفار والأنياب فى عصر العجز والقصور ، وبالفَياصِل والمَناصِل فى بدء عصر التغلب والقدرة ، ثم بالطائرات والغائصات والبارجات والجرّارات فى عصر بلوغ الأشُدّ واكتمال السلطان ! ؟

أم أن القلب البشرى لا يزال ولن يزال يعبد الظلام ويفىء إليه ويأنس بسكانه ، ويرى فى عالمه عبقريات يجب الرجوع إليها على فترات من الزمان ؟ ولن تزال وثنيات الجنس ، وخيلاء القومية وعبادة البطش وشهوات الاقتناء ، عقائدَ مقدسة يُفَلْسَفُ لها وتصطنع فى حبها ترانيم وأناشيد ، وتقدم لمذابحها قرابين من اللحوم البشرية ، ولمجامرها بخور وعطور من الأموال والمقتنيات ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؟

أما أنا فقلبى تغمره موجة من التفاؤل الأكيد حول مستقبل سعيد قريب للإنسان . وظنى أن هذه الظلمات تتمخض عن فجر أبلج وضّاح ، يغمر آفاق الأرض غمراً طويلاً كما غمرتها هذه الظلمات طويلاً ... لأن

قواد المعسكرين الهائلين المتحاربين لاينفكون يرددون على أسماع الأمم التى فى أيديهم أزمتها ومقاليدها؛ أنهم يحاربون فى سبيل خلق عالم إنسانى عادل سعيد هانىء بعد الحرب؛ فإذا حدثت القوادَ نفوسهم أن يَخِيسُوا بعهودهم وينقضوها، فإن المجهودين المنهوكين من جنود الحرب وعمالها ومنكوبيها سوف ينكلون بهم تنكيلاً، سواء أكانوا منصورين أم مخذولين، لأن الجرائم التى ارتكبت فى هذه الحرب لاتغتفرها الشعوب إلا إذا رأت أنها أسلمت الناس إلى عالم أسعد وأكمل من العالم الحالى، ولأن الحياة الاجتماعية لاتحتمل حرباً كهذه الحرب التى تدمر الإنسان مع ماأقامه من المدن والأعمال ومخلفات التاريخ ومقدسات العقائد والوصايا الخلقية بالأطفال والعجزة والشيوخ والنساء ... ولأن حرباً بعد هذه الحرب لابد أن تكون أدهى منها وأمر، بحيث تسحق «براعم» الحياة المدنية وأصولها سحقاً لايبقى ولا يذر، بما وصل إليه هذا الإنسان العجيب وما سيصل إليه فى فترة السلم التى تعقب هذه الحرب.

* * *

ويخطىء من يظن هذه الحرب صورة من ذلك العراك التقليدى بين بنى البشر، وأنها ثورة غرائز وحب غلبة بين مجموعة ومجموعة من أمم تحب الحرب للحرب، وتمجدها لا لشىء إلا اندفاعاً وراء تلك الغرائز والحركات التاريخية الموروثة ... إن من يظن ذلك ذو نظرة متخلفة، لاتزال تعيش فى حدود النظرات الأولى للإنسان.

إن هذه الملحمة الكبرى تحولٌ عميق أصيل عظيم فى توجيه الحياة.

الحياة الخاصة للأمة الواحدة ، والحياة العامة للأمم جميعاً ... فلنتيقظ لهذا ولنؤمن به ، ولنعمل له .

وإن القدَر يؤْذِن بميلاد حياة جديدة ، وابتداء دورة زمنية بعقل الإنسان وقلبه وجسمه بعد هذه الحرب الحُطَمَة الضَّرُوس التى تهدم مُثُل العالم القديم الضيقة بمُثُلها وأفكارها الحرة ، كما تهدم مبانيه ومخلفاته بالديناميت .

وهاهى ذى مواكبها ومراكبها وجرّاراتها العنيفة وزواحفها وطائراتها القاذفة والمنقضّة والمترنحة والشراعية والهابطة ، وصواريخها وأبراقها وأنفاسها فى الأثير ، وعيونها الكشافة ، وحشود جيوشها الآخذة من شمال الأرض وجنوبها وشرقها وغربها فى قاراتها الخمس وبحارها السبعة ، ومن وراء كل أولئك عقول جبابرتها وأساطين علمائها ، ومعاملها الساهرة ومناجمها الحافرة ، ومحادثاتها السرية والجهرية ، ومؤامراتها والدماء والأرواح المبذولة فيها من الجيوش البيضاء والسوداء والصفراء والحمراء ، والعروش المقوّضة والصوالج والمقاليد المحطمة ، والحديث عنها بكل لسان ، وبين كل قبيل من المتحضرين والهمج .

ألا إن الحياة تنقل أقدامها بهذه الحرب إلى المجاهل ، حينما رأت أن كثيراً من بنيها لم ينهضوا بعد من مراقدهم فى الكهوف والغابات لمشاهدة مواكبها الحديثة التى دقت نواقيسها فى الآفاق ، ولم يشتركوا فى حمل قوائم عرشها العظيم الذى من لم يره ويدرك أسراره ، لا يمكن أن يقال عنه إنه ابن زمانه ، وإنه حقق الغاية المنشودة من إخراجه للحياة فى زمن بعينه .

ولما رأت أن نورها فى دَوْر السلام والاستقرار استأثر به جماعة من الأوصياء الأنانيين ، وتركوا غيرهم من القاصرين يخوضون فى الظلام والجهل ، حولت ذلك النور إلى شعل ذات لهب وحريق يأكل هذه الصدور الأَثِرة الأنانية التى ماعرفت قصد الحياة من وضع مصابيح النور فى أيديها وخانت أمانات الاستخلاف ...

فمن الذى لايستيقظ ويتنبه بعد كل هذه الضجة النكراء ، ويسرع إلى موكب الحياة العظيم بالجسم الخفيف القوى الصحيح ، والفكر اللطيف اللماح العالم ، والقلب المؤمن العارف الحامل لأمانات الحياة ؟ !

* * *

وإذا أعرضت الإنسانية ونسيت آلامها الحاضرة و بؤسها وشقاءها بهذه الحرب ، وتركت الأنظمة الجائرة الغاشمة المغلوطة تتحكم فيها ، فويل لها ثم ويل لها ! وويل للذين يقودونها ! وتعساً للمكتوين بنار الحرب من العمال والصناع والجنود إن لم يقفوا فى وجه اللاعبين بالشعوب !

ما أجمل إخاء العالم الإنسانى ! وما أقربه فى القلوب البريئة من أكثر الناس ! لولا الذين يُؤَرِّثون فى صدورهم نار الحرب والحقد ببعض الأناشيد وإثارة الذكريات الجاهلية ، والخيلاء العسكرية ، والألوان الدموية المهيّجة !

إن الثيران تظل هادئة مستأنسة ، حتى يثيرها مثير باللون الأحمر فيحولها إلى وحوش فاتكة .

وكذلك قطعان ابن آدم ، تريد الهدوء والاستئناس ، حتى يثيرها مثير

بالكلمات الحمراء ، والحماس الكاذب ، وحب الشهرة عن طريق الحرب والتخريب حين لايوجد مجال لبعض الرجال للشهرة عن طريق السلم والعمران و إضافة شيء إلى بناء الحياة .

* * *

وما أعظم خسارة الإنسانية فى أبناء السلم الذين ذهبوا فى ضحايا هذه الحرب

إنهم إنسانية عالمة عاملة مدربة ماهرة ، كانت قد نجت من عوامل الموت والجهل والجَفْوةَ ، وتعبت فى تربيتها ثقافات السلام التى استُحدِثت بعد الحرب العظمى الماضية .

إنهم ثمار كبيرة نمت فى جمال وصحة ، ولكنهم الآن يموتون فى جفاف الصحارى وزمهرير الثلوج ، وعلى أذرع الموج الفاغر والهواء المُخَلْخَل ، وتحت أثقال الحديد ، و بين صعق القذائف ! وهكذا يذهبون طعمة لوحوش الفلوات وأسماك البحار ، وتتساقط أعضاؤهم بين رُكام الثلوج ، كأنهم عصف مأكول أو هباء منثور .

فما أعظم خسارة السلم فيهم بعد انتهاء الحرب ، حين تُفتَقَدُ العناصر العالمة العاملة الفنيّة فلاتوجد إلا بعد حين !

ولكنهم قربان كان لابد من تقديمه فى سبيل مطلب عظيم !

وقد مات الميت فليحيَ الحى !

* * *

وما أعظم ماتحتمل أعصاب البشر ! إنهم برهنوا على أن أرواحهم

أقوى من الفولاذ والديناميت ؛ إذ رضوا أن يَغْدُوا ويَرُوحوا على مواقع هذا الموت الفظيع والعذاب الوجيع ، وهم مع ذلك يطيعون ويُنشِدون ... وإذ رضوا أن تهدم ديارهم وأموالهم ، وتنسف أطفالهم وحبيباتهم .

ذلك تحرر وانطلاق فى سبيل العزة وصيانة العقائد .

أين صور الأهوال ووقعها فى نفوس الناس قديما ؟ من كان يظن أن يعيش فترة ينتظر فيها نزول الصواعق والنواسف كل لحظة من السماء ، وهو مع ذلك يأكل ويُباعِل ويرقص ويغنّى ويقتنى الأموال وينشد الرِّفاء والأطفال ؟ !

من كان يظن أن يفعل الناس هذا وهم فى ساحات هذه القيامة ؟ ! ماأوثق مار بط الله الإنسان بالأرض !

هذه النفس البشرية أقوى وأبقى من هذه الأهوال ؛ لأنها هى التى صنعتها ولذلك لاتخشاها .

ألا يجوز أن يكون هذا الاحتمال الصابر الذى بدا من النفوس البشرية تحت آلام النار والحديد ، تدريباً لها من الأقدار العليا ، وإعداداً لمستقبل مجهول ستحتمل فيه آلام اختراق الحجب الكثيفة التى تحول بينها وبين علم الكثير من غيب السموات والأرض ؟ !

ألا يجوز أن يكون هذا التسابق العنيف بين الدول المتحاربة فى اختزال الأبعاد والمسافات واقتحام العقبات ، إنما هو حَبْوٌ على عتبات باب من الانطلاق والتحرر ؟

ألا إنها الطبيعة الجامدة الميتة تلبس هذه الأجساد الحية الثائرة المُتْرَعة

بالحياة المتجددة ، الآخذةَ من موارد علم الله وقوته وقدرته !

ألا إنها القوى التى طال سجنها وكُمُونها فى صدر الأرض ، وجدت سبيلها إلى الانطلاق والظهور على يد الابن البكر للأرض !

ألا إنها جنٌّ خفية تركب مراكبها وتتدافع منطلقة من سجونها فى التراب ! .

أطلقتها يد الإنسان الذى لايزال ذاهلاً عمايصنع ، ذهول النحل عما تمزج ، أو دودة القز عما تنسج !

* * *

هذه الحرب عملية هدم ماعلى الأرض ومافى نفس الإنسان ليُحدِث الله بعد ذلك أموراً ... وقد غمرت موجتها كل البقاع . استيقظ على قوارعها سكان خط الاستواء فى مجاهل القارة السوداء ، وسكان الأراضى الثلجية البيضاء وسكان مابينهما ، وسكان الجزر النائية المنثورة فى المحيطات ، وامتزجت منهم جميعاً فى جميع البقاع مجموعتان من الجيوش تقاتل كل منهما فى سبيل غاية واحدة .

وإن الأقدار تحررهم من التاريخ السيىء و « تصفى » ميراث الشراهة والحقد .

فهذه آثار لندن العزيزة على أهلها تهدم ، هدمها الإنجليز لا الألمان ! تحرروا من حبها وقدموها دون حُرِّية نفوسهم وعقائدهم فى الحياة . ولعلهم قد تذكروا بعد أن خَوَتْ مدينتهم على عروشها أن النفس هى الباقية ، أو هى الجديرة بحرص المرء على بقائها سالمة كريمة ، وما عداها ففداء لها . وتلك حقيقة من حقائق الإيمان كان الإنجليز قد أوشكوا أن يفقدوها حينما تدفقت عليهم سيول الأموال من بقاع الإمبراطورية قروناً طويلة .

ولعلهم تذكروا كذلك أن حرية كل شعب خاضع لم يجب أن تكون أعز عليه من كل شيء بعد أن هددت حريتهم من عدو جبار ، وكانوا قد نسوا ذلك أيضاً فى تلك الفترة الطويلة التى حكموا فيها أمماً ولم تحكمهم أمة . ولعله يكون لطفهم وتذكرهم هاتين الحقيقتين من حقائق الإيمان ، أكبر الأثر فى عملهم على إقامة عالم سعيد على أنقاض القديم . وإذا نسى الإنجليز أو تناسوا تلك الحقائق بعد هذه الحرب ، فيرجو العالم ألا ينسى الأمريكان الذين كانوا بنجوة من الحروب الحديثة وويلاتها بعد أن تحرروا من وثنيات الأجناس والدماء المختلفة ، ونعرات القوميات المفرقة ، وشعار الاحتكار والاستعمار .

* * *

أجل ، إن الأقدار ما كانت لتترك هذه المجموعة الكبرى من الأمم التى تتكلم الإنجليزية ومن يرتبط بها فى أكثر بقاع العالم دون أن تقرّب بينهم بأية وسيلة لتتخذ منهم خميرة لتقاربُ حديث بين بنى البشر . وقد خابت المساعى لتقاربُهم عن طريق السلم ، إذ عز على الإنجليز المحافظين أن ينزلوا عن كثير من تقاليد إمبراطوريتهم العتيدة ، وعن حقوق الغلبة والفتح فيها ، وكانوا أولى الناس باتباع ذلك بعد أن خرجوا من الحرب الماضية منصورين ، وإذ عز كذلك على الأمريكان الأحرار أن يسيروا مع الإنجليز والفرنسيين فى نظرياتهم المحافظة ، فيرتدّوا عن مبادىء عالمهم الجديد وثوراتهم العظيمة التى قضوا بها على أكثر خمائر الأحقاد ومواريث التاريخ السيء فى القارات القديمة ، فعاشوا حياة جديدة فى أرض جديدة .

فكانت هذه الحرب الحالية ردًّا سريعاً من الأقدار ، وعقاباً للأمم

الناطقة بالانجليزية لأنها أهملت وتوانت فى السعى المشترك المسلح لإقامة عالم أسعد وأعدل ، وكانت — ولا تزال — تستطيع أن تنهض بأعباء ذلك العالم المنشود إن أرادت . .

***

و « بعد » ، فإن هذه المَلْحَمة العظمى وعواقبها ، ينبغى أن تضاعف فى قلوب العرب والمسلمين عزائم الاستعداد لانتقال عظيم يجب أن يسرعوا فيه لإقامة الحياة العادلة السعيدة التى تخدم أهداف الإنسانية جميعاً .

وإنهم لجديرون أن يقدموا للعالم أعظم المبادىء التى تقوم عليها السلامة الإجماعية والمساواة الفردية والدولية التى تنشدها الأمم وتنادى بها .

ويبدو من تفاقم مشكلات السلم التى رأيناها ترفع رءوسها البغيضة ، وتوشك أن تعود بالإنسانية إلى سيرتها الأولى ، مع أن الحرب لم تكد تضع نصف أوزارها . . ! أن العالم الأوروبى لا يزال غير راغب اللآن أن ينهض برسالة العدالة والمساواة والأخوّة كما يعرفها العرب والمسلمون . . فلعل الله يدخر هذه الرسالة لهؤلاء فى المستقبل كما شرفهم بها فى الماضى !

فليسارعوا إلى حياة الحق والعدالة والجمال التى فى ميراثهم بأرواحهم وأجسامهم ومجتمعاتهم ، حتى يكونوا نماذج مجسمة لما سيقدمونه للعالم من مبادىء وحلول للعقد والمشكلات .

وليعلموا أن هذا هو أوان التبشير والدعوة إلى مبادىء روحهم العالمى الذى قام على أصول أديان الحق التى ارتضتها البشرية فى المشرق والمغرب .

« ولقد كتبنا فى الزَّبُور من بعد الذِّكر أن الأرضَ يَرِثُها عبادىَ الصالحون » .

« كتب الله لأَغْلِبَنّ أنا ورسلى ! إن الله قوى عزيز »

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨	٢٠	يعلموا	يعملوا
٩	٦	كشف	كشفت
١٨	٨	إلى عشاق	لعشاق
٢٥	٧	عقلة	عقله
٤٩	١٤	انطلاق الإنسان	انطلاقه
٥٦	١٥	فإن هناك	فإن هنا
٦٩	١٢	صورا فى	صورا لها فى
٧٤	١٢	الفكرية المادية	الفكرية والمادية
٧٧	٣	يقيس قوتها	يقيسها
١٢٦	٢	التحرر من التاريخ	. . . .
١٥٣	١٤	تجد لها	تجد . . .
١٦٨	١٦	لإثبات شخصه	لإثبات شخصيته
١٦٨	٢٠	أستخدمها	أستخدمهما
١٨٤	١	بورة	ثورة
١٩٣	١	الأفعوانية	الأفعوانية
٢١٤	١٠	هذا	هذه
٢١٤	١٠	لنبحث	لنبحث
٢١٥	١	سيذهب بها	سيذهب . . .
٢١٥	٩	انطباعات قوى الكون	انطباعات الكون

obeikandl.com